جمال الغيطاني

دفاتر التدوين: الدفتر السادس

رن



المكتبة العربية
www.tipsclub.net
Amly

دار الشروق

جمال الغيطاني

دفاتر التدوين: الدفتر السادس

دار الشروق

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع ٣٤٣٤ / ٢٠٠٨

ISBN 978- 977-09-2319-0

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

تليفون : ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

خَرْجة

لأمر جرى وتمكّن منّي تغيّر حالى وتبدل أمرى، لن أفصّل ولن أخوض فلم أتأهب بعد لإيراد الأسباب، لكننى ألمح وأشير إلى زلزلة ما عندى وتبدّل ما التزمت به، لم يعد أمامى إلا الشروع فى هجاج والخروج من سائر ما يتعلق بى أو أتصل به، أطلعت أهلى ومن خرجا عبر صلبى وترائبى، ودّعونى بالتمنى، ألا تطول الغيبة، وأن تكتب لى السلامة فى كل خطوة أو موضوع أحل به، أن أطلعهم عبر صوتى على استمرار سعيى إذا سمحت الإمكانية، خلال الأيام السابقة رتبت كل ما يتصل بمعاملاتى وما دُوّن فى أوراق تتصل بأمور قائمة ومنها صلتى بعملى الذى انتظمت به عدة عقود متتالية، لم أهمل شيئًا يمكن أن يسبب إزعاجًا أو مشاقًا لمن يتعلق أمرهم بى. لم أختر التوقيت، غير أننى بدون أن أقصد أو أدرى لزمت ما اعتدته فى البداية، عندما كانت الأسفار تبدأ فجرًا، هكذا خَرْجتى تلك موازية لتلك اللحيظات المندثرة، التى تفد علىّ كأنها تخص آخر لا تربطنى به صلة ولا استمرارية وقت والماعون الحاوى لى عينه رغم تبدُّل الملامح وحلول الوهن. تمامًا، ما قبل الشروق، بدون حيرة أو اختيار أو التزام بقصد مسبق ولّيت شطر الوجهة نفسها، عندما يضيق بنا الوضع نتجه إلى مسارات البداية، نحاول الاتصال باللبنات الأولى، هكذا اتجهت إلى قبلى.

سعيت مشيًا، لم أركب قطارًا أو عربة، كنت أستهدف السعي بقدر الإمكان نأيًا عن أبصار القوم ومراصد العسس رغم اضطراب الأحوال في تلك الفترة وحدوث قلاقل مما أدى إلى تشديد الفحص وإطالة التدقيق عند مفارق الطرق، والحدود الفاصلة بين المحافظات والمدن. لم أبدل هيئتي، لم أستعر شيئًا لا يمت إليّ، لم أكن إلا ما أنا عليه، في خروجي هذا لم أكن إلا محصلة ما مررت به وما سأعرفه. ذلك الطفل الذي يمسك بيد أبيه أثناء السفر إلى الجنوب، الشاب الذي يرحل منفردًا منذ يفاعته. ذات نهار كنت أمضي على الطريق الشرقي، ما بين المنيا وأسيوط، المرتفعات الصخرية إلى يسارنا وإلى اليمين يمتد الوادي، أصداء اللون الأخضر وسريان مياه النهر، طريق جديد، خال من الخدمات تقريبًا، لذلك قلّت عليه الحركة وقتئذ، من الندرة رؤية عربة فما البال بالبشر؟ ما أزال أستعيد دهشتي عندما لمحت ذلك الرجل بمفرده يسعى، يرتدي جلبابًا ممزقًا، حافي القدمين، لحيته كثة، ليست هائشة، منمقة، مستوية، عكس شعر الرأس المنسدل في خصل غير متساوية، طلبت من السائق الوقوف، تراجعنا، ترجّلت صوبه متسائلاً عما إذا كان في حاجة إلى مساعدة. أومأ شاكرًا، قلت إننا نقصد قبلي، هل يرغب في صحبتنا؟ هز رأسه نفيًا، يطالعني مبتسمًا بملامحه كلها رغم إرهاقه البادي، أما نظرته فتتجه صوب نقطة نائية تتجاوزني، لا يمكن تعيينها، لم أنطق سائر تساؤلاتي، من؟ من أين؟ إلى أين؟ كيف يمضي وحيدًا في هذا القفر؟ ماذا يحمل في كيس القماش؟ عدت إلى السيارة وعندي استفسارات شتى بدون إجابة، بدون أية خاطرة أو توقع أنني سأصير مثله يومًا، كيف يمكن وقتئذ تجسّد مثل هذا الاحتمال الذي يبدو مثل تلك الأحلام الثقيلة التي أقوم منها متسارع الأنفاس، مفزوعًا، وأحيانًا أصرخ طالبًا لعون ما، وعيي متصل

به جسدي مشلول تمامًا، كل ما أستطيعه إطلاق صرخة متقطعة من الأنف، أجاهد حتى لا أسقط في السبات إذا كنت منفردًا، أو يوقظني من ينام على مقربة مني أو بجواري إذا سمع أنيني، أرى نفسي في بلد غريب فاقدًا لجواز سفري وأوراقي، أصل إلى المطار بعد إقلاع الطائرة، يحدق إليّ من أجهله، أستقل حافلة إلى وجهة لا أعلمها.

حدثني رجل دين قبطي يومًا عن الرهبان السائحين، لا مقرّ لهم ولا مأوى معروف، يهيمون في البرية لمدد قد تطول أو تقصر، ربما ينتهي ببعضهم الأمر إلى سكينة في أحد الأديرة، أو تنقطع أخبار الآخرين تمامًا، دائمًا هم هناك، بعد صمت قصير قال: يوجد الآن سبعة، ثم قال: طبعًا لا نعرف عنهم شيئًا، ثم قال: اتصالنا بالقلب. في الأزهر أصغيت إلى الشيخ صالح الجعفري، غامق السمرة، مهيب البنية، قديم العمامة واللحية، عرفته زمن فتوتي عصرًا، في ميعاد معلوم يجلس مستندًا إلى عامود رخامي، يتحلق حوله الطلبة والأهالي والأغراب، كل من يرغب، قصدته بصحبة الوالد، ثم انتظمت بمفردي إلى أن رحل مكرمًا، وقبره الآن حوله ضريح مهيب يقصده القوم للتبرك وقضاء الحاجات، استعدت كثيرًا نبره، حديثه عن أولئك الذين قطعوا العلائق ولزموا الأطراف، ائتنسوا بالخلاء، لا أدري دافع كل منهم، لكل حاله ومقصده، بدون دخولي في تفاصيل يمكن أن تشير إلى ما جرى لي أقول إنني لا أمتّ إلى هؤلاء أو أولئك، أمري مغاير حتى وإن اتصلت الأسباب.

ما كان مني حدد قصدي، الآن تتعدد المسارات إلى قبلي، طريق شرقي أعرفه، غربي أجهله تمامًا لم أطرقه من قبل، طبعًا القياس هنا إلى النهر، إنه العلامة الكبرى والإشارة الواضحة وإن بدا تراجع في

نارية، غاب هذا كله عنى، بل إن النوم لا يأتينى إلا مع اكتمال العتمة، زمان كنت أبقى بصيصًا من الضوء، هذا حديث أمره يطول، لطول ما تقلبت بين الأزمنة والبقاع اكتسبت أمورًا وفارقت أخرى، هكذا سلكت بقليل من الزاد أرضًا قريبة وبعيدة، أتجنب الطريق الممهد بقدر الإمكان، أبدأ المشى مع شقشقة الفجر ولا أتوقف إلى ما قبل الظهر، بعد العصر أكمل، مع نزول الليل أنزوى، أدخل إلى العمار بين الحين والآخر، أمضى وقتًا، أمارس عملاً، أداوى أمرًا طرأ ثم أستأنف تقدمى المحسوس، ذلك أن سعيًا آخر يجرى، إذ أرحل بالنظر أو أقطع المسافات السحيقة إلى مدن لم تعد قائمة وجزر غطاها البحر أو أخفاها توالى الزلازل، لذلك لن ألزم الترتيب فى هذا التدوين الذى آثرت أن أنجزه بعد أن جرى ما جرى، لعلى ألمحت بعد أن لم يتبق منى إلا الاسم، ليس منى فقط، إنما من سائر الموجودات، جميع الطرق والمسالك، الجهات، ما ينبت وما يولد، ما ينتهى وما يرحل، ما يطل وما ينزع، ليس هذا كله إلا أسماء، وبقدر قوة الاسم يكون التحقق وحل المشكل وكذا تصوّر الممكن.

أخميم

ألف. خاء. ميم، ياء، ميم..

ثمة شىء رسخ عندى بمجرد سماع الاسم قبل أن أدخلها أول مرة، ثم أثناء ترددى عليها، حتى استقرارى بها مدة قبل استئنافى فى الخرجة إلى البر القبلى، فى المنطوق شىء، فى التدوين شىء، موقن، وأثق بمثوله. قيامه، تحقّقه فى حيز ما، يشقّ علىّ تعيينه أو تحديده، يغمض علىّ فكيف أصفه أو أتحدث عن سمته، غير أن يقينًا ما يؤكد وقوفى يومًا على قبس منه بحلول توقيت معلوم.

أخميم

قبل وفادتى تلك نزلتها أول مرة منتصف العقد السادس من القرن العشرين الذى قُدّر لظهورى أن يكون فيه، بالتأكيد ثمة شىء بدأ عندى مع بلوغى لها، ربما عند سماعى الاسم، أرى وضعى إذ أصغى إلى «أخميم»، تتغير وجهتى، تتبدّل طلتى، أوجّه نفسى صوب ما لا أدريه، ثمة طبقات مبهمة، الظاهر منها ما عاينته عندما قصدته أول مرة فى مهمة تتصل بعملى وقتئذ، تدقيق ألوان النسيج، حريرها المشهور باعتبارى متخصصًا فى صباغة الخيوط من قطن وصوف وكتان، جئتها مكلفًا بأمر، أما المضمر فاستيعاب ومعاينة ومعايشة ما لم أعرفه من أرض محددة انْتمى إليها بعض من الغاربين، عرفتها من قراءة أوصاف

نارية، غاب هذا كله عنى، بل إن النوم لا يأتينى إلا مع اكتمال العتمة، زمان كنت أبقى بصيصًا من الضوء، هذا حديث أمره يطول، لطول ما تقلبت بين الأزمنة والبقاع اكتسبت أمورا وفارقت أخرى، هكذا سلكت بقليل من الزاد أرضًا قريبة وبعيدة، أتجنب الطريق الممهد بقدر الإمكان، أبدأ المشى مع شقشقة الفجر ولا أتوقف إلى ما قبل الظهر، بعد العصر أكمل، مع نزول الليل أنزوى، أدخل إلى العمار بين الحين والآخر، أمضى وقتًا، أمارس عملاً، أداوى أمرًا طرأ ثم أستأنف تقدمى المحسوس، ذلك أن سعيًا آخر يجرى، إذ أرحل بالنظر أو أقطع المسافات السحيقة إلى مدن لم تعد قائمة وجزر غطاها البحر أوأخفاها توالى الزلازل، لذلك لن ألزم الترتيب فى هذا التدوين الذى آثرت أن أنجزه بعد أن جرى ما جرى، لعلى ألمحت بعد أن لم يتبق منى إلا الاسم، ليس منى فقط، إنما من سائر الموجودات، جميع الطرق والمسالك، الجهات، ما ينبت وما يولد، ما ينتهى وما يرحل، ما يطل وما ينزع، ليس هذا كله إلا أسماء، وبقدر قوة الاسم يكون التحقق وحل المشكل وكذا تصوّر الممكن.

أخميم

ألف. خاء. ميم، ياء، ميم..

ثمة شىء رسخ عندى بمجرد سماع الاسم قبل أن أدخلها أول مرة، م أثناء ترددى عليها، حتى استقرارى بها مدة قبل استئنافى فى الخرجة ى البر القبلى، فى المنطوق شىء، فى التدوين شىء، موقن، وأثق بثوله. قيامه، تحقّقه فى حيز ما، يشقّ علىّ تعيينه أو تحديده، يغمض علىّ فكيف أصفه أو أتحدث عن سمته، غير أن يقينًا ما يؤكد وقوفى ما على قبس منه بحلول توقيت معلوم.

أخميم

قبل وفادتى تلك نزلتها أول مرة منتصف العقد السادس من القرن لعشرين الذى قُدّر لظهورى أن يكون فيه، بالتأكيد ثمة شىء بدأ عندى ع بلوغى لها، ربما عند سماعى الاسم، أرى وضعى إذ أصغى إلى خميم»، تتغير وجهتى، تتبدّل طلتى، أوجّه نفسى صوب ما لا دريه، ثمة طبقات مبهمة، الظاهر منها ما عاينته عندما قصدته أول مرة ى مهمة تتصل بعملى وقتئذ، تدقيق ألوان النسيج، حريرها المشهور عتبارى متخصصًا فى صباغة الخيوط من قطن وصوف وكتان، جئتها كلفًا بأمر، أما المضمر فاستيعاب ومعاينة ومعايشة ما لم أعرفه من ض محددة أنتمى إليها بعض من الغاربين، عرفتها من قراءة أوصاف

الرحالة والمؤرخين وأحاديث الناس فى قريتى، مسقط رأسى، عندما يتحدّثون عن البلاد الواقعة شرق النهر، عن ضيق مساحة الأرض، عزلة القرى والمدن، عدا أخميم، غير أنّ بداية توجّهى قبل أن أصلها مع تعرّفى على سيرة ذى النون الأخميمى وسعيى إليه، قبل الطريق الشرقى جئتها من الغرب، محطة القطار فى مدينة سوهاج الخلو من الملامح، منها يمتد الكوبرى الضيق إلى الشرق، إليها، أنشئ فى الخمسينيات، كان مطلبًا للقوم منذ سنوات بعيدة، وعد المرشحون من الأحزاب المختلفة بالعمل على إنجازه، غير أنه لم يتحقق إلا بعد الثورة بعد زيارة قام بها رجال من قادتها عانوا مشقة عبور النهر العاتى الهادر، المتسع فى تلك الناحية، تمكّن شيخ مهيب له رهبة وتأثير من انتزاع وعد وتوقيت محدد لبدء التنفيذ، غير أن الجسر ضاق عن حركة المرور مع توالى السنوات فتجدد المطلب بضرورة مد آخر، أفسح وأمتن.

الآن، بعد كل ما عرفته وما جرى عندى، يمكننى تحديد ما أدركنى عند ولوج المدينة، بدء إيغالى فى شوارعها الضيّقة، نواصيها المباغتة، دورها المتداخلة مع المساجد والكنائس ومصانع النسيج العتيقة بأنوالها معقدّة التراكيب، كثيفة الخيوط والميراث، خيوط تبدأ من وفرة ورق التوت وسعى دود القز، والتشرنق، التحوّل من صورة إلى أخرى، إنه حرير أخميم العتيق، مزخرفاته المتوارثة من أزمنة سحيقة، عاينت تنفيذها على أيدى إناث شابات، معظمهن قبطيات، بعضهن تركن فى روحى وشمًا لمجرد النّظر، عيون متطلّعة، نافذة، خجلى، داعية، واهية، مستنفرة، مدركة لقصر اللقيا وعبورية اللحظة، استحالة الرّى والتواصل، لذلك يودعن جل مضمونهن، ما خفى منه وما ظهر فى رسائلهن المكثفة عبر الأحداق، لم تخطئنى قط ولم أفتها، بعضهن مازلن يتطلعن عندى وإلىّ حتى الآن، تمامًا كما رأيتهن، رغم مرور

أربعة عقود أو أكثر، غير أن ما صار إلى يقين لا يداخله شك أن ثمة مدنًا أخرى متداخلة على ما يظهر، ما نراه بالنظر، ربما عدم استواء المدينة، طلوعها ونزولها، ربما ذلك العمق الذى ظهر بعد اكتمال الحفائر قرب الجبّانة وظهور ميريت آمون، المدن المتعددة قائمة، لكن ثمّة أسئلة بلا أجوبة حتى الآن، كم عددها؟هل تتداخل فى بعضها البعض بما فى ذلك ما ظهر، ما نقدر على معاينته؟ أم تتوالى فوق بعضها البعض تحت الأرض، فى كل منها يسعى سيدى ذو النون الذى كان عالمًا بالمصرية القديمة، أو كما وصفها العرب، قلم الطير، أنطق اللفظ أحيانًا بصورته القديمة «رنْ»، «رنْ» يعنى اسم، واسم يعنى «رنْ» ثمة شىء مرتبط به، بالمدينة، ما خفىَ أكثر مما يظهر، لا يتكشف منها للعابر إلا جزء يسير، مجتزأ من درب خفى طويل، فى كافة المصادر المدوّنة والمنطوقة إجماع على وجود مدن مطمورة، فقط ما تحتاج لظهورها الحفر والتنقيب، معظم الرّحالة الذين جاسوا فى أزقتها وصفوا ما لم نعد نراه اليوم، أين اختفت وكيف؟ أين البربا الشاسعة التى وصفها ابن جبير وابن بطوطة وغيرهما من الجوّابة، الرحّالة، عاينوها بأنفسهم، لم يمض على مجيئهم زمن طويل، فقط . . سبعمائة سنة أو ما يقاربها، أين اختفت الأعمدة والبوابات والصروح؟

مما سمعته أول مرة من بعض الأهالى الثقاة أن مغربيًا متقدمًا فى العمر، وصلها فى غير الأوان، المعتاد ظهور الساعين إلى الحج، يجيئون فرادى وجماعات، بعضهم يضلّ أو ينقطع أثره تمامًا أو يستقر فى واحة أو قرية إذا لمح أنثى استكان إليها وسكن، لا يغير مصير إنسان إلا امرأة.

مرات أصغيت إلى النبأ الذى يعلنه على القوم أول من رآه، الخبر يحوى تحذيراً أيضًا، ثمة رجل غريب، لكن القوم لا يخشون مجيئ المغاربة، بل إنهم يتوقعون ظهورهم، بعضهم يتعجّله لما عرف عنهم من مقدرة على فتح الكتاب والإنباء بما سيكون أو مداواة علل أعيت الحكما، لثلاثة أيام يحقّ للآتى من بعيد الضيافة، ينزل بمندرة أحد القادرين، يقدم إليه الطعام فى مواعيده والشاى والدخان ويرتّب له المرقد، صباح اليوم الثالث يسأله صاحب المضيفة عن اسمه وغايته وما وراءه، للمغاربة حظوة وقبول، بعضهم يصل مفردًا، يضع القبلة وجهته، لا تعنيه تفاصيل الدروب المؤدية عبر الصحراء، لديهم كافةً علم بتحديد الوجهة، يتقدم باستمرار، المهم أن يتم رحلته إلى مكة مشيًا على الأقدام، لظهورهم توقيت معلوم، تستغرق الرحلة ستة أشهر فى الذهاب ومثلها فى الإياب، لذلك ينحصر موعد ظهورهم فى موعد معلوم كان يتفق مع بدء خروج الحجاج من أهل البلاد إلى مكة، إلا أن هذا المغربى الهرم جاء فى زمن غير معهود، عندما ظهر كان العائدون من أداء الفريضة قد أولوا ظهورهم للنيل والنخيل والوادى كله مستقبلين الغرب، لا تحتفظ المدوّنات أيا كان نوعها بخبر وصول أحدهم من جهة الغروب فى هذا التوقيت، لكن للقادم من بعيد حرمة وله واجب، نزل فى المسجد، لزم مكانًا قريبًا من المنبر واعتذر لكل من دعاه، كان يحمل زمزمية من فضة تتدلّى من كتفه، وأخرى أصغر مشدودة إلى وسطه بها نسخة مخطوطة من دلائل الخيرات، تحت إبطه عصا قصيرة سوداء توسّدها فى نومه وتأبّطها فى يقظته، بعد أن أمضى ليلته خرج فى الصباح الباكر، قعد فوق مرتفع مشرف على البربا بما تحويه من أقواس وتماثيل وأعمدة وغرف متداخلة وما حوت من

مخفيات شتى، قال بصوت مرتفع سمعه بعض الرعاة: يجب أن يذهب هذا كله إلى هناك.

بدأ يشير بالعصا، كلما صوّب باتجاه شيء يختفى، فى لحظات توارى عن الأبصار ما ظنّ القوم أنه لن يبيد أبدًا، لن يجرؤ أحد على مسّه لوجود الأرصاد والطلاسم، كلها تلحق الأذى بمن يتجاوز الحد، كثيرون أضمروا العبث وقصدوا لكنهم تحوّلوا إلى أحجار شائهة أو حيوانات ضالّة يطاردها الصغار والكبار، اختفى سائر ما وصل اللحظة من عصور شتى، راحت البربا بكل ما حوت لتبدأ التساؤلات: هل شيّعها إلى مكان محدد؟ هل أخفاها عن الأنظار والحواس؟ هل يبقيها عالقة فى الفضاء الأعلى مسلطة، فى أى لحظة يمكن أن تهوى؟ أم أرسلها إلى تحت الأرض؟ أم ضرب عليها ستاراً خفيًا؟ ما حيّر القومَ أجيالاً، الوجهةُ التى أرسل المغربى إليها كافة العمائر وليس استثنائية الفعل، قدرة القادمين من بعيد مفروغ منها، كل ما ينسب إليهم لا يشكّ فيه أحد.

أجوس الشوارع الضيّقة، الدروب، الأزقة، لا يستوى أحدها، لابد من منعرج، صعود، هبوط، أوقن أن البرابى ما تزال فى أماكنها لكنها مختفية تحت، فى موضع ما أسفل هذه البيوت، الوكالات، المساجد والكنائس، ما يساند يقينى ويقوّيه اكتشاف تمثال مؤنسة الغروب، ذات البهاء والمجد الأنوثى، ميريت آمون، كانت منكفئة على وجهها تحت مستوى الأرض التى يمشى فوقها القوم بعمق لا يقلُّ عن عشرين متراً، للوصول إلى حضرتها الآن لابد من النزول.

هل أخفاها المغربى؟

لا أدرى

هل أشار إلى الملكة فأسقطها وطمرها؟ إذا صح ذلك فهذا يعنى مجيئ لحظة يتكشّف فيها شيء آخر، كنت واثقًا من وجود كل شيء ولا أعرف مصدر ثقتى تلك، عندما جئت أخميم نويت أن ألزمها هذه المرة، لم أمض فيها ليلة واحدة منذ أن بدأت التردد عليها، كانت خلوا من فندق حتى متواضع، اعتذرت عن قبول ضيافة بعض الكرام لأن صلتى بهم لم تكن وطيدة، هذه المرة كنت أطرح ورائى كل ما فاتنى، لا أنظر حتى خلفى ولا أحاول استعادة ما كان إلا بمقدار ما أدركنى أو مسّنى من تلك الرياح الهبوب التى تستثير الذكرى، وتُظهر فى ومضات خاطفة بعضًا مما كان، لم يكن يعنينى المرقد أو المأكل، أو طول فترات الانفراد مع انعدام الصحبة البادية للآخرين، فعندى الرفقة التى أستغنى بها عن كل أحد، ولن يدركها آخر، ما همّنى مبرر وجودى العابر، الظاهر، لم يغب عنى كل ما يمكن أن ينغص علىّ حالى، ويعطل ترحالى، هكذا قصدت صاحبًا عرفته قبل إحالته إلى التقاعد من أبناء المدينة القدامى، بيته مطلّ على النهر، مقيم فى مصر، يتردد عليه بين الحين والحين، أطلعته على قصدى المعلن، تفحّص ودراسة ظروف مصانع الحرير وأحوال العاملين فيه، والأسباب الكامنة وراء تناقصهم وقلة عددهم، ما أحتاجه إقامة، قال عبر الهاتف إن بيته خال وأنه تحت تصرفى، غير أننى رغبت فى حجرة المضيفة المعزولة عن التكوين كله، هكذا صرت إلى مستقر، إلى موضع فى المقدمة، توقى إلى السعى، دائمًا يعنى الجنوب عندى استمرار الرحيل، بل إن مكثى فيه سفر، ما من إقامة قط، يمكن أن يقطع القطار المسافة من القاهرة إلى أسوان فى ست عشرة ساعة، ومع الزمن وتطوّر الأداة والواسطة تتناقص المدة، قطار النوم الذى يسافر ليلاً اختصرها إلى إحدى عشرة ساعة، يمرُّ بكافة المحطات لا يتوقف إلا مرّتين، الأقصر وأسوان،

السفر جنوبًا لا يكتمل إلا بالقطار، عرفت الطائرة والعربة لكننى لم أستعد ذلك الكشف، ذلك التأهب لتوقّع المرور بأعمدة التلغراف، النخيل، الجسور الصغيرة، القرى، المدن، الأرصفة المكتملة، لا يكتمل السفر إلا مشيًا، إلا سعيًا، إما القطار وإما التقدم عبر المسار على قدمىّ، عندما شرعت لم أول وجهتى إلا صوب قبلى، ليس لأننى أسعى إلى الجهة التى يجيئ منها النهر، ما من معرفة أو اكتشاف عند المصب، إنه النهاية، لكن قصد المنبع فيه الدهشة وذلك الاستقبال البكر، والتوقّع، تبسّمت، بل إننى فرحت لرقادى قرب النيل ولى بالنهر وطيد صلة لعلى مفسّرها فى السياق، قصدت تمثال مطربة المغيب، مؤنسة قرص الشمس عند الرحيل، ميريت آمون، فى أزمنة مختلفة، يمكن القول إننى عرفته فى سائر لحظات النهار، أرعشتنى تقاسيم جسدها وأخاديدها والخمصة أسفل بطنها، ظننت اعتيادى ذلك خلال زياراتى العابرة، وأن جديدًا لن يأتينى منها، لكننى صرت أقصدها فجرًا وغسقًا، شروقًا وضحى، ذلك أننى أدركت أن لها فى كل لحظة تجلّيًا مغايرًا، بل إن رعشات صارت تجتاحنى كلما لاحت. جئتها أول مرة بعد اكتشافها بشهور، كانت منكفئة، عندما سقطت، أو عندما أُسقطت تمددت متّجهة صوب الأرض، الغريب أن ثقل جسدها لم يؤثر على يدها اليسرى الممسكة بزهرة اللوتس، أما اليمنى فظلت ممتدة إلى جوار جسدها فى ثبات يليق بملكة، ساقاها تحطمتا، رقادها على وجهها بدّل سماتها، توالى الأوقات والأوضاع يغيّر معالم الحجر، انبطاحها القسرى، المفاجئ بعد وقوف دام مئات السنين أضفى استسلامًا قهريًا وأسى وسكينة خاضعة، تبدّل الوضع يغير السمت، تمامًا مثل تغيُّر الاسم، ميريت الواقفة غير ميريت الراقدة قسرًا. أوقات طويلة أمضيتها فى مواجهتها مستوعبًا قبل حلولى فى

أخميم لمدة، تابعت إنهاء انكفائها، إحاطتها بالسقّالات الخشبية، ترميم ما تبدد، تابعت تطلُّعها إلى اللا جهة، سكونها الدمث، الأنثوى، الحاوى للحض والتحريض، تابعت زوال حمرة شفتيها، أفول اللون إثر التعرض لكافة ما يأتى به الخلاء بدءًا من الرياح وحتى الحر والبرد وذرات الرمال الضالة، طفت بها متقصيًّا أماكنها الخفية.

مثولى أثناء إقامتى مغاير لما عرفته منها عند عبورى، صرت أتطلّع إليها حتى لو أوليتها ظهرى، أراها بعد إغلاق باب المندرة المطلّ على الطريق المؤدى إلى النيل، ميريت آمون تمتزج بأخميم حتى قبل ظهورها.

أماكن شتى حللت بها، عبرت بعضها، لم أمكث بها إلا الوقت اليسير اللازم لعبورها، أقمت فى بعضها مددًا انقضت عنى، فارقت أخرى بلا أى أمل فى عودة، لكن كلها لزمتنى بدرجة ما، بقى منها عندى جزء من طريق أو ناصية، مدخل مؤد، جزء من درج، لون طُلِىَ به باب، لافتة لمحطة قطار، بقايا ظل، أعمدّة برق، لا يعلق إلا جزئ، حتى المدن الكبرى التى همت بها وأمضيت فيها أيامًا عديدة لا تمثل عندى فى مجملها، فى سائر مراحلها، يسرى هذا على الكافة، عدا أخميم، من بعيد أراها فى مجملها، فى سائر مراحلها، ما أعرفه منها وما أجهله، حتى بعد إقامتى بها لا يمكننى ادعاء معرفتها كما أُلمّ بالجمالية ودروب نقادة وأزقة رشيد ومساجد فوة، جهينة وحوارى بحرى فى الإسكندرية، ثمة أماكن لم أبلغها ولن أطأها، لم أعرفها إلا بالإصغاء أو المطالعة، رغم ذلك أتوحد بها كأنى أنفقت فيها جل عمرى، هذا أمر دقيق ينتمى إلى رقائق رهيفة لعلى مقاربها ومشير إلى بعض ما تعنيه أخميم.

كأننى أحملها أينما وليت وجهى، أوقن أنه سيذوى معى، لذلك أتطلع متعشّمًا فى الإنجاز، أخميم مدن متداخلة، كل منها تؤدى إلى أخرى وتتوارى عنها أيضًا، كيف يمكن الكشف عن كل منها بدون فقد الأخرى؟ فى خضم تنقّلى هذا ومكثى إلى حين.. يهيمن علىّ سيدى ذو النون، بل إن نزوعى إلى أخميم لم يبدأ إلا عبر اسمه، فلو لم يلحق الأخميمى به لما توقفت ولما صارت عندى تلك الشنشنة.

سنوات أتمهّل عند مطالعته، أفرق حروفه لأنفرد بكل منها على مهل، أنطقها حرفًا، حرفًا، أسمعه للخواء المحدق بى، مع كل نطق لحرف أزداد معرفة وتنجلى لى غوامض، يتجسّد أمامى كائن يصعب تصنيفه، يحدق إلىّ، نتبادل النظر بُرَيْهة. يولّى، مرات يلزمنى، أقرأه، أطالعه، يغيب ويعاودنى، يمشى قربى أيامًا محتفظًا بالمسافة عينها، لا أقدر على استيعاب ملمح منه، مرة يطالعنى من إطار لا يحوى شيئًا لكننى أتمكن من ملامحه كافةً، أعاينها لكننى لا أحتفظ بها، يستحيل وصفها، أردد:

ذو النون، ذو النون

ها هو يسعى فى خلاء رمادى، سماء ذات هفوف، أنطق الرنّ.

ذو النون

يجلس متربّعًا، يقرأ لفائف البردى، يستوعب بالنظر أشكال القلم القديم، يترجمها إلى عربية سليمة لا يدركها عوج.

متى، كيف، من علّمه القلم المصرى العتيق؟

ذو النون

تمامًا مثل هاتور، أنطاكية التى لم أبلغها، إرم ذات العماد المندثرة، منف زمن عزها، تضوى بأسوارها البيضاء، محيط الظلمات، أسماء تتجاوز المقدرة على الحصر، يمثل عندى ما تدلّ عليه وتشير إليه أقوى من كافة ما خبرته بالحواس والمبادلة، ليس البشر والأمكنة، إنما سائر ما تدلّ عليه الأسماء، لنا فى ذلك اجتهاد وشرح ومحاولة.

ذو النون

متى طالعت اسمه؟

من قبل

قبل أى شىء؟

من بعد

بعد أى شىء؟

لا أعرف أى قبلية أو بَعْدية، لكننى حتى لا ألغز أقول إن ذلك قبل وبعد نزولى أخميم، قام عندى قران بين تداعيات اسمه وما توحى به حروف أخميم، هما صنوان.

حوى المكان والزمان، كلاهما هو.

أبوالفيض، ثوبان بن إبراهيم، غير أن ما قرّبنى وجذبنى ما عُرف به، أحيانًا يُجب اسم اسمًا آخر، ذو النون أى صاحب الحوت، كان له صلة ما بحيتان البحر، قادر على سماع أصواتها من مسافات قصية، يصغى مستوعبًا وبعد حين يرسل الإجابة، يصير حوار.

أصغيت مثله إلى أصواتها لكننى لم أفهم ولم أستوعب، جرى ذلك عند ساحل عُمان وعندما توقفت بمتحف الأحياء والطبيعة، لديهم

تسجيل لأصوات حيتان شتى أثناء تجوابها مياه الكوكب، لأول مرة أصغى إلى صوت من كائنات البحر، الماء وسيط أفضل لانتقال الأصوات، أوقن أن لكل موجود صوته وطريقة نطقه، ما علينا إلا التوفيق بين ما يصدر وإمكانية السمع، عندئذ سنصغى إلى تسبيح الحجر وعتاب الشجر واستغاثة النجوم الهاوية، بدا صوت الحوت واضحًا، نقيًا، قيل لى إن الماء وسيط جيد لانتقال الصوت.

نواح أقرب إلى العويل، لكنه مفرد، وحيد، صادر إلى نقطة غير محددة، لا يراها، لا يعاينها ذلك الكائن الضخم، هائل الحجم، السارح فى اللامدى، استغاثة ميئوس من وصولها إلى متلق بعينه، إنما لعل وعسى، يطول إصغائى، يقوى علىّ حضور ذى النون، خاصة عند انفرادى بمطربة المغيب ليلاً وبدء مفاوضاتنا، أستدعيه بذكر اسمه، أنطقه فيمثل، لم يتقن لغة الحيتان فقط، إنما لغات الحيوان بأنواعها والجماد، ما يُخيّل إلينا أنه مصمت، لا يوجد فى الكون صامت أصلاً، ليس هذا شطحة من عندى، إنما نطق وإفصاح تسلّمته من الشيخ الأكبر.

ذو النون

لا يأتينى بمجرد النطق أو الهمس به، لابد من التأهُّب، أحيانًا يخطر لى، يعلق بفضائى الخاص، عندئذ أجد نفسى فى حضرته، إما واقفًا على مقربة منه أو ماثلاً بين يديه قاعدًا أو متخذًا وضعًا لم أعرفه مع غيره، المهم أننى شاخص دائمًا إليه، متطلّع. أكد لى معرفته بقلم الطير، الخط المصرى القديم، المقدس. هكذا سماه العرب عندما رأوه أول مرة محفورًا فى أعمدة البرابى وجدرانها، أو مخطوطًا على أوراق البردى، غير أنه لم يطلق عليها ذلك، بل نطق كلمة لم أستطع حفظ

حروفها لأننى لم أقدر على تمييزها، أكد لى أنه لم يكن بمفرده، غير أن الآخرين فى أماكن أخرى ومعظمهم غير معروف، ثم قال لى: ارجع إلى ما ذكره أصحاب الحوليات ورواة الوقائع، سألته: مثل المقريزى وابن إياس والإسحاقى المنوفى؟ تطلع إلىّ صامتًا بما يعنى الإيجاب وخيّل إلىّ أننى لمحت رفة عين عند ذكرى الاسم الأخير، لكننى لم أعلق، ولم ألزم.

بعد أيام معدودات كنت خلالها أتردد على مصانع الحرير نهارًا وأمكث ليلاً قرب مؤنسة قرص الشمس عند المغيب، قبل انبلاج الفجر قوى علىّ الاسم، بدا ذو النون كأوضح ما يكون، كيف لم أنتبه إلى ما كان يمسكه، يقبض عليه، يشير إلىّ أن أقترب فأدنو، يسلمنى لفافتين من مادة وسط بين البردى والكتان كما بدت لى فيما بعد، يقول بصوت خفيض لكنه آمر.

«لك هذا..».

ثم قال:

«طالع بتأن ولا تشطح..».

ثم قال:

«لا تلزم..».

ثم قال:

«الزم..».

المدوّنات الأخميمية

«وبها الأسماء الحاوية، المتضمّنة لنصوص المعارف والأحوال والوقائع السارية من عصر إلى عصر ومن موضع إلى موضع، المنتهى أمرها إلى الفقير لربه، المحتاج إليه، العبد المكمل، ثوبان ـ بن إبراهيم، الأخميمى مولدًا، الكونى أثرًا المكنى بذى النون، من انتهى إليه علم قلم الطير المحفوف بالاسم الأعظم».

أحيانًا يأتينى صوته رغم عدم مثوله أمامى أو فى دائرة حواسى، أسمعه فأصغى، أحيانًا أنتبه إلى إيقاع مويجاته وليس لفظه، ما يدلّ عليه أعمق، ظاهر نطقه ود وجوهره أمر، يحدّثنى فى أويقات خلوتى أو عند مثولى بحضرة مطربة الشمس الغاربة، يرق نبره حتى يخجلنى، يمس أغوارًا لم يبلغها تأثير ولا أصداء من قبل فيوشك دمعى!

فى خرجتى تلك أنوء بأثقال، بدأت بعد بلوغى عمرًا لم أتصور أننى سأصل إليه بسبب ما جرى لى من محن أصابت جسدى، وبرأت منها بعد مكابدات ومشاق أودعت آثارًا لن تتبدد إلا بعد تحلل خلاياى، رغم اتصالى بهذا وذاك إلا أننى كنت فى صميم الانفراد، توشك الأسباب أن تنقطع بى، غير أن الوشيجة التى تحول وتمنع دخولى المفردة، فتمتد من اسم ذى النون إلىّ.

«طالع بتأن...».

هذا ما التزمت به، ليس امتثالاً ولكن لضرورة، ما بدأت مطالعته، واضح الرسم، لكنه غامض التراكيب فكأنى أرى حروفًا أعرفها لكنها تدلّ على لغة أخرى أجهلها، لذلك حاولت أولاً الاستيعاب حتى يمكننى التيسير، فى كل قراءة لا أزداد فهمًا فقط إنما أتقن الرسم القديم، انحناءات حروفه، تلاقيها، تفرّقها، أحيانًا أنطق متمهلاً بصوت مرتفع، أحيانًا أنقل بخطّى فقرات كاملة، كلما بذلت المحاولة ضاقت المسافة بين الحروف التى أتقنها واللغة التى أجهلها، حالى أقرب إلى أولئك العرب المسلمين الذين بقوا فى الأندلس، لجأوا إلى التعمية بكتابة المعانى العربية بحروف لاتينية، هكذا وجدوا بعض وثائق الجينيزا التى عثروا عليها فى خبيئة معبد بن عزرا بالفسطاط، وثائق بيع وشراء، خطابات متبادلة بين أفراد لم يعد لهم سعى، اندثر أمرهم وانقطع خبرهم، ليس بين طائفة اليهود فقط، ولكن من الوجود. كتبوا المعانى العربية بحروف عبرية للإبقاء على معاملاتهم سرًا، ليس هذا الحال الذى وجدت نفسى فى مواجهته، إنما قصدت التقريب، ربما هذا ما قصده سيدى عندما قال بلهجته المحايدة، الهادئة:

«طالع بتأن».

غير أننى لم أدرك تحذيره لى بألا أشطح، فى أى وجهة يكون الشطح؟ لكننى عرفت تمامًا أن الفهم فى التأنى، فى التمهل، كلما أمعنت أدركت وفهمت ونفذت، صرت أنطق ما توصلت إليه متمهلاً، أنقل بخطى فقرات كاملة، قدرتى على الاستيعاب عبر الكتابة أفضل، كأنى أنشئ ما أنقل، أشارك فى إيجاده بشكل ما فيصبح جزءًا منى، لا أشبه ذلك المتعجل الذى قص علىّ سيدنا خبره فى لحظة خلوة به، لم أكن أراه، لكننى كنت أسمعه، أقول ذلك وفضولى متأجج منذ أن

استلمت المتون وصارت اللفائف إلىّ، لكننى لزمت، لم أكن مثل ذلك الذى أجهله.

حدثنى أن أحدهم ـ وكان ذو منصب وحيثية ـ قطع مسافة طويلة مشيًا على قدميه، وبعد أن لزم الباب أيامًا جاءه الإذن بالدخول، طلب من سيدنا أن يطلعه على الاسم الأعظم، إذ شاع وعرف عن ذى النون وقوفه وإلمامه، الحق أنه دهش، كثيرون ممن لازموه حقبًا طويلة، حتى خليفة المسلمين الذى قابله وأصغى إليه وحاوره عند ذهابه إلى بغداد لم يسأله أمرًا كهذا، أطرق لحيظة ثم أمر بطبق مغطى بطبق آخر، طلب منه عبور النيل إلى الضفة الغربية والعودة. امتثل الرجل، فارق أخميم قاصدًا مرسى المراكب التى ستنقله إلى الغرب، قبل وصوله إلى الضفة لم يعد يقوى على كبح فضوله، ترى ماذا يحوى الطبق؟ كشفه، انثنى راجعًا والغضب يفط من عينيه، دخل بدون استئذان محتجًا: هل تسخر منى؟ أطلب معرفة اسم الله الأعظم فتعطينى طبقًا به فأر ميت!

تبسّم سيدنا غير بعيد، قال بهدوء: لم تصبر وغلبك فضولك فكيف تطلب منى ما يمكنك به تدبير الوجود كله وتسييره على هواك؟

ما جرى عندى، ما بدا منى مغاير، ذلك أنى لزمت الترتيب، إذ إننى فى وقت الامتثال والإصغاء، إنما أنا الآن ممعن فى مجهول وقاصد غير وجهة، أخشى الهفوة وأتجنّب الزّلة، لا أدرى ماذا يمكن أن يجرى لى؟ علىّ أن أستوعب بلا عون، مصيرى مفرد كما جئت، يولد المخلوق بمفرده ويمضى لوحده، لا أحد يرافق أحدًا، لا عند البداية ولا النهاية، ما رسخ عندى ألا أستفسر، أن أستوعب ما ينطق، ما يصلنى منه، علىّ الاجتهاد فى الفهم، تفسير ما أصغى إليه فى إطار حالى، هكذا انتهيت إلى ما ظننته قريبًا من قصده.

لاتلزم. أى لا أتقيد بإخراج النص الحرفى للمتون، إنما أجتهد فى إعلان الجوهر كما أدركته، الزم.

أى لا أحيد عنه ولا أغترب، رسخ عندى ذلك، خاصة مع غموض المدوّنات وغرابة بعض أجزائها، أحاول التوضيح إذن دون الإخلال بما عهد به إلىّ.

طوب أخضر

تقوى علىّ أخميم ليلاً، تصير أكثر كثافة، وأمتن حضوراً، كلما أطلت التمعن فى الاسم أجوس أسرع، ليس بطرقاتها وحواريها ودروبها المتداخلة وبيوتها المتلاصقة، المتقاربة، حتى فى أجزاء الميسورين منها وتلك قليلة مستحدثة ربما يقوم قصر مهيب مبنى بالحجارة، أسقفه مرفوعة على أعمدة من رخام بجوار بيوت هشّة، جدرانها من طوب أخضر، مغطاة بأفلاق النخيل، إحاطة النخيل بها وتخلله لها يلغى معالم الوقت، لولا أعمدة الإنارة ومصابيح الكهرباء، وهوائيات تلقى الإرسال التليفزيونى والعربات المنتظرة هنا أو هناك لما ثبت أى تغيير عن أى زمن قديم، عندما مررت بها أول مرة فى زمنى الأول خلال ترحالى جنوبًا وشمالاً كانت البيوت على النظام القديم، كلها مبنية من الطوب اللبنى، أو كما يعرف فى الجنوب بالطوب الأخضر، عدا بيوت قليلة من الحجر للموسرين من القوم، الطوب عينه المستخدم فى الزمن العتيق، إلى أن وقع التغيير فى العقود الثلاثة المنقضية، عندما سافر كثيرون إلى أقطار عربية أثراها النفط، بعد عودتهم، أو من خلال إرسالهم ما يلزم شرع معظمهم فى البناء، يعنى ذلك هدم البيت الحاضر، الماثل منذ عشرات السنين، استبداله بآخر مغاير، مختلف، بدءًا من مواده المكونة إلى الترتيب، هكذا أصبحت البيوت عمارات، طوابق، شققًا، تغيّرت الطوبة الخضراء إلى الحمراء،

الخضراء من طمى النيل وعجينة الأرض مباشرة، عبر قرون عديدة تبدّلت عقائد ولغات، ولم يتغير الطوب المكون لعمارة الأحياء، لذلك كان يصعب تمييز البيوت المتجاورة المتساندة إلا عند الاقتراب منها، تُوجد تناغمًا، ليس بين الجدار والجدار، إنما بين الأبنية والأرض والماء والجسور والبشر الساعين والمقيمين، هكذا يتواءم المرء ذكرًا أو أنثى مع حاله، يتصالح مع نفسه، لم تعد الطوبة الخضراء أنغامًا تسرى عبر الزمان والمكان، إنما صارت استثناء، بين بيتين تبرز منهما أعمدة الخرسانة نلمح بقايا جدار، يمتص الطوب الأخضر ذروة القيظ والبرد، تطلّ منه أطراف التبن الذى اختلط به وداوم، اختلف الأمر بعد استشراء البناء بالطوبة الحمراء المحترقة فى اللهب والخرسانة، تبث الطوبة الخضراء دعة وسلامًا وتأنيًا وتواؤمًا مع الوقت والحال، أما الحمراء فتمتص الحر نهارًا وتبثّه إلى فراغات الحجرات ليلاً، ماذا لو تبدل المضمون، أى صيغت الحمراء من مادة الخضراء وظل الاسم على حاله؟

لا أعرف، أحيانًا أشطح، غير أننى لا أتردد فى طرح التساؤل مهما كان ساذجًا، بسيطًا أو معقدًا. أجيال جديدة شبت الآن لا تعرف عن الأخضر شيئًا، عوالم تتوارى من الذاكرة لتتحوّل إلى رؤى، حكايات وأحيانًا أمثالاً، فلأرجع إلى ما بدأته حتى لا أتوه منى.

من علم ذا النون قلم الطير؟

كيف كان ينطقه؟

لماذا لزم أخميم ولزمته حتى عند رحيله منها إلى هنا أو هناك؟

كان ممكنًا أن أظل طارحًا لتلك الأسئلة، مرددًا لها بلا أجوبة، لولا تلك المدوّنات التى آلت إلى وعيى مع مكثى فى أخميم، الظاهر منها

والخفى، إنما يحتاج الأمر لفهمه والإحاطة به، ببعض من وليس كله، علامة ما يمكننى قوله أو التلميح به أن العلم القديم لم يندثر تمامًا، وأن اللسان القديم باق، لكن ليس بالصورة الأولى، هنا يمكننى التفصيل بعض مما عرفته فى ترحالى هذا لعلى مبصر، منبه.

يرجع الأمر كله إلى عدة أزمنة وليس إلى توقيت واحد، بعد أن تأكد حكماء القوم من ضرورة الأمور التى ما تنبأ به الأقدمون خلال عصر الاضطراب الأول والذى تلا حقبة بناء الهرم الأكبر، بعد انهيار البنية التى ظنها القوم راسخة، ولاح الشك فيما اعتبر ثابتًا لا يتبدّل، ومستقرًا لا يتغيّر، كتب أحدهم سطرًا:

«لا شىء يبقى».

وكتب آخر ما يقارب المعنى:

«لا شىء يعود إلى ما كان عليه...».

وقال آخر فى وقت مغاير:

«لا شىء يصير إلى ما جاء منه...».

وقال رابع:

«ستبقى أمور ولكنها ستتغير...».

فى البداية ظننت مثل تلك العبارات التى تضمنتها المدوّنات مقصودة لذاتها، الغرض منها استلهام العبر، أو إرسال المثل، لكننى مع طول الإمعان أدركت أنها إشارات دالة على كثير، هذا الكثير لم أعرف إلا قبسًا منه، آه فى المقتبل نسمع أمورًا جسيمة لحقت بغيرنا فنظن أننا بمنأى ومنجى، حتى إذا قطعنا المراحل نجد أنفسنا فى أتونها.

بيوت الحياة

فى أخميم قام أحدها، اختص برمز الخصوبة واستمرار دفق ماء الحياة فى حضورها وبعد انتهاء الظاهر منها، لم يكن أكبر بيوت الحياة فى الوادى، ولا أهمّها؛ لكنه كان أكملها وذروة ما تاق إليه الأقدمون، بل يمكن القول إن ارتباطه بأخميم فيه تجاوز، فلم يوجد فيها، إنما كان يوجد فى اللا مكان، فى الفكرة حين تبنى، والخاطرة عندما تلوح، ولكن القول بأخميم جاء انطلاقًا من ضرورة المحسوس، فلابد من دال على المدلول، لذلك أقيم باب وهمى كبير فى الخلاء المفضى إلى النهر، لا يؤدى إلى شىء، مجرد إشارة لا غير إلى حضور البيت المقدس، الحاوى للحكمة القديمة وتلك التى يتمّ التوصّل إليها فكل شىء موجود، ثمة أمور عُرفت وأخرى لم تعرف بعد، ليس المسار كله إلا سلسلة متدرجة من التوصل إلى بعض من الموجود فعلاً ويحتاج فقط إلى علم به.

ما يتكرر فى المدونة أن الأمور قائمة بالفعل، فقط تنتظر من يكشف عنها، بالطبع لابد من توفّر ظروف وشروط، بعضها ينتج عن مجاهدة والآخر عن اتصال يؤدى إلى إشراق شرط حصول الاستعداد.

فى زمن ما، أقيم هذا الباب فى الخلاء، مواجهًا المشرق والمغرب

معًا، لم يعرف الهدف منه إلا حكماء بيت الحياة، مرّ عليه من ولدوا وعاشوا كل حياتهم فى الناحية، ومن أقاموا أيامًا معدودات لزيارة أو لمارة، ومن مكثوا بضع سويعات أو لحظات خلال ترحال طويل، بعضهم طالعه فى مختلف ساعات النهار لسنين عدة، وآخرون لمحوه مرّة، لكنهم تساءلوا: إلى أين يؤدى؟ ماذا يعنى؟ أى باب هذا المقام فى الفراغ؟ لا يؤدى إلى شىء، ولا يغلق على شىء، ولا يمكن فتحه أو إغلاقه، لأنه مفتوح، مغلق معًا، منذ وقت بعيد امتنع القوم عن عبوره، كل من اجتازه إما أنه ذهب إلى مجهول أو عاد متبدلاً، ليس هو، هكذا استقر الأمر.

يمكن القول إنه ليس الباب الوهمى الموجود فى المقابر العتيقة، كثيرًا ما تأمّلت الباب الموجود بالبيت الأبدى للقاضى ميروكرع القريب من هرم جسر المدرج، الأقرب إلى هرم تى والذى كانت حروفه المحفورة على جدرانه الداخلية سببًا فى بدء سعيى إلى إتقان وتعلُّم الكتابة المقدّسة، محاولتى معرفة قلم الطير كما أتقنه سيدى ذو النون، لم أطالع حروفًا بأى لغة، صينية أو أوردية، عربية أو سنسكريتية، سلافية أو لاتينية، ومنحتنى معنى الكتابة مثل تلك المتون فى هرمى تى وأوناس، أن يكتب المخلوق ليبقى بعد ذهابه، أن يقيم بناء للمعانى، ليست الحروف إلا عمارة تصون وترمز للجوهر.

عُرف الباب الوهمى كرمز للعبور من الموجود المحسوس إلى اللامحسوس، من المرئى المدرك بالحواس إلى الخفى عنا، ما لا يبين، وفى تفسير آخر قيل إن الروح الساعية تعود من خلاله إلى المرحوم، المبرأ، المتحد بأوزير لتهبه الطاقة اللازمة لاستمراره فى الحياة السفلى بعد الخروج إلى الضوء اللانهائى.

أيًا كانت الشروحات ومن قبلها الأهداف المعلنة والمتوارية، كان جزءًا من تكوين أشمل، له مهمة، ولطول إمعانى فى الأمر أكاد أثق أنه أساس المحراب، النقطة النهائية فى المسجد، حيث يقف الإنسان أمام الحجر المصاغ، المرسوم بمفرده، مطرقًا، خاشعًا، متجاوزًا بروحه وحضوره غير المرئى الحد، الباب الأخميمى مغاير تمامًا، لا يتصل بشىء، لا قصر ولا بيت أبدى ولا دار للحياة أو منزل لملايين السنين، هكذا وصفه من رآه وعاينه، لم أره لاختفائه منذ أمد بعيد، لم أسمع عن أى إنسان شاهده أو وصفه، حتى من المعمّرين الذين عرفهم المسنون الذين سمعت منهم مباشرة، غير أنّ الكافة يتحدثون عنه وكأنه قائم، ماثل، ربما أشار إليه هذا المغربى، ربما دمرته عوامل الدهس والتدمير بعد انسدال النسيان على أصول الأشياء والمعانى كما عرفت فى الزمن الأول.

مؤكد وقوف الرحالة الطنجى ابن بطوطة أمامه، ربما اجتازه أيضًا، إذ وصفه وتحدث عن عمارة من الزمن القديم سمّاها بمتاهة أخميم، كلما دخل المرء غرفة أو قاعة نشأت منها حجرة أخرى أو صالة أو ممر أو مرتقى أو منزل، هكذا إلى ما لا نهاية وفقًا لاستعداد الفرد وتهيئه وقدرته على الامتثال والمداومة، إذا قصد العودة من عين التكوين الذى عبره فلن يجد ما عاينه، قبل أن أعرف ما عرفته وقفت على بعض مما يُفسّر لى الأمر، ليس من المدوّنات فقط ولكن فيما سمعته من حكايات يتداولها القوم، حكايات الجدّات للأحفاد والأمهات للأبناء توسّلاً لجلب النوم إلى عيون الصغار المنبهرين، المحملقين، الخائفين مما تحويه بلدتهم من حيوات غير ظاهرة، دروب لا يمكن طرقها إلا بتفعيل شروط معينة وقواعد مؤدية لا يتقنها إلا العارفون، كثيرون من ساكنى أخميم اجتازوه ولم يرجعوا إلى الآن، تجاوزت مدد غيابهم أطول قدر

يمكن أن يعيشه إنسان، لا فرق بين أجير كان متجهًا إلى الغيط حاملاً فأسه ومنديلاً يحوى طعام يومه، أو جمّال غريب راح يبحث عما يزود به جمله البارك بساحة السوق التماسًا للراحة، حركة الجمال الوئيدة، المتمهلة، عبورها الطرق المتربة، الواصلة، إما محمّلة أو فارغة إلا من صاحبها الممسك بمقودها أو الجالس فوق مقعد خاص - كرسى جمل - يحيط بالسنام، منذ وصولى أخميم لم أر إلا عددًا قليلاً، أصبح سحبها نادرًا بعد ظهور عربات النقل الصغيرة، سريعة الحركة وامتداد طرق إلى نواح لم تعرف إلا المدقّات الترابية الممهدة نتيجة توالى الأقدام، يتحدثونَ فى أخميم حتى الآن عن جمّال من ساقلتة، البلدة القريبة، شرق النيل أيضًا، عبر الباب ساحبًا جمله بعد توصيل حمل من جذوع النخيل المقطوعة المتساوية والمستخدمة فى البناء، تلاشى بمجرد اجتيازه، انقطع خبره، بعد حوالى عشرين سنة ظهر الجمل وحيدًا، من النادر رؤية جمل بمفرده إلا إذا كان شاردًا ولا يحدث هذا إلا قليلاً، فيما يروى عن الباب، لم يأت منه أحد، أى لم يعد منه إلا هذا الجمل، إذ يؤكد الثقاة أنه ذو اتجاه واحد، حتى أولئك الذين رجعوا، لم يعبروه، إنما ظهروا فى جهات أخرى، كثيرون لزموا الصمت بعد عودتهم، ندرة أولئك الذين وصفوا بعض ما عاينوه، خاصة ذلك البناء الذى تتوالد غرفه وأقسامه من بعضها بمجرد الخطو ومثول الفكرة، معروف فى المصادر العتيقة بالمتاهة الأخميمية، طبقًا لما يرويه القوم، ما يعتقدونه، ما تزال قائمة لكنها مخفية عن الأبصار، إما عن تدبير أو لتأثير يتجاوز قدرة القوم على إدراكه، اليقين يشمل الباب أيضًا، صحيح أن قائميه اختفيا، كذلك العارضة العلوية، المرسوم عليها قرص الشمس المجنّح، يحيطه إطار من رسوم مختلفة تمتّ إلى قلم الطير، الخط المصرى القديم المقدس، فى زمن ما، ولأسباب غير

معروفة اختفى الباب، ربما أشار إليه المغربى، ربما نقله بعض الأجانب إلى ديار غريبة، ربما ترقد بعض أجزائه تحت التراب، تمامًا كما كان تمثال ميريت آمون، لا أقدر على الجزم بأى شىء، ما من يقين، غير أن أهم ما سمعته من القوم حضور الباب واستمرار تأثيره بغير ظهوره، إذا اختفى أحدهم، غاب مدة وعاد صامتًا، شاردًا، رافضًا الإفصاح عن المكان الذى أمضى فيه زمن اختفائه، يهز الأهل رؤوسهم أسفًا، لابد أنه عبر الباب، فات منه، أى خطا عبر الحيّز الذى تحدد يومًا قبل اختفاء القائمين والعارضة، من يدخل المتاهة يضيع إلى الأبد، لكن من يجتاز الباب يظل احتمال عودته ممكنًا، لكنه يتبدل تمامًا، الناس يعرفون ما جرى من خلال إشاراته وبعض لفظه، لا يفصح العائد عن تفاصيل ولكن الأحداث المتوارثة، المحكية عبر جيل إلى آخر تفسّر بعض ما غمض، زمان عندما كان الباب قائمًا لم يقصده إلا مضمر النية، الراغب، من يدفعه فضوله أو توقه إلى المعرفة، لكن بعد اختفائه أصبح كل من يعيش فى أخميم أو يفد إليها معرّضًا للاجتياز إذا خطا فوق موضع الحيز، لا يتم الأمر باختياره، مؤكد أن هذا المكان موجود، لكن يصعب تحديده، شغلنى ذلك، أين بالضبط؟ بعض المرويات المتناقلة تؤكد وجوده قرب جبانة المسلمين القائمة فوق مرتفع، يؤكد العارفون بالآثار أنها مبنية فوق معبد كامل، كل ما يلزم إزالة القبور، نقل محتوياتها إلى موضع آخر، سمعت بالجدل الدائر حول ذلك وقرب تحقّق النقل بعد اقتناع الناس، خاصة أن ثمة علامة ظاهرة تدل على ما يختفى، جزء من أضخم تمثال لرمسيس الثانى، يؤكد أهل الاختصاص أن بقيته مطمورة، وأنه يزن أكثر من ألف طن، رغم الحجم غير المألوف للقدم، إلا إنها مجرد إشارة، دلالة على ما يوجد بالفعل، ربما أوحى للقوم بذلك اليقين أن حيز الباب قريب.

كيف أستدل عليه؟

يمكننى اجتيازه عند قصدى أية وجهة، ربما أمرّ بجواره ولا أعرف، ربما يتم الأمر لعابر غير مقيم وقد أقضى ما تبقى من عمرى هنا ولا أطأه، لو أن الباب قائم، محدد لاجتزته غير متردد، ليس لدى منذ خروجى ما أحرص على استمراره كما عهدت ولا ترتيب ألزمه، عند خروجى من دار صاحبى أغيّر مسارى، لا أمشى فى خط مستقيم، أحيد فجأة لعل وعسى، داخلنى شك أن اختفاءه كان مقصودًا، متضمنًا فى الترتيب، أعرف أن ما لا يُرى يصير مرئيًا أكثر، من ورثنا علمهم لا تقع أبصارنا عليهم، من قالوا الأمثال وصاغوها نجهل كينونتهم، غير أننا نقتدى بهم، نلفظ ما صاغوه لنا، أن توجد قطعة أرض تأثيرها غير مرئى، تمامًا مثل الجاذبية، تشدنا ولا نراها، لا نعرف كنهها، أخميم تبدو لمن يجهل الأمر مدينة مثل كافة المدن، حتى لو ألمّ بوجود شوارع مطمورة ودروب وحارات وأزقّة تحت تلك البادية ،فلن يحدث ذلك التأثير والترقب والرهبة بمجرد العلم أن موضعًا خفيًا لا يزيد طوله عن متر ونصف المتر وارتفاعه متران، كامن فى ناحية ما داخل أخميم، مجرد الخطو فوقه أو ملامسته يتبدّل حضور المرء، يتقن لغة لم يعرفها من قبل، يفك طلاسم طال غموضها، يقطع المسافات الشاسعة فى الزمن القليل، يبقى الأفئدة والأفكار والمصائر مفتوحة على كل الجهات وكافة الاحتمالات، مما يتناقله القوم حديث البحيرة، جرى ذلك قبل زمن سيدى ذى النون، إذ عبر أحد العاملين فى تربية الدود اللازم لاستخراج الحرير، بمجرد اجتيازه وجد نفسه على طريق ممهد، يرتفع وينخفض، تشمله لحظة لا تتغيّر، لا تليها أخرى، رغم ثبات الوقت إلا أنه يتقدّم مع عدم تغيّر المنظر، لا يدرى بالضبط كم قطع ولا كم أمضى، لكنه فاض بطاقة لم يعرف مصدرها رغم أنه لم

يأكل ولم يشرب ولم يشعر بالحاجة، يتقدّم داخل نفسه، ما يراه، ما يجتازه، ليس خارجه، إنما داخله، هكذا قال واصفًا ما مرّ به، عندما وصل إلى تلك البحيرة بدا وكأنه يقف داخل غرفة هائلة بلا جدران، صيغت من زجاج غير مرئى، مدرك وجوده، لم ير سمكًا أو مخلوقات بحرية، إنما رأى أصواتًا تسعى، وسمع ألوانًا، غمرته راحة مجهولة المصدر وترقرق حتى شف، بمجرد رغبته فى العودة وجد نفسه واقفًا خارج الباب، مستقبلاً بيوت أخميم المتجاورة، المتلامسة، عندما وصل إلى بيته خشى أن يحكى ما رآه حتى لا يصدقه أحد، وربما نسبوا إليه الخلل، لزم الصمت إلا أن حنينًا للعودة ورؤية ما تكشّف له، ما قطعه من مسافات فى كون مغاير، ما رآه من عناصر، سعى إلى الباب، عبره، غير أنه فوجئ بوقوفه على أرض أخميم ذاتها، لم يتغير شىء، مجرد خطوة من موضع إلى آخر لا يفصلهما إلا مقدار خطوة، لابد أن ثمة خطأ وقع، ربما نسى أمرًا ما، حاول استرجاع اللحظة التى أقدم فيها، عاد مرة أخرى لكن كافة ما حاوله، ما بذله لم يسفر عن شىء، انتهى أمره إلى ملازمة الباب، تعلّق بصره بكل من يعبره أو يمرّ على مقربة.

من مسائل سيدنا ذى النون المعروفة، المذكورة فى كتب المناقب والسير والخطط لكن مع تحوير بعض التفاصيل، ما طالعته فى المدوّنات أن الرجل خرج من بيته صباح يوم جمعة قاصدًا الجبانة لقراءة الفاتحة على روح أمه قبل ذهابه إلى المسجد لصلاة الجمعة، فى أثناء مشيه اجتاز الباب فإذا به فى درب بمدينة بغداد عائدًا من الصلاة وزيارة المقابر إلى بيت فيه زوجة لم يعرف اسمها، لم يرها من قبل، لكنه قريب منها، ألف معها، تنتظر عودته، مقبلة عليه، ساعية لإرضائه وراحته، بدا له كافة ما مر به من قبل حلمًا يخص غيره، أنجب منها طفلين تعلّق

بهما وسعى من أجلها، كذلك امرأته التى غمرته بحضورها الناعم الوثير، وأطلعته على نفائس أنوثية، صباح جمعة خرج من بيته قاصدًا التصدق بمال على روح أم زوجته التى ماتت بعد وصوله بأسابيع، يذكرها بالخير والتحنين، قرب المقابر رأى بابًا ذكّره بأخميم، توقف لحظات قبل اجتيازه، خرج من الناحية الأخرى فى التوقيت عينه الذى كان متجهًا فيه إلى قرافة أخميم، سكينة ألزمته الهدوء، خطا كأنه لم يمض إلى بعيد، لم يحد عن طريقه قط، زار وقرأ الفاتحة ثم قصد المسجد الكبير، بعد صلاة الجمعة سلك الدروب الأخميمية إلى داره، زوجته وأم عياله فى انتظاره، تحلّقوا حول مائدة الغداء، الوجبة التى تتأهب لها، غداء يوم الراحة، يعقب ليلة الجمعة التى تتأهب فيها لرجلها، تستحم وتتزين، تمشط شعرها وتتعطر، تبدأ سحبها إليه، متوقعة، مستعدة لملاقاته، يختلف القوم فى المدة التى انقضت قبل أن تصل إلى أخميم امرأة قادمة من بعيد بصحبتها طفلان، عندما استفسرت عنه دلّها الخلق، أخميم يعرف أهلها بعضهم بعضًا، عندما سمع الضجة فى الزقاق خرج مستطلعًا متوقفًا تمامًا، متطلعًا إليها، يتقدمها من أنجبهما هناك، تشير إليهما:

«أبناؤك منى . . . » .

يقول الناس: إن سيدنا ذى النون اجتاز الباب وعاد عالمًا بقلم الطير ولغات أخرى، وأنه كان يقرأ ما كتب على الجدران، أو أوراق البردى المطويّة، وعبر اجتيازه الباب اطّلع أيضًا على اسم الله الأعظم.

هذا ما أصغيت إليه، ما حكاه البعض على مسمع منّى بدون أن أسأل أو أستفسر، اعتدت أن ألزم الصمت، أستوعب ما يحكيه القوم، ما يتبادلونه، لكننى لا أبادر، لا أسدد البصر إلى ما يشير ضيق

الآخرين، دائمًا إلى فراغ، إلى نقطة غير محددة، إلى النيل الصامت، المتحرّك، طويل الرحلة، عميق الحضور، ابتسم لى متسائلاً: من يعلم؟ أليس من المحتمل عبورى الحيّز إلى كافة ما عرفته من خلال الأسماء، ذكر اسم إنسان يعنى تخيّل ملامحه، ثم تجسّدها، عندئذ يمكنْ محاورته ومسامرته، ألم يكن اسم أخميم مدخلى إلى كافة ما شرعت إليه، لذلك يمكننى القول إننى نزلتها قبل أن أبلغها وعشت فى فضاءاتها قبل أن أجوس فيها، ثمة بلدان وجهات أحطت بها من خلال الأسماء، سيرد تفصيل ذلك، من هنا يجوز القول بتعرفى على أخميم فى أزمنة لم أسع فيها، وأخرى لن أبلغها، كيف؟

لا أدرى، لا أهتم بإيجاد أجوبة على أسئلة لم يعد ممكنًا إلا طرحها، ليس سعيى كله الآن، عند هذه المحطة من سريانى فى الوقت إلا محاولة لتلمّس الفهم، لا للوقوف على جواب، أعرف أننى سأتمّ مدتى وكل الأسئلة ماثلة، مطروحة.

ما يشغلنى الآن غير متعلق بى، ما يعنينى لا يتّصل بى، بما أحتاج إليه فلم أعد بحاجة إلى شىء، لا يعنينى إلا ما يكفل تردد الأنفاس، ومحاولة إدراك ما استغلق.

كيف أتقن سيدنا ذو النون لغة الطير؟

كيف انتقلت حرفة الحرير من وقت إلى وقت؟

ماذا تعنيه تلك النقوش؟

إذا كان الأمر قديمًا، متى بدأ بالضبط؟

ليلة

ليلة لا يمكن تعيينها، لا اسم لها، لذلك يمكن نسبة ما استغلق على اليقين إليها، بالتأكيد جرى فيها ما أدركته، ربما تحتوى فى ساعاتها ليلة أخرى، بل ربما ليال، لذلك تبدو لى كثيفة، غزيرة، ممتدة فيما تلاها بسبب ما نتج عنها، ما جرى فيها، سبقها سعى حثيث، بذل جهد لم يعرف مثله، خدم الإله الواحد، الخفى، الظاهر أيضًا.

أدركوا كلهم من كبيرهم إلى صغيرهم أن كل ما عرفوه يدنو إلى زوال، صُبح معارفهم مشرف على الغسق، ما بدا ثابتًا لدهور متوالية توشك رياح هبوب، عاتية على العصف به، صار السؤال المطروح على كافة المراتب فى بيوت الحياة.

كيف يمكن الحفاظ على خلاصة ما توصّل إليه الأجداد من معارف، ما آمنوا به من حقائق وكشوفات عبر ألف ألف من دورات الفلك؟

يوقن من بلغوا أقصى المراتب، بالتحديد من لهم الحق فى دخول قدس الأقداس، أن لا شىء سيبقى، كل مرئى وغير المُشاهد إلى زوال، إلى محو، رغم اليقين فجهدهم وسعيهم الحفاظ على ما يمكن الإبقاء عليه واستمراره إلى أزمنة لن يروها، لن يعرفوا عنها شيئًا، لن يبقى كل شىء كما هو، مفاهيم رواسخ ستتحول إلى مزق، نثار،

ظلال بعيدة، ربما يفهم من امتدادها عكس ما كانت عليه بالفعل، ربما يتبقّى منها مجرد أشكال، خطوط، شفرات غامضة قد تُفضّ ولا تُحل إلا لمن سيقدر له استيعابها بقلب سليم، لا يمكن للقائمين على خدمة الإله الآن تخيّل المدى الذى ستتبدّل إليه الأحوال، ما يبدو الآن رمزاً للحكمة ربما يصير عنوانًا للسخرية، وما يجمع القوم على قدسيته قد يصبح عند لحظة ما، حقبة ما وسيلة للتسوّل، لاستجداء المارة ولفت نظر الغرباء، بل قد يبصق عليه أحفاد من يركعون له الآن.

لم يموّه عليهم كبير خدم الإله الخفى شيئًا، ما من فرصة للإيحاء، للرمز، ما ستصير إليه الثوابت سافر، جلى، مثير للشجنة والحزن، ما يوشك على الاندثار مسارات فى مسار، من ذا يمكنه أن يحصى أو يدوّن، لنضرب مثالاً بالزرع ورعايته، تعهده والحدب عليه منذ البذرة حتى تدلّى الثمار، ما البال بدوران الفلك والليل وما حفل به، كذا النهار وما جرى فيه والماء والظلال المستقرة والشاردة من وارد وآيب، أما المعانى والدلالات فمن يمكنه الحصر والنفاذ؟

من يمكنه من؟

اللقاء جرى غرب النهر، المكان الأقدس، وهل وجد من يفوق أبيدوس قداسة فى الأرض السمراء - كيميت - إنها أبيدوس طبعًا، من أسف ومن حسرة أننى أنطق الشائع فى زمنى، إذ تبدلت الأسماء وتغيّر نطق الألسنة بها بعد تمكّن الأجناس الغريبة من مصر، ونأت الأصول مغربة، تمامًا كما توقعت النبوءات، لو أننى قلت مثلاً: «نسوت، حقا، إونو»، أو «نبا، خبرو، رع» من سيدرك من الاسمين أن المقصود توت عنخ آمون؟ إنى لمضطر أسفًا إلى التزام الشائع، المتداول، إلا إذا أخلّ بالمضمون وأصبح ضداً، لذلك أستثنى من ذلك اسمًا واحدًا لا

غير، عنوان الكتاب المقدس «الخروج إلى النهار»، لن أردد ما أطلقه عليه الأغراب «كتاب الموتى»، سأحاول، سأبذل الجهد حتى أصحّح المسار، فإذا لم أقدر سأوصى من يأتى بعدى.

تتغير أسماء الأمكنة ولا تتبدّل بغيرها، تظلّ أو هذا ما يخيّل إلينا، هذا أمر دقيق لم يغب عن بيوت الحياة، حيث خلاصة العلوم والحكمة، الخوض فى تفاصيله سيجرفنا إلى مقاصد نائية، هنا يجب الإشارة إلى أنه أمر حاكم مهما نأى عنّا أو حاولنا إقصاءه، أعنى صلة الوقت بالموضع.

لأقدس الأماكن ثلاثة أسماء عبر المسار، أبجو فى القديم، أبيدوس فيما تلى ذلك وحتى الآن، غير أن الثالث مقترن بالثانى، غير شائع إلا فى محيط الموضع، العرابة المدفونة.

هل تتغير قوة الاسم بعد تبدّله؟

ليس لدى إجابة، إنما عندى محاولة للفهم والاستيعاب، بقدر ما أبدى معارفى، هنا لابد من إشارة إلى مصدر القداسة، أعنى قداسة القداسة فى القديم، بعد استشهاد أوزير على يد شقيقه ست، فرق أعضاء جسده على الوادى بجنوبه وشماله، الرأس دفن هنا، لذلك أصبحت أطهر بقعة يحج إليها الكافة من الموتى والأحياء، الرأس؟ ألا يذكّر هذا بضريح ومقام سيد الشهداء مولانا الحسين والذى طال سعيى إليه، كما عاينت صلة القوم به والتفافهم حوله وتبرّكهم، هل ثمة صلة؟ ربما تتّضح لى خلال تغرّبى وعبر مسار خرجتى تلك، ليس عندى إلا طرح الأسئلة الآن، حتى لا أشرد أنثنى إلى تلك الليلة.

جاءوا إذن إلى البيت الأكبر فرادى، جلسوا جمعًا عند حدود المكان

المحتوى لقدس الأقداس حيث المقاصير التسع لتجليات الإله الواحد، الأحد، يليها الممر الحاوى للأسماء، وقائع، مشاعر، أسفار، صلات، حيوات شتى، انتهى هذا كله إلى أسماء، على الجدار الأيمن للمتجه إلى الخارج حيث الأوزيريين، بركة الماء الأزلية يتوسّطها رمز التل الأبدى، تجسيد وتذكير لبداية الخلق، أسماء ملوك مصر طبقًا لتعاقبهم، كل رن ـ اسم ـ محمى، محوط عليه بالشن ـ الخرطوش ـ الرن فى الشن، ألا يقول القوم حتى الآن عندما يريدون وصف شخص ما بالعزّة والمنعة وذيوع الصوت، إن له رنّة وشنّة؟ الكل يبدأ بالاسم وينتهى إليه، هذا ما بدأ به الكاهن الأكبر الملتحف بالبياض، الثوب الأوزيرى النقى، المصنوع من الكتان، استثنائية الليلة تهيمن وتوحى، الهدف من الجمع مغاير لما جرى عبر آلاف السنين، كل ما أقيمت من أجله تلك البيوت الشوامل مهدد بالاندثار كلية، الأمر تردد منذ بعد سحيق على هيئة نبوءة، الآن يبدو واضحًا أنها على وشك التحقق، لم يكن صدفة أو عبثًا أن بدأ الكاهن الأعظم بتلاوتها، وهذا يجرى لأول مرة، فلم تتردد من قبل إلا خفية، ولم يتداولها واحد مع ثان إلا سراً.

النص منسوب إلى رب الحكمة، مؤسس العلوم كافة، تحوت، تغيّر اسمه فى الأزمنة المتأخرة إلى «توت»، ثم أصبح فى الأزمنة التالية لتلك الليلة «هرمس مثلث العظمة» أو النبى إدريس عند العرب، سهل ترديد النبوءات علانية وخفية، وعر حضور تحققها أو الإشراف عليه، الاقتراب منه، خاصة إذا كان فيه تدمير ومحو لكل معهود، مستقر، فى تلك الليلة أصغى كبار الكهنة الذين جاءوا من سائر الجهات، فى ذلك السكون، الوقت غير المعهود، توقيت مغاير لكل صلاة معروفة أو ابتهال أو إقامة طقس أو شعيرة، بدا صوت المجرب، الملمّ، كأنه يتلو مرثية أو يقدم تعزية تسبق ما سيحل، ما سيكون.

سيأتى يوم يبدو أن مصر حافظت عبثًا على عبادتها للإله.

سيأتى يوم تصبح كافة الابتهالات الورعة عقيمة بلا استجابة.

سيأتى يوم تتغير فيه المعانى، وستنسب المضامين الباقية إلى غير أصحابها.

سيأتى يوم يلعن فيه الأبناء ما آمن به الأجداد.

تجليات الإله الخفى، بكل ما حوته من أسماء وصور تصبح فيه فرجة، طرفة للعابرين . . .

سيأتى يوم تختفى فيه معانى الكتابة المقدسة، تصبح مثل الأحاجى والألغاز، وقد يفهم من المتون عكسها.

يا أرض الإله الواحد . . .

يا من أدرك أبناؤك أن هذا الوجود ليس عبثًا، ليس صدفة، ثمة خفى لا يبين يدبّره، يحركه.

يا من تنحدرون من أصلاب الذين أدركوا ذلك، سيغيب عنكم هذا كله . . . لن يبقى من الإيمان القديم سوى رواية متناثرة يكتنفها الغموض، لن تبقى إلا كلمات غامضة فى نظر من سيأتى.

ليت من استوعبوا حكمتك وصانوها يتوصّلون إلى حفظ ما يمكن الإحاطة به إلى زمن ربما يتكشف فيه بعض مما كان، ربما يصل القوم ولو قبس . . . ليس من المؤكد احتواء النبوءة على السطرين الأخيرين، أم إنها من وحى اللحيظات الحرجة، خاصة أن النبوءة رُويت بأكثر من صيغة، بعد ترديدها عرف كل من حضر أن الإيغال صوب الغوامض بدأ، يتجّه المسار إلى مجهول لا يعرف أحد ما سيجرى خلاله، لكن

النبوءة تشير وتلمّح، تلوح النهايات، لكنهم يعلمون أيضًا أن البدايات متضمَّنة، ما لا يمكن التنبؤ به، كم سيستغرق هذا كله؟

ما من إجابة؟

* السؤال المطروح: هل من سبيل للحفاظ على الحكمة إلى يوم ربما يدركُ البعض ما كان؟ إذا كان الوجود مسمّيات، فكيف يمكن استمرار الأسماء؟ لا توضح المدوّنات ما تمّ تداوله، لكن المؤكد أن ما صارت إليه الأمور فيما بعد نابع مما عرف، منها يمكن ضمان بقاء أصول الحكمة فى كافة العناصر، المعروف منها وما لم يتضح بعد، فى الماء، فى الحجر، فى اللين واليابس، النار والفراغ، الأصل والظل وما بينهما، فى الضفاف والمراسى، فى الخضم، فيما يُدرك وما لا يمكن تعيينه من أشكال حاوية.

إنها الأسماء، الاسم، إنه الرّن.

عديدة الإيماءات المنبعثة من تلك الليلة، لكنها تشير كافتها إلى الرّن.

إشارات الرّن

إشارة إلى أزمنة سحيقة البعد، ما من تدوين وصل منها، مدركة فى عمومها، عندما تغيب الأسماء يصير كل شىء إلى لا شىء، ما من حدود، عند افتقاد الحدود يضيع التمييز، تنعدم القدرة على الفصل والوصل، ما من قياس، الشىء مثل الشىء، الأمر جلىّ، انتفاء الأسماء.

من لا اسم له، لا حضور له.

عبارة أينما ولّيت الوجه تقتفينى، تتكرّر مرات، أحيانًا تبدو مفردة، قبلها فراغ، يليها خواء، أطالعها فى فراغات أخميم، على أبواب البيوت، فى سدى ولحمة الحرير الشهير الذى حيّرنى ويثير عندى السؤال تلو الآخر، من أتى بدود القزّ إلى أخميم، متى؟ أيهما أسبق؟ الصين أم أخميم؟ من علّم القوم معالجة الشرانق ومدّ الخيوط ثم نسجها وتكوين تلك الأشكال الغريبة، الفريدة، لعلها تتضمن شفرة ما من نتاج تلك الليلة، ألم يستقروا على تشييع المعارف والموروث عبر أشكال تنتقل من وقت إلى وقت عبر النسيج والبناء وتشكيل الأشياء التى لا قوام لها، كذا نطق الحروف، نغيمات الصوت، لا الحروف ذاتها ولا الصوت عينه، حتى صوصوات الطيور وأنغامها طالوها وأدخلوها فيما استهدفوه وهذا مما يطول شرحه، الحرير مثل سيدى ذى

النون ومقبرة المسلمين وتمثال ميريت آمون والنواحى المفاجئة وتلك المرتفعات المنبئة بمدن أخرى، خفية فى أخميم ربما تسفر ذات يوم عن مكنون يفاجئ الكافة، من أهل الاختصاص أو ما عداهم، تلك عناصر أويت لها واستكانت إلىّ لتكون تلك الحالة الفريدة، الخاصة التى تبدأ عندى بمجرد سماعى أو بلوغى أو قراءتى لفظ «أخميم»، لا تكون قوة الاسم من فراغ، إنما تنشأ من ميراث، بعضه خفى والآخر جلى.

من لا اسم له، لا حضور له.

عبارة تتخللنى قبل بدء خرجتى، تتكاثف بعدها، أراها مكتوبة فى أوراق لا يمكن الإمساك بها لانتفاء وجودها، عبر خواء، خلال الفراغات التى تطالعنا من النوافذ، أينما ولّيت وجهى تدركنى، الخط الذى يطالعنى يشبه كتابة عربية، هكذا يبدو رغم غرابة الحرف ولا مألوفيته، إذ يبدو مع كل ميل بشكل مغاير، مرة يدنو من الهيلوغريفى، أخرى كأنه آرامى أو يونانى وربما حميرى، عبرى أو مسمارى، بل لاح لى مرة كأنه صينى أو كورى وربما يابانى، فلا أعرف دقائق الفروق بينها، أحيانًا يختفى المعنى الذى بدأت المطالعة به، تتبدّل مواقع الحروف أيا كانت، عندئذ أرى المعنى الذى أرغبه، أحيانًا تبدو الحروف كأنها تصدر منى، حتى عندما تستقر عروبتها تتوزع بين الطرز، يصعب القول إنه نسخ أو نستعليق، لا حجازى أو يمنى، لا أندلسى ولا صقلى، كأنى فى مواجهة نقش منمنم، تلاشت أطراف مفرداته وراحت حواشيه فامتزجت الحواف وتداخلت الحدود، غير أن العجيب المثير للكوامن، مزعزع المرتكزات الصوارم هو لواح وظهور قلم الطير المصرى القديم من خلال كافة الأشكال واللغات، رغم أن حروف بعضها مجرد نقاط منفصلة أو متّصلة، أقول قلم الطير مقتفيًا أثر كافة

المصادر التى ذكرت أو ترجمت لسيدى ذى النون، عرف عنه إتقانه لغة الطير، كان يقف أمام الجدران العتيقة ويشرح ما دُوّن عليها من أشكال، من رسوم عصافير وحيّات وطيور وأسماك ودواب، قصده أعراب أفاضل سعوا إليه من أقاصى العمران، وأرسل الخليفة العباسى يستدعيه وليسمع منه مسائله الشهيرة التى سنذكر بعضًا منها عندما تحين الفرصة ويناسب المقام، كان الخلفاء والملوك والأمراء والولاة على يقين أنه يمسك بأسرار الكنوز المخفية، ويعرف طرق إبطال الأرصاد الخفية المعيّنة لحراستها، الكنوز والمطالب الخفية كانت هدف الحكام وذوى الثروة أو الحالمين بها، أما إتقانه اللغة المندثرة فأشهر ما عُرف عنه، قصده حكماء من كل فجّ، لم يبخل عليهم بأسرارها، لقّنها لمن رغب ومن أراد، لم يشترط مقابلاً ماديًا، فقط لابد أن يستيقن صدق الرغبة وإخلاص النيّة، كذا التطهر، فلابد قبل تلقى الدرس الأول من حلق شعر الرأس والعانة وما تحت الإبطين، ولا يكون التطّهر إلا بالماء، هل علم ذو النون بقلم الطير من نتاج تلك الليلة؟

سأرجئ الجواب حتى أتأكد من إلمامى به وإحاطتى فعندى شواهد وأمامى علامات.

من لا اسم له لا وجود له.

بقدر استثارة المعنى الدخائلى، بقدر ما أمعنت فى السابق واللاحق، العدم الاستهلالى، تلك الاستفسارات المؤرقة، كيف يوجد ما لا يوجد؟ أحقًا سبق ظهوره؟ إذن ما هيئته؟ ما وصفه إذا كان ممكنًا حصره؟ لكن كيف يحصر ما لا يوجد؟

لا أدرى أين طالعت ذلك المعنى، لم يكن ممكنًا تشكل الإناء لولا ما يحويه من فراغ، شرط ظهور الأشكال الفراغ، لابد من اللاشىء لتظهر الموجودات، أهذا مفروغ منه؟

نصبح شيئًا فشيئًا مع الشروع فى النأى، مع كل ترحال يولى منا قدر، يزداد قربًا من المواضع التى جئنا منها، ما قبل الاسم فنصبح نسيًا منسيًا، ما قبل الصياغة، الشكل، فمنّا ولنا الفوات، المزج بين ما وصلنا إليه وما ينشأ عنا، ذلك تقدير ما لا قبل لنا به ولا صاد ولا مانع ولا فيئ، منّى إلىّ، وما أنا إلا واحد منهم بقدر، متلق عن كل فرد منهم وليس عن كبيرهم فقط، ما أنا إلا الأقل شأنًا، الأجهل، الأنقص، غير المبلغ عنهم، لكننى متوسل بهم، ليس للإنسان إلا ما سعى.

مع توالى الأزمنة تمتد ظلال إلى مناطق كان ممكنًا استعادتها وتفسيرها وتحصيل المتقارب منها، مفادها ومواقيتها، غير أنها تفلت منى، تشيح عنى وعبثًا استرجاعها، من لا شىء إلا لا شىء، فلماذا تحصيل العلوم والمعارف والاجتهاد لمعرفة السر والوقوف على المجهول.

تبدو الأحوال وقت وقوعها، تحقّقها كأنها باقية أبدًا، صعب نسيانها، وعر زوالها، لكنها ـ يا ويلى ـ سرعان ما يسرى الوهن، تبهت، تخفت، تتبدل مدلولاتها حتى تفارق الفروع أصولها وتنبت، يقع هذا عند فناء الأسماء، إما باختفائها واندثارها، أو تبدل مدلولاتها حتى انقلاب صورها.

بعد تبادل التحية أقعد بينهم، لن أعرف أبدًا ما جال بخاطر كل منهم، لكننى مُلم بما عندى، ما خرجت به، وما جئت عليه، صفاء النهايات، ثقوب الرؤى، ترديدى الذى لن يسمعه أحد: كل تحقق يتبعه شك، هكذا يظهر السؤال ويحل، السؤال كيان مكتمل، الجواب أيا كان ناقصًا، إنه مفتتح طريق، بداية سعى، ألحّ على رجل هَرِم، يقف أمام داره الواقعة تحت نخلة على ناصية الطريق، ألقيت التحية.

ربما نعم، ربما لا، لا يقين عندى قط، خاصة مع دوام تبددى وطول سعيى مع تغربى فى تلك الفيافى، المرئى منها والمستعصى على الرصد.

لست إلا ملخصًا للكينونة التى تلاشت، كذا سائر أبناء جنسى، نسرى خلالها من مجهول ونمضى إلى مجهول، مع الأزمنة تمتد ظلال إلى ساحات شواسع كان ممكنًا استعادتها وتفسيرها وتحصيل المتقارب منها، حقب تذوى، تمحى، تندثر بكل ما حوت، لا يتبقى منها إلا رمز يستعصى، ولست إلا جزء من ذلك المبهم الذى يُفهم منه عكس ما هو عليه بالفعل أو الإحالة، لست إلا نتاج غوامض لن تدرك، لذلك أعتبر ذاتى ونفسى وكل ما يمت إلىّ حتى ظلى الذى يلوح أحيانًا ويغيب عنى معظم وقتى جزءًا، فردًا، واحدًا من تلك الجماعة التى اجتمعت تلك الليلة، أراهم بدون استيعاب ملامحهم، تلك وقفتهم قبل الإذن لهم بالجلوس، تلك هيئتى بينهم، إطراقتى إذ أصغى إلى لواح الفناء وقرب انزواء ما اتّصل ألف ألف فيضان، الوعى بغياب الثوابت وعر، لكن فهم حركة المسار خير معين، لا ينطق الكاهن الأعظم، المفرد، بالرثاء، فمن أدرك واستوعب يدارى حزنه ولا يبدى علاماته، إنما يبرز عمله ويفرد خطّته، أقصى ما يتطلّع إليه أن يصون بعضًا مما كان، مما يتهدده الزوال، يرى بالبصر والبصيرة لحظة يقدم فيها الأحفاد على تدمير الشارات والعلامات تقربًا للإله نفسه، فقط مع تغير الرموز يمكن لكل شىء أن يقع، أن يحدث، حقب تتوارى، تختفى بكل ما حوت من الكاف إلى النون، تتلاشى، تذوى فإلام المصير؟ منها ما يترك أثرًا إلى حين، ثم يولى، أكثر ما يثير شجنى رؤية العابرين من خلف، يمضون مطرقين، أكثر ما يؤجج تأملى الوقوف عند الحدود الفاصلة، آخر البر وأول البحر، بلوغ الموانئ، مع الحركة البطيئة الحذرة تبدو التفاصيل ثم

«تفضل للراحة».

يقف منحنيًا كأنه يوشك على العبور من تحت حاجز منخفض غير مرئى، لا وجود له، غريب عنى، غريب عنه، أومئ ضامًا يدى، ليس بوسعى التلبية، يجب أن أستمر منفردًا، أتقدّم سعيًا على قدمى، تمامًا كما جرى بعد انصراف الكل، دخول بيت الحياة لا يكون إلا لمفرد، كذا الخروج، لا أحد يجيئ فى جمع، لا أحد يمضى برفقة، هكذا الوصول، هكذا الرحيل، ذاك إلىّ وذاك منى.

تلك الليلة استجدّ أمر، نادر جدًا، لم نعرفه إلا من خلال المرويّات القديمة جدًا التى أفلتت من المحو، وصلت إلينا من أزمنة المحن والاضطراب: على كل منّا ألا يرجع من حيث جاء، ألا يعود إلى مستقره الذى مكث فيه عمره وعرف نضجه عبر التدرج فى المراتب، على كل منا أن يقصد جهة لم يرتب ذهابه إليها، أخذنى اضطراب، لم أتصوّر انقطاعى عما ألفته يومًا، ولما كان السؤال مسموحًا به، تجرأت ونطقت:

«إلى أين يا سيدنا؟».

تطلع إلى - وهذا نادر - أدركتنى نظراته فى غبشة الليل فأيقنت أن ما كان لن يكون، ربما أدرك كنهى وألمّ بحقيقتى لكنه فهم عنى طويتى، لمس توقى وخشيتى.

«وجه نفسك».

إذن، ترك لى الخيار والاتباع أيضًا، ذلك أصعب ما عرفته، بلوغ نقطة من المسار، من الزمن تنبت فيه الصلة بما كان منى رغم أنه

باق عندى، ماثل فى ذاكرتى، صورى وعاداتى وتلك البواغت التى تفد علىّ يقظًا وراحلاً فى السبات، كيف أنقطع عنّى؟

هكذا أصير إلى غير المألوف، إلى ما لا أعهده، أفارق الأسماء ذات المعانى والدلالات المتجسّدة إلى أخرى لم أعتدها، ليس بوسعى إلا الامتثال، هنا أورد نصًا مما ورد علىّ تلك الليلة، ترددت كثيرًا فى إظهاره، لكن بدونه لا يمكن استيعاب ما جرى تلك الليلة فى بيت الحياة الكبيرة، مركز عبادة أوزير، هنا فى أبيدوس، وفى ليلة أخرى مماثلة لكن جرى ذلك فى زمن مغاير، متأخر، سيرد فى ذكر ما ظهر فيه، هناك فى الجزيرة المقدسة أقصى الجنوب، المكرّسة للأم الكونية، كذلك الليلة الليلاء فى مراقد الأبدية بالبر الغربى بعد خراب منازل ملايين السنين ونهبها وتهديد سلالم الراقدين.

إنى لمورده قبل الإيغال.

من سمى الموجودات؟

هل ثمة بداية للبداية؟

إذا صح ذلك فلابد من نهاية إما متحققة أو مرجأة.

هل توجد فى حيّز ما، موضع معين؟

من صاغ أول الأسماء؟

من أظهرها؟

من دل عليها؟

بأى لسان نطقت؟

إذا انعدم نطق الحروف فكيف توجد الأشياء؟

ما كنه الاسم؟

أهو نطق؟ رسم؟ وصف؟ تجريد؟ تجسيد؟ ملمح؟ حد أم مطلق؟ إشارة أم تلميح؟ تعيين أم تمويه؟

منْ؟

ما اسمه إذن؟

من سمّى المسمّى؟

كل سؤال يفضى إلى آخر، كل استفسار يعقبه غيره، لو تم جلاء الأجوبة كافة فماذا يبقى؟

ستنتفى الفروق، سيصير أى شىء مثل أى شىء.

هنا لابد من ذكر جدل قديم سبق القدم عينه، دام أكثر من ثلاثة آلاف فيضان بين ساكنى الجنوب وأهل الشمال.

قال أهل الجنوب إن واحدًا بعينه توصّل إلى تسمية بعض عناصر، الموجودات منها الظاهر، أى مما عُرف اسمه، أما الذى لم يُعرفْ بعد فلا وجود له، لا ظهور، مستحيلَ الاطلاع على الأسماء كلها، لو جرى ذلك لتمّ المحو، اكتمالها يعنى فناءها.

عدم

العدم اكتمال وكمال، حيث كل شىء مثل أى شىء، تمام الأسماء يعنى فناءها أيضًا، ما يكتمل يرحل، من سمى الأسماء لا يظهرها، تركها خفية، تظهر لمن يعرفها، غير أن الخفاء الأول تام، ماحق لكل شىء، لا يقدر على إلغائه إلا الأول والآخر، أما الخفاء الآخر فمغاير، يمكن للمخلوق جلوه وكشفه شيئًا فشيئًا، جزءًا فجزءًا لكن ليس مرّة واحدة، الواحد الأول أخرج الأسماء من العدم، أتى بها من الغياب إلى القيام، ليس جهد بنى الإنسان إلا اكتشاف ومعرفة ما تم الإتيان به من العدم، معرفة الاسم شرط، أضربُ مثالاً بالمرض: ألا يظل المرض مجهولاً، يمضى الإنسان به، بعد الفحص يوصف الدواء للداء، المرض اسم، والعلاج اسم، بتفاعل هذا مع ذاك يكون شفاء، الشفاء أيضًا اسم، كل اسم يؤدى إلى آخر، إما نقيضه أو تابعه، هكذا توضّح العينة، الأمر دقيق والخوض فيه حرج ومَضَار، لكن ما يمكننى قوله إن الأفراد الذين بمكنتهم معرفة اسم الأول أو الاسم الأعظم كما تذكره المتون، من يطلع عليه يمكنه التحكم فى صيرورة الوجود كافة، لذلك لابد أن يكون من الكاملين، الكُمل، سيدنا ذو النون أحدهم، هذا يكفى!

مما نسب إلى حكماء الجنوب قولهم: كافة الموجودات أرسيت فى القدم القديم، كل ما تلى ذلك تفاصيل.

أهل الشمال قالوا باستحالة معرفة من سمّى الأشياء، مستحيل الإحاطة به من قريب أو بعيد، كيف يمكن ذلك واسمه مجهول، خفى بلا اسم؟ من سمّى إذن اللا اسم؟

ليس معقولاً أن يُسمى المسمّى: من سماه، من لا اسم له لا وجود له، كيف يوجِد غير الموجود تلك الأمور المنظورة كافة؟

هنا تتماهى الحدود، ندنو من اللا معلوم، تدخل نصوص المتون فى مجال الغمغمة، ثمة جدال استغرق زمنًا طويلاً، ما ورد من أرقام مجرد تقديرات أو إيحاءات بمدد، ما ورد عن الثلاثة آلاف فيضان مجرد تقدير، إشارة لا غير، ثمة تلميح إلى مفهوم صاغه أول من ظهروا بعد معرفة أسمائهم لم يختلف عليه أحد، موجزه أن التحديد إذا استحال فيجوز الرمز أو الإيماء، التلميح إلى مفهوم يمكن استيعابه، من ذلك إمكانهم إطلاق اسم مجازى على ما استعصى عليهم إدراكه أو استيعابه لمحدودية المعارف ونقص العلوم، دارت حول ذلك مفاوضات ومداولات ومناظرات لا تحدد المدوّنات مقدارها، هنا أنحى كافة ما عرفته وأدركته من المطوية، أرى القوم الذين سعوا فى أزمنة لم أشهدها، لن أدركها، أرى حضور القوم عند الخلوة التى دامت ليلة لا غير تقرّر فيها ما تقرّر لمقاومة اندثار المعارف وما تم التوصّل إليه، بالطبع لم يبدأ ذلك وينتهى فى تلك الساعات الليلية الاثنتى عشرة، سبقتها مراحل لا يمكن تعيينها، لكن جاء القوم إلى أقدس بقعة للإحاطة بالخلاصة، بعدها خرج كل منهم إلى جهة مغايرة لتلك التى جاء منها وهذا عين حالى فى خرجتى تلك، فما أمضى إليه مغاير لما عرفته، مختلف حتى وإن نزلته من قبل، توحدت بهم حتى كدت أرى تطلع العارفين منهم إلى هسيس دوران الفلك، مواقع النجوم،

إلى النثار الوافد من بقايا الكون، ترى كيف كان رنوُّهم وتحديقهم خلال الحقبة الأخيرة، خاصة أنهم يعلمون، إذن ما يعنينى تلك الليلة، سعيى إليها، فحصى لما تم فيها، تعقّبى أثرى وإدراكى وجهتى، محاولتى استيعاب ما انتهوا إليه.

أخميم شرق النهر، أبيدوس غربه، كلاهما عند الحد، تمامًا مثل مسقط رأسى جهينة التى تقع جهة الغرب محاذية لمثوى رأس أوزير حيث جرت تلك الحضرة الليلية، فى منقضاى وما يفوت منى أسعى دائمًا إلى الحد، إلى الخط الذى لا يرى، الفاصل بين البر والبحر، بين الحياة والموت، بين لحظة ولّت وأخرى موشكة على الحلول، أرحل بالنظر إلى قمم الجبال الجرداء لحظة لقاء لون الصخور بزرقة السماء، الأرض الناطقة بالزرع عند لقاء الصحراء، هكذا الوادى الذى يخترقه النيل القديم، ما من موضع فى المعمورة تتّضح فيه الحدود مثله، زرع وجدب، يمكن أن يقف المرء، قدم هنا وأخرى هناك.

لى الحدود فمنها جئت وإليها أمضى ومع عبورها التمام، وكما ذكرت وصرحت فالاكتمال عدم، الحدود، الحدود لى إذن، ولأخميم الغروب وفورة العمل، لأبيدوس الشروق والإمعان فى الليل والتيه عن المحسوس، أما جهينة فلها صمت النخيل حتى فى ليالى العاصفة، والتأهب الأنثوى، اضطجاعة ما قبل الإيلاج، المشابهة لحالة الوضع والتأهّب، لأخميم رائحة عرق البلح، ولأبيدوس وشوشة البخور المندى، أما جهينة فلها رائحة الخبيز عند الظهيرة، لأخميم لون الخس الأخضر الخصب رمز الإله مين، إله الخصوبة والذكورة. منتصب العضو دائمًا، وحيد الذراع لأبيدوس الأبيض، كفن أوزير لأن الأبيض عدم، فناء، بداية ونهاية، آخر وأول، منه تبدأ الألوان كافةً مع أنه

ليس بلون، لون لا موجود، لكن لا تقوم قائمة لأى منها بدونه، كل الألوان تحتاج إلى اللا لون فما أعجب وأغرب، كذا نقيضه الأسود، لجهينة لون السمسم فى سائر تحوّلاته، مزروعًا، مبتوتًا، متأهبًا للمزج أو العصر أو الطحن.

عند هذا الحد من خرجتى صرت مفرّقًا بين تلك المواضع قبل انتقالى وتدرجى إلى أماكن أخرى، بعضها بلغته، عبرته أو أقمت به، غير أن ما استجد علىّ مع ترحالى، مع إمعانى فى تدقيق الرؤيا، معرفتى بها عبر الاسم، هذا أمر وثيق الصلة بتغرّبى وما حصّلته من علوم ومعارف غير مدوّنة ولا مصدر لها، لا يمكن الكشف عنها فى انبثاقة واحدة، ليس لأنى أعرف وأضن، إنما لتدرّجى مع فهمى واستيعابى فالأمر يكتمل شيئًا فشيئًا، وبقدر ما أعرف بقدر ما سأفضى وأعلن، صار أطول مكثى فى جهينة ثم أخميم، أقصرها فى أبيدوس، لكنها الأبعد مدى والأشد استغراقًا، ليس صدفة تعلّقى وجذبتى إلى تلك المواضع الثلاثة ومن بعدها الضفة الغربية لطيبة، للأقصر، لذلك صلة بتلك الليلة النائية، التى لم أشهدها، لا يمكن تعيين موقعها، أو تحديد مرتبتها فى إطار شهر أو سنة، ليلة بلا اسم مثل اللونين الأبيض والأسود، كل منهما مفتقد اللونية غير أن كافة الألوان قادمة منهما، ما عرفته عنها تلقيته عن سيدنا ذى النون.

مما توصل إليه القوم أن يوجد فى كل حقبة نفر، عددهم غير معروف، لكنه لا يتجاوز أصابع اليدين، لا أعرف بالضبط، لكن يحدثنى قلبى أنهم سبعة، لهذا الرقم منزلة وأسرار يضيق عنها هذا التدوين، يعرف كل منهم أمرًا أو أمورًا من المضامين التى صالحت الإنسان على الوجود المحيط به ومكّنته من اكتشاف الطريق إلى

الأبدية، أو معرفة جوهر بعض من الرموز، فمن ذلك الدائرة والمثلث والخط والنقطة، المدخل والدهليز والتدرج وإمكانية التشكيل المستقيم والمنحنى، دلالات الحرف، دقائق الاختلاف، مغزى كل بادرة، كل حركة، المعنى الكامن، الهسيس الخفى وراء حركة الظلال، الشفرات المضمرة والمفصح عنها فى حركة الرياح وانتقالها، ترعرع الزرع، إراحة الضرع، توجيه الضال، وإفراد الموضع للقادم الغريب، صون نقطة الماء المسافرة إلى البحر أو إلى البخر من أى سوء، الحد من أى تعد لأى ساع للدمار وإخفات الضياء القادم من بعيد، الأمر يطول، لكن أغرب ما اطلعت عليه ظلال أولئك الورثة، النافعين، ليس من الضرورى معرفة كل منهم الآخر، ربما يولد اثنان من رحم واحد، كلاهما حاو لجزيء من رسالة ما، عندما يبدأ سعيهما يمضى كل منهما فى مساره المقدر جاهلاً بما يعنيه الآخر بالنسبة له، لا يدريان من أمرهما شيئًا، وهذا عجيب، لكن مع النفاذ إلى تدرج الترتيب، وفهم الأخبار التى تسرى مع النسيم الهادئ أو الرياح الراحلة من جيل إلى آخر، من زمن إلى زمن، مع الرواح والمجيء، مع الاستغراق، مع الدخول فى السبات، مع ترقب انجلاء غيمة، مع متابعة رفرفة جناحى طائر قادم من بعيد إلى ضفتى النيل، أُلمّ بما يعدّ أغرب، ربما يخلو المكلف، حامل النغمة أو درجة اللون، الشكل، المعنى، اللفظ، من أى فكرة أو إلمامه بما يقوم به أو ما سيقدم عليه، يجهل احتواءه على مضمون صريح أو مشفر، ولو عرف فربما، بل المؤكد أنه لن يعرف ما ينتقل به من درجة لون، أو شكل دال، أو معنى أو لفظ لا تتبدل دلالاته أو آخر تستمر حروفه لكنها تشير إلى مضامين مغايرة، هؤلاء متواجدون فى كل زمان ومكان، لا يمكن أن يخلو وقت منهم طالما ترددت أنفاس الخلائق، معظمهم مجهول،

أفراد جد قلائل يمكن الإشارة إليهم، بل تحديدهم، أثق من هوية اثنين، أحدهما سيدى ذى النون، أما الآخر فلن أفصح عنه الآن، غير أننى ألمح إلى نفر منهم، سأذكر بعضهم، وأحجب الآخرين وفقًا لمقتضى الحال، هذا كله منبثق عن تلك الليلة وما سبقها من تدبير طويل.

عابرون

ما بين جهينة وأخميم، ما بين أخميم وأبيدوس، أمشى كأننى أخطو تحت خيمة، ثمة ما يظللنى، كل ما يمتد فوقى، إدراك كثيف، مركز، رغم جريان الماء، انبساط السماء وسريان الأفق، أبلغ مدينة البلينا، نقطة عبور إلى أبيدوس، لم أتوقف فيها إلا مقدار تغيير المواصلة، لم أجلس حتى إلى مقهى رغم حرصى على ذلك فى كل محل أنزله، من عاداتى المصاحبة لى حتى بعد انقطاعى وانبتاتى عن كل ما كان لى به صلة أن أركن إلى مكان بعينه، أقيم الصلة بموضع معين فى أية مدينة أو قرية أصلها مهما قصر الوقت، حتى لو ساعة، لا أستثنى من ذلك موضعًا، عدا البلينا، من رصيف القطار إلى موقف الحافلات الصغيرة المتجهة إلى أقدس الأماكن فى الماضى البعيد، هذه المرة مختلفة، لا أعرف إلى أية وجهة، ولا الوقت الذى سينقضى علىّ هناك، لأول مرة أمضى بدون تحديد فترة أو تعيين مدة، مفترض لعبورى الخط الفاصل بين الحضور والغياب فى أية لحظة، جانح دائمًا إلى الرسو، متقبّل لانغلاق الدائرة، لم أُظهر ذلك لأحد، لا قبل خرجتى أو بعدها، لا للصحب ولا للأقربون، فلم يعد لى قرين ولا صديق حميم ولا عدو يناصبنى وحتى الأقربين نأت الأحوال ما بينى وبينهم، تفصيل ذلك يطول، لذلك كان إقدامى على خلع نفسى من

نفسى وبدء هذا التغرب المبين بالسياحة إلى ما ارتبطت به، ليس بقصد إشغال محل، إنما مضيًا إلى ما لا أعرف لكى أعرف، يقين دفين أن ما أمضى عنه لن أعود إليه، تمامًا مثل الزمان، ما يفوتنا لن ندركه منه، عندما نزلت البلينا لم أتوقف هذه المرة، عزمت على بلوغ قصدى مشيًا، عندما سافرت إلى بلاد المغرب، فى مراكش قصدت زيارة السبعة رجال، خصصت لكل منهم يومًا، رافقنى صاحب عرفته على البعد من خلال المكاتبات قبل أن ألقاه على القرب، أقصد سيدى حبيب السمرقندى، المراكشى مولدًا، الفرنسى إقامة، سأورد بعضًا من أخباره وطرفًا من لقياى به كلما سمح المقام، أعرف أننى لن أراه مرة أخرى، لا هو ولا غيره ممن عرفتهم، لذلك أستدعيهم بالخاطرة، من خلال ما أزال أعيه، كنت مشوّقًا لرؤية مقام سيدى الجزولى، والد سيدى حبيب خادمه وإمام المصلين به، باب داره يفضى إلى المسجد مباشرة، كذلك مقام وضريح سيدى أبى العباس السبتى، لكليهما نصيب مما أزال أذكره، لاحظت أن سيدى حبيب يترجل قبل المكان مسافة نقطعها راجلين مع وجود فسحات تسمح للمركبات بالوصول إلى أقرب نقطة، عندما أبديت له الملاحظة، قال: إن المباركين لهم آداب يجب اتّباعها سواء كانوا أحياء أم أمواتًا. من تلك الآداب ضرورة الاقتراب على مهل مع قطع مسافة حتى يتم المثول بين يدى الشيخ، لعلى استرجعت ذلك عندما قصدت أبيدوس، هكذا بدأت أقطع المسافة سيرًا على قدمى، لا أدرى أين قرأت أن المعبد كان مطلاً على النيل، لكن الطريق الآن طويل، حوالى عشرة كيلو مترات، من انتقل، من تحرك، النهر أم بيت الحياة؟ لا أدرى، لكن ما أثق منه بعد هذا البت أنه ما من ثوابت، لاشىء يبقى، إن بقى فى الظاهر فإنه متحوّل فى الباطن، هكذا بدأت المشى، لا ينتظرنى هناك أحد، لم يودعنى أحد،

منذ بدء خرجتى كنت مفردًا مثل كوكب فى مداره الموحش، ليس عندى خطة غير أننى مدفوع بمضامين قديمة، أدرك بعضها وأجهل معظمها، الطريق ممهد، على جانبيه أشجار السنط، مزروعة لتمسك جذورها التربة، لتثبتها، ربما يمتد مكان الطريق العتيق، الدروب ترث بعضها أيضًا، يتناسل الصخر، يجيئ الحجر من الحجر، هل ساءلت نفسى يومًا عن جد هذه النجمة، أو سلف تلك الحشرة؟ أمضى ناثرًا تساؤلاتى، عارجًا على كل ما توقفت عنده يومًا، لا يسعنى إلا الاستفسار.

أبطئ خطواتى، لماذا أسرع، لماذا أحرص على دخول البلد عند لحظة معينة؟ لا يعنينى مرسى بعينه، لا أتعلق بشىء، كل ما أبلغه الآن نهايات، خواتيم، لا بداية تنتظرنى عند موضع، لحظة ما، أنتقل إلى ما لا يمكن حدّه أو تعيينه، التراب تحتى، أوراق الشجر الجافة، بقايا مجهولة، لا أخشى نزول الليل علىّ فى الطريق الخلاء، ما بين بلدتين، هذا الخاطر كان من كوابيسى فيما مضى، ألا أبلغ موضع مبيت، أن أضلّ طريقى ليلاً، أن يسرق نعلى، يمكننى الآن الميل هنا أو هناك، داخل حفرة، أو بجوار شجرة أو على حافة قناة، أميل راقدًا متوسّدًا ذراعى متّخذًا وضع الجنين فى الرحم، لا أخشى إلا مضايقة رجال الأمن النشيطين الآن، أو اقتراب ضبع أو ذئب أو وحش أجهله لا يمكننى رده، ثمة يقين غامض أن من سيدنو لن يهاجمنى، ما بداخلى من سكينة وانعدام الرغبة فى النزوع أو الشروع سيوقف أعتى الوحوش عند حدها، لن تجد فى كينونتى ما يحفزّها على الهجوم، هذا ما أخبرنى به سيدى مصطفى سليطين نزيل أغمات والذى فارق خلوته التى لم يغادرها منذ أربعين عامًا، سبق أن زرته عند قدومى أول مرة إلى مراكش، مضيت إليه بصحبة سيدى حبيب السمرقندى، فى المرة الثانية عندما أخبروه برغبتى طلوع جبل الأطلس إليه، أبى، فاجأ القوم

بقوله: سأذهب إليه، فى ساحة الدار جرت بينى وبينه مواصلة استغرقت يومًا، منذ الصباح إلى المغيب، إذا كان القوم دهشوا لإنهائه عزلته مؤقتًا من أجلى، فعجبى أعمق وأقوى، انبثق عندما قال على مسمع منهم لحظة توادعنا:

«ادع لى . . . ».

«أنا يا سيدنا، أنا الخطّاء أدعو لك؟!».

يشير إلىّ بسبابته حتى ليلمس صدرى:

«أنت من المنكسرة قلوبهم ودعاؤك مستجاب . . . ».

أثناء حوارنا، حكى عمّن ساحوا فى البرية ولزموا الأقاصى، لأن دواخلهم رست وسكنت لم يقربهم أعتى الضوارى، استقرّ ذلك عندى، لعله دافعى إلى التمهل، أو الرهبة من دخول أبيدوس ليلاً، هكذا أويت مع نزول الليل إلى ساقية قديمة، انفصلت عجلتها عن مدارها، بجوارها تمددت مصغيًا إلى الخلاء، فى جهينة زمن طفولتى لم يكن أعتى الرجال يجرؤ على مفارقة البيوت إلى الغيطان، البعض يمضى ليله فيها لكنه يبلغها قبل المغيب، كانت النواحى منعزلة عن بعضها والطرق صعبة وحلكة الليل وعرة تمرح فيها عفاريت مؤذية لكل منها اسم ومجال تتحرك فيه، عدا أرواح القتلى الهائمة التى لم يؤخد بثاراتها والجن المؤمن والجن الكافر، الآن لا يعنينى هذا كله، ليس السبب تقدّم العمران وإضاءة النواحى، ولكن لانعدام الخشية من الضرر، وتساوى الكل عندى، فلا حافز يدفع. ولا غرام يؤجج، ما أوعر ذلك مع انتفاء الصاحب الحميم والود المقيم. كل ما يشغلنى انقضاء الوقت قبل إلمامى بعد أن أدركت ما أدركته.

مع انبلاج الصبح فارقت مرقدى قاطعًا ما تبقى من مسافة إلى أبيدوس أو العرابة المدفونة كما تُعرف بين البعض وفى السجلات المستحدثة، مشيت إلى أبيدوس فبلغتها مع خروج القوم إلى معايشهم، رغم عزلة بلدان الصعيد وانقطاع بعضها ومعرفة كل إنسان بالآخر فظهور الغرباء لم يكن يثير الدهشة، بدءًا من المغاربة الذين يجيئون من الغرب مشيًا قاصدين مكة، يظهرون فجأة، مرتدين لباسًا متشابهًا، الجلباب ذا البرنس الذى يغطى الرأس، متاعهم حقائب من قماش تحوى كتابًا وكسرات خبز وزمزمية ماء ملفوفة بقماش، هكذا يجيئون منذ حقب، إلى الغجر أو كما يعرفهم البعض بالحلب، لا مقر لهم، ولا أصل معروفًا، يقيمون على الأطراف، نساؤهم جميلات يأخذن العقول، بمجرد ظهورهم يسرى الحذر، ليس خوفًا على الرجال، هؤلاء يُخطفون لبعض الوقت ويعودون لكن خشية على الصغار، يرحلون بهم إلى بعيد، إلى حيث لا يطالهم أحد، من الغرباء أيضًا الرهبان السائحون والدراويش الهائمون والقاصدون زيارة الأولياء والذين خرجوا عن ديارهم لأسباب شتى، كان الناس يحتفون بالغرباء، يؤدون واجب الضيافة بدون أن يسألوا عن اسم العابر أو مقصده، لكن بحلول زمن الاضطراب قرب نهاية القرن وطلوع الشباب إلى الجبال طلبًا للعزلة ثم حملهم السلاح وشغلهم مغارات المطاريد، وإغارتهم على النجوع، واستهدافهم رجال الشرطة، هنا أصبح التدقيق واجبًا والفحص ضروريًا، خاصة عند المنافذ المؤدّية إلى أبيدوس، فى زمن ترددى عليها لم أر من الأجانب إلا عددًا قليلاً، يجيئون من الأقصر فى حافلات يتقدّمها حراس مدججون، لا يمضون إلا الوقت اللازم لمشاهدة بيت الحياة المعروف الآن بالمعبد، وهذا أمره يطول، غير أن ترددى القديم ومعرفة القوم بى وصحبتى لخالد وفّر لى

هذا كله ما يدرأ عنى الفضول ويحوش الغلاسة، بل إن البعض شبهنى بأم سيتى.

قرى ومدن ونجوع الصعيد الجوانى تبدو نائية، منطوية، معزولة، تقترب من النهر أو تبتعد، كلها معبر، كما أنها مقصد، يجيء المغاربة عبر الصحراء قاصدين مكة لعدة قرون متتالية، ويصل الأجانب الساعون لرؤية ومعاينة الآثار المطمورة، ما ظهر منها وما خفى، للحصول على اللقايا والدفائن. فى سنواتى الأولى قامت ضجة وعلت أصوات وجرى ناس هنا وهناك، أمر غير عادى قلقل رتابة الحياة اليومية.

زنجى مفرد فى الجامع، ظهر فجأة قادمًا من الجبّانة، من الغرب، كان طويلاً داكن البشرة، تلوح من سواده لمعة، أغمق من رجال الهجانة الذين يفاجئون الناس بكرابيجهم ويحتلون الساحات ممتطين جمالهم، مفارقين لها بعد أن يترك إلى جوارهم، ينهرون كل عابر، مفرقعين بكرابيجهم.

«خُشى بيتك خُشى بيتك...».

ثم يفرضون على كل منزل مقدارًا من الطعام يخرج فى توقيت معلوم، يجثمون مثل الكابوس، فى ذاكرتى بعضهم بلباسه القصير، والرباط الملفوف حول الساق إلى حواف الركبة، وغطاء الرأس المرتفع، الحزام عند الخصر، ثمة جزء ملون بالأخضر أما الغالب فالكاكى الأصفر، معظمهم لا يتكلم العربية، ينطق بضع كلمات، كلها أوامر بالوقوف أو الجرى أو دخول البيت.

أقف أرقب الزنجى حذرًا، يجلس مرهقًا، يقدم إليه القوم الشاى،

الطعام، يحاول البعض التفاهم معه بالإشارة، لغته تختلف حتى عن الهجانة، سريعة، متلاحقة، أقرب إلى الغمغمة، جاء العمدة، وعامل التلغراف، وحميد الطالب فى الأزهر، لكن لم يستطع أحد أن يفهم منه حرفًا، إلى أن وصل مصطفى الجمّال عند صلاة العشاء، طلب من القوم أن يفسحوا له مجالاً، قعد أمامه وراح يتبادل معه الإشارات، بدآ متمهلين، ثم تزايدت سرعتهما حتى صعب على المشاهدين رؤية أصابعهما التى تحوّلت إلى ظلال، عندما بلغا حد الصمت التفت مصطفى إلى القوم، قال إن هذا الرجل من بلاد قصيّة، آخر قبلى، بعد بدايات النهر، خرج منها قاصدًا مكة مشيًا على قدميه، أمضى حتى الآن خمس سنوات، إنه يعرف قصده، لا يطلب إلا الراحة لمدة ليلتين لا غير، بعدها يستأنف رحلته مهتديًا بالنجوم التى يعرف مواضعها، إن جماعته لا يخرجون إلى الحج فرادى، لكنه قطع عهدًا على نفسه أن يبلغ مكة وأن يرجع منها مشيًا، لن يعبأ بأخطار الطريق وتغيرات الظروف وانبثاق البواغت، ألم يسمع بأذنيه شيخه الذى جاء من بعيد يقول: على قدر المشقّة يكون الجزاء.

أحد علماء قوص شرع فى وضع كتاب يترجم فيه أحوال الذين ظهروا فى البلاد فجأة قادمين عبر الصحراء أو الجبال الشرقية، لما اتسع عليه الأمر حدد المدة بمائة سنة، ولكن من ظهروا خلال هذا القرن ضاقت عن تدوينهم مجلدات شتى فما البال لو ذكر ما عرفه عن أحوالهم وظروفهم وما سمعه القوم منهم، حدد المدة بخمسين عامًا، ثم عشرين فعشرة وعندما رسا على اثنى عشر شهرًا بدأ غير أن التدوين لم يكتمل خلال السنوات السبع التى قضاها قبل أن يرحل إلى هناك، قبل أن يغمض عينيه قال إنه لم يتصور قط ذلك، ولو أقسم له أحدهم لما صدقهم، أعداد العابرين تفوق المقيمين، والله هذا غريب، عجيب!

عندما استفسرت عن إمكانية الوصول إلى الصفحات التى سوّدها صمت القوم، لم أصغ منهم إلى ما يشفى الغليل وإن أدركت من بعد قصى لواح حذر غامض مريب، لم أعبأ، لم أشغل نفسى، إذ لا يحركنى إلا ما أسعى من أجله، ما عدا ذلك فوراء ظهرى حيث لا يمكننى رؤيته أو معاينته أو الحدب عليه، صحيح أن أولئك الغرباء شغلوا ما أحلق عبره من حيّز، ثمة صلة، لكننى لم أستطع تحديدها بالضبط وإن كنت على أمل.

دخلت زمام أبيدوس مع بدء إطلالة قرص الشمس من الأفق الشرقى، رغم بكورة الوقت إلا أن مجيء الغريب يثير اهتمام القوم أيا كان موعد وصوله ليلاً أو نهاراً، البلدة مقصد وليست معبراً، لا يمر بها أحد للوصول إلى مدينة أو قرية أخرى، إنها نهاية مطاف، تقع عند الحد الفاصل ما بين الزرع والرمل، هنا بيت الحياة الذى حيّرنى وأبهرنى ومرمرنى، فيه جرت وقائع تلك الليلة، ومنها خرجت الرسائل كافة لتعبر الأزمنة والأمكنة، وتصل إلى ما لم يتصور المجتمعون وما لم يتخيلوا وجودهم أو سعيهم يومًا رغم أنهم من محصلى الحكمة ومفسرى الأسرار.

فى الطريق المؤدية إلى المعبد رأيت خالداً قادمًا نحوى، كأنه يعرف بوصولى رغم أننى لم أخطر إنسيًا ولا جنّيًا، يقترب منى متمايلاً، عنده عرج ضئيل، لم أسأله قط عن سببه، له عندى منزلة ومنه إلىّ مودة منذ أن لقيته أول مرة جئت فيها للزيارة، كان يقف إلى جوار المدخل الخارجى أمامه صندوق يحوى عاديات مقلدة بإتقان، حلى وجعارين، تماثيل أوشابتى صغيرة، عندما رآنى قصدنى، خُيّل إلى أنه نادانى باسمى، لست متأكداً، لكننى على ثقة من فيض وده كأنه لا يرانى أول

مرة، عندما عدت إلى مصر داوم على الاتصال بى، وعندما جئت هذه المرة مع تبدّل حالى تمامًا وخروجى عن مألوفى وكل ما لزمته وقطعى المسافات هاجًا، طافشًا، منخلعًا، متخليًا عن كافة ما مت إلىّ، أو ما اتصلت به، لم يبد دهشة، لم يسألنى عما لحق بى، كأنه توقع ذلك أو أنبئ به، يطول أمره معى ولو فصلت لأفردت هذا التدوين كله، لم تصل بيننا الأسباب قبل لقائنا الأول، لا قربى ولا صحبة، لم يجمعنا مجال، ولكن قامت بيننا مودة واتصلت أسباب لا أدرى منشأها.

هذه المرة لم أحمل إليه زيارة، ولم أبد اعتذاراً، كل ما أحمله كيس قديم من البلاستيك يمت إلى مكتبة اعتدت شراء كتب منها، لا يحوى الآن إلا نثيرات تمت إلىّ، غيار داخلى، وكسر خبز، أصر خالد على نزولى عنده، لكننى أبيت، مهما بلغت المودة وحتى القرابة، سأكون مقيداً، والمنخلع عن كافة ما يمت إليه مثلى لا ينفع معه التقييد أو الإحاطة، ثم إننى ربما أتسبب له فى متاعب لا أعرف طبيعتها، القادم هذه المرة لا صلة تربطه بمن كان يجيئ فى المرات السابقة، أنيق الملبس، ينفق عن سعة، يقيم فى أفضل غرف الفندق الوحيد المشرف على المعبد، الآن أبدوا هائمًا على وجهى، يماثل حالى أولئك الغرباء الذين ظهروا فجأة من الصحراء وعبروا، أو الذين وصلوا بهدف الزيارة ثم أخذهم الوضع فتقبلهم الناس واعتادوا حضورهم، غير أن الفرق بينهم وبينى غموض أسبابى، كذا دوافعى.

أم سيتى

لم أعرفها شخصيًا، عندما بدأت التردد على المعبد كانت راحلة منذ سنوات، أول من لفت نظرى إليها خالد، عندما رآنى أجتاز البوابة الخارجية إلى الساحة الصاعدة قبل شروق الشمس، عندما رآنى أخلع نعلىّ قال إن ذلك يذكره بأم سيتى، إنها الوحيدة التى كانت تفعل ذلك، بل تقدم عليه متخذة الوضع نفسه الذى اتخذته، سبحان الله، ما أشد التماثل.

طبعًا سألته: من هى ومن أين؟

لم يذكرها لى مباشرة، إنما تحدث عن الغجرية، مايزال أهل الناحية يقصون ما جرى منها، ظهورها الغامض وابتعادها، إنها المدخل لمعرفة حكاية أم سيتى التى اشتهرت وتناولتها الصحافة فى مصر والعالم البعيد وذكرها العلماء فى الكتب، لم يخبرنى خالد بما كتبته أم سيتى عن المعبد، عن أيامها فى أبيدوس، المؤكد أنه لا يعرف، الكتاب صدر بالإنجليزية فى آخر الدنيا، هناك فى أقصى الغرب، فى لوس أنجلوس، عثرت عليه بالصدفة، نسخة وحيدة فى مكتبة عتيقة، تخصصت فى الكتب الألمانية حتى نهاية الأربعينيات، ما بين حديث خالد عنها وإمساكى بهذه النسخة ثم اقتنائى لها أسبوعين فقط، ولولا أننى لا

أعوّل كثيرًا فى ذلك الوقت على الأسباب الخفية لقلت إن الأمر مدبر، لكنها الصدفة لا غير.

من هى الغجرية؟

يقول خالد الذى لم يتجاوز الخمسين إن ظهور الغجر أو كما يعرفون فى الصعيد بالحلب أمر عادى، اقترابهم يثير الخشية والرغبة، عرفوا بقدرتهم على سرقة الكحل من العين، وإغواء أعتى الرجال عفة، يظهرون فى الأسواق، يقدمون الرقصات والأغانى والعزف على الآلات وملاعبة الحيوانات، خاصة القرود والماعز وإنطاق الببغاوات، يتحركون جماعات، من النادر، بل لا يذكر أى إنسان خلال أجيال متعاقبة أى غجرى ـ رجلاً أو امرأة ـ جاء بمفرده، دائمًا يقيمون على الأطراف، لا ينزلون الساحات الداخلية للقرى والمدن إلا نهارًا عندما يتجولون فى الدروب لقراءة الودع وكشف البخت من خلال خطوط الأيدى أو مقايضة بعض الحلى بأطعمة أو ملابس قديمة أو غلال، ذرة وقمح، فى الليل يتسلل الرجال إلى مضارب الغجر عند الحدود حيث ينزلون، يتذوقون ألوانًا من المتع لا يعرفونها مع نسائهم، كل شىء يمكن عمله، التقبيل والعضّ والمصّ وخمش النهود وصب الخمر فى السرّة ولحسها، الدغدغة والطبطبة وإصدار الأصوات الكامنة، عدا شىء واحد، الإيلاج، هذا ما لا تقبل به الغجرية على الإطلاق، وإذا واجهت إصرارًا يدفع بهن إلى الغضب يستدعين رجالهن الذين يبدّلون مواضعهم من متواطئين، يغضّون الطرف عن الخلوة، إلى ذكور شرسة، عفيّة، قادرة على الخمش والجرح والبتر عند وصول الأمر إلى أقصاه.

غريب، فريد، لا سابقة له أمر هذه الغجرية، تخلفت ولزمت رأس

الجسر، بل إن بعضهم أكد أنها لم تقعد عن مرافقة زوجها فقط، إنما فارقت طفلها الرضيع أيضًا.

أى سبب، أى سبب يجعل الأم ترمى وليدها من على باطها إلى المجهول، إلى قسوة أو عطف امرأة أخرى؟ الحكايات كثيرة، لكن الشائع منها أمر الرسالة، رؤيا تلقت خلالها أمرًا، جاءتها جدتها التى اتصلت بها زمن طفولتها، فتحت عينيها عليها لغياب أمها الغامض المبكر أثناء عبور الجماعة سهوب الشمال المضلة، مثلت جدتها فى المنام مرتدية البياض الشاهق، مدت يدها برسالة، لم تفصح عن طبيعتها، أهى مكتوبة؟ أى شكل من الورق إذن؟ ذلك الشائع، المعروف لتلاميذ المدارس، أم المتخذ من رق الغزال؟ هل سرت معانيها خلال قبض الجد ليد الأم؟ ربما، المهم أن الجدة أوصت بتسليمها إلى شخص معين، لم تفصح عنه، لكنها طمأنتها أن حيرتها لن تطول، لحظة مثول هذا المقصود، ذكرًا كان أو أنثى، ستأتيها العلامة ويظهر اسم المعنى، فقط عليها أن تلزم هذا الموضع، ألا تبرحه إلى أية جهة مهما تعددت الأسباب.

ظهرت الرؤيا ليلة الرحيل، قبل انفجار الصبح تحركوا مبتعدين جنوبًا، لم تلاق عنتًا ولا مشقّة، كأنهم تهيأوا من قبل، الحقيقة أن ما يترتب على أمر ورد فى رؤيا لا يمكن رده، هذا قديم، معروف عندهم، لا يعرف أحد ماذا جال عند رجلها وابنها وهم يتركونها معزولة، مغردة، مطمعًا لضوارى الإنس والحيوان، تكتمل حالة الفقد مع حضور المفقود، يتم اعتباره غائبًا كالميت، موت بالحياة، هكذا ابتعدوا وابتعدت رغم بقائها.

لم تكن الغجرية مثل أى أنثى أقامت أو عبرت، لا يعرف خالد لها

اسمًا، ليس لأنه لم يتلقاه عن آخر، ولكن لأنها لم تخبر أحدًا به، لم يطلع عليه كل من تحدث إليها أو خلا بها، لذلك رآها كل منهم كما يهوى، فعندما يغيب الاسم، تتداخل الملامح ويشف الحضور عن اللاحضور، ليس غريبًا أنها تبدو للبعض فارهة، نقية، فضيّة البشرة حتى ليمكن الرؤية من خلالها، بينما يقسم آخرون أنها غامقة كما الليل الغطيس، لكن سوادها عجيب مشرب بحمرة دافئة مثل جلد اليمام ما بين الجناح والجسد، قيل مثل هذا كثير، لكن المتوارث أن الناحية لم تعرف مثلها، لا فى الحسن ولا فى الشجاعة، كان الرجال يتسللون إليها ليلاً ونهارًا، يأتونها فرادى، من العمدة إلى الخفير، من ضابط الشرطة إلى رجال الضبطية إلى مفتشى الآثار والباحثين الأجانب القادمين من أصقاع وجهات شتى، ما أجمعت عليه الروايات أنها لم تُمكّن رجلاً منها قط، تكشف صدرها النافر، المتين، نعم، تقبيل، نعم، مرور بالأصابع على الأنحاء كافة، نعم، الحديث همسًا ومسموعًا، نعم، لكن محاولة إتمام المضاجعة، مستحيل، إذا تمادى الرجل لقوة نزوعه وغزارة فيضها، يبدو منها ما يجعل أقوى الفحول ينكص على عقبيه، أما الضباع وذئاب الخلا والحيّات الزاحفة والعقرب وأم أربعة وأربعين وسائر الهوام فأمرها ميسور، مقدور عليه، من قديم يتزود الغجر بتعاويذ وتمائم تحوش عنهم الأذى خلال ترحالهم عبر الفيافى.

لحظة خلوتها الفردانية بكل منهم، لم تكن تؤمّن نفسها، أو تروّض جمرهم أو تحصل على ما يكفيها من قوت، إنما كانت تنتظر لواح الأمر وإتيان البشارة، يثقلها أمر الرسالة، لا هى تعرف ما تحويه، ولا تعرف اسم المقصود بها، لا تعرف متى يحين الحين، متى تفرغ من تأدية الأمانة، لا تدرى ما سيحلّ بها بعد تسليمها، إلى أين والأهل أمعنوا

فى البعد، لا تعرف مضاربهم، قد نلتقيهم صدفة، وربما لا يقع بصرها إلا على من يشبه بعضهم فترتد خائبة، حسيرة، لزمت مكانها، لم تسع إلى طرقات أبيدوس أو أبواب بيوتها، النساء يحذرنها، يحرضن ضدها، إنها مصدر غواية، هكذا الغجريات وهن بصحبة رجالهن، فما البال بهذه الغريبة، النافرة عن قومها، المنفردة بالرجال واحداً بعد الآخر، لا تكتفى، بل تبدو ساعية إلى المزيد، لا تترك رجلاً أو امرأة أو طفلاً إلا وتتطلع إليه عند عبوره مجال رؤيتها وكأنها ستجرى وراءه لتأتى أمرًا ما.

بعد مجيء أم سيتى بحوالى سنة استيقظت فجرًا كعادتها، لكنها لم تتجه إلى المعبد، إنما سلكت الاتجاه المغاير، خطاها مغايرة، مختلفة لتلك التى تتوجه بها إلى المكان الأقدس، تتطلع إلى نقطة ما فى الفراغ تجاه الشرق حيث يبزغ القرص المضيء، الدائرى، لم تتمهل لالتقاط الأنفاس، اتجهت إلى الخصّ الضام للغجرية، اجتازت منحنية مدخله المنخفض، خرجت بعد حوالى عشر دقائق، لم تمكث طويلاً، لا يعرف أحد على وجه الدقة المدة التى أمضتها، لكن يقطع البعض أنها أولت ظهرها للخص مع اكتمال ظهور الشمس وبدء تسلّقها الأفق، هذا نهار لا ينساه أهل أبيدوس، خاصة الذين اعتادوا التسلل إلى الغجرية ليلاً، أو المرور نهارًا لعلهم يلمحون طرفًا منها أو حركة ما تشى بها، فوجئوا بمكانها الفارغ، كأنها لم تكن، كأنها لم تمكث قط، ذهلوا، ورفض البعض أن يصدق أو يقتنع، ثلاثة بدأوا هجاجًا فى طلبها، أمرهم معروف، متوارث، يسمونهم بالإخوة الغائبين، لا عجب فهم أشقاء.

سألت خالد، هل أم سيتى هى المقصودة بالرسالة؟

قال إنه لا يعرف.

سألته عما إذا كانت فضفضت لأى إنسان فى أبيدوس بمضمون ما جرى.

قال إنه لا يدرى.

سألته، هل يوجد أى شخص ممن انفردوا بالغجرية؟

قال إنهم كثيرون، لكنهم لا يتكلمون، يسكتون عن ذلك.

سألته عن أسمائهم؟

قال إن كل ما أدركها سعى إليها.

أمسكت ذراعيه، أين هم، أين؟

قال إنهم فى كل ناحية، لكنهم لا يفضفضون.

قلت: من يعرف إذن؟

قال: أم سيتى.

قلت: من يعرفها؟

قال: اسأل ابنها.

تطلعت إليه حائر العينين، مال ناحيتى.

مالك يا ولد العم، بتعذب روحك ليه؟

خلع النعلين

أعرف أننى لن أعرف، لكننى لا أكفّ، لا أتوقف، لو أننى اكتفيت بما قاله خالد ونفر من أهالى البلدة لتوقف الأمر عند وصول سيدة إنجليزية فى الثلاثينيات، مكوثها مدة ثم عودتها مرات قبل استقرارها وزواجها، كما اعتاد القوم توافد الغرباء، عبورهم المجال، كما اعتادوا غارات الهجّانة ونزول الغجر وظهور أرباب الأحوال، اعتادوا مجيئ الأجانب وإقامة بعضهم، تساءل خالد متعجبًا: أنا عارف إيه اللى عاجبهم فى أبيدوس؟ أن يهيم بعض الأجانب بالناس، بالمكان، بما تركه الأقدمون، هذا عادى، كان ممكنًا أن أتقبّل إقامة أم سيتى واستقرارها سنوات طوالاً، وأن أعتبر دخولها المعبد قبل الشروق والغروب أمرًا عاديًا، ربما توقّفت قليلاً عند إصرارها على خلع النعلين قبل اجتياز الحاجز الخارجى المؤدّى إلى الساحة الأمامية التى يبدأ بعدها ارتقاء الدرج المفضى إلى الرحاب والأروقة، صحيح أن ذلك لفت نظرى أول ما سمعته، إلا أن الأمر اختلف بسبب هذا الكتاب، عصر يوم تخلل مدرجى الأول، أيامى الممهدة لخرجتى، أن دخلت مكتبة بوسط المدينة متخصصة فى كتاب المصريات والمؤلفات الأجنبية عن الفن، لمحت مجلدًا بالإنجليزية، عنوانه بالضبط:

ABYDOS: HOLY CITY OF ANCINT EGYPT

كنت أبحث عن أى ورقة تتضمن ولو سطرين عن أخميم أو أبيدوس، فوجئت باسمين على الغلاف، أحدهما أم سيتى، والآخر هانى الزينى، واضح أنه تكفل بطبع الكتاب فى لوس أنجلوس، حروف الطباعة غريبة، كأنها آلة كاتبة عتيقة تطالعنى عبر الصفحات، تطالعنى من عمر متقدم، تقف مستندة إلى عكازين، تدقق، تتطلّع إلى أعلى، إلى اللامكان، اللا متعيّن، الوضع عينه الذى أرى فيه المومياء متقنة التحنيط، دهشت عندما علمت من مدير المكتبة أنها نسخة وحيدة، لم يصل غيرها، ولو تأخّرت يومًا أو يومين لما وجدتها، كثيرون يستفسرون عن مراجع تتعلق بأبيدوس، لكنها لا يجدون إلا الكتيبات الصغيرة والنشرات الدعائية.

لم أصبر، لم أرجئ مطالعته إلى يوم آخر، عكفت عليه ليلاً ولزمته نهارًا، يمكن القول باطمئنان إنه لا يوجد مثيل له، لا يقابله آخر، سواء فى الإنجليزية أو اللغات الأخرى، هذه ليست سيدة من اللواتى يجئن إلى الوادى للفرجة فيقعن فى غرام إنسان أو مكان أو أثر لا هذه عالمة، مدققة، باحثة متعمقة، تتقن اللسان القديم نطقًا وكتابة، لم تدع شبرًا إلا ودرسته، ترجمت ما نقش عليه من خط عتيق أو شرحت ما حفر فيه من رسوم، فسّر لى الكتاب ما غمض علىّ، قلبت صفحاته، تأملت صوره، خلال المرات التى ترددت فيها على أبيدوس قبل خروجى النهائى صحبته، عندما رآه خالد أبدى دهشة، قال إن أمره معروف، كل شخص يعرف أن هانى الزينى وثيق الصلة بها، طبع لها كتابًا، لكن لم يره أحد، رغم أن البعض لديهم نسخ من كتاب وضعه مؤلف إنجليزى بالتعاون مع هانى الزينى أيضًا، وعدنى خالد بتوفير

نسخة لى، قدّمها إلىّ بعد إجرائه العملية الجراحية، ولهذا حديث يمكن أن يطول، أوجزه فأقول إن خالد جاءنى مهمومًا، كنت مواظبًا على عملى وقتئذ، لم تنقطع وشائجى به تمامًا، جلس أمامى صامتًا، اعتدت سكوته هذا، كثيرًا ما يخلو الفراغ الفاصل من موضوع يمكن أن نطرقه، غير أننا لا نتململ ولا يضيق أحدنا بالآخر، بالعكس كنت أجد فى سكوتنا ما لا أجده فى ضجيج حواراتى مع آخرين انقطعتُ عنهم تمامًا فيما بعد فلم ينقصنى شىء، كما أننى لم أزدد يوم اتصالى بهم، على العكس مع خالد وبعض ممن لاقيتهم فى تغربى، لا تربطنا مدة، ولا سبب للقربى من المتعارف عليه، لكن يمتد بيننا ما يستعصى على الإدراك، يوثق ما بيننا ولا نعرف لماذا، فيصبح انعدام الأسباب جوهر الصلة ومكنون الرعاية، غير أن سكوت خالد يومئذ بدا مغايرًا، أو هكذا خُيلّ إلىّ فيما بعد.

مالك؟

قال بإيقاعه الهادئ نفسه، كأنه يفضى إلىّ بأخبار القوم هناك كلما جاء إلىّ، إنه مهدد، يمكن أن يتوكل على الله فى أى لحظة، أخبره الطبيب بانسداد ثلاثة شرايين، مع ضيق وارتجاع فى الصمام الميترالى، ياه...

كأنه يصف حالى قبل عشر سنوات من مثوله أمامى، بدا مستسلمًا، متقبلاً، سألته عما إذا كان يمتلك تكاليف الجراحة، بسط يديه، لاشىء، بعد انصرافه رحت وجئت، ماذا بوسعى أن أفعل؟ معهد القلب يطول انتظار المريض فيه إلى ما يتجاوز السنة، خطر لى أن أتصل بطبيب تعرفت إليه عن طريق معالجى والمتابع لشأنى، الدكتور

هلال السعيد، فى لقائى الأخير به قال إنه كف عن إرسال المرضى إلى الخارج منذ أن بدأ الدكتور طارق عملياته فى مصر بعد عودته من الخارج، جرى لقاء بعد ذلك جمعنى بطارق، عندما صافحته تطلّعت إليه مرددًا بينى وبينى: إذا احتجت جراحة أخرى فهذا من سيجريها لى، تأمّلت يديه خلسة.

اتصلت به، سألته: ماذا يفعل من يحتاج إلى إجراء جراحة ولا يمتلك تكاليفها؟ قال إنه يخصص يومًا مع عدد من صحبه لإجراء جراحات مجانًا، متبرعين ليس فقط بجهودهم، إنما بتكلفة ما يلزم.

طلبت من خالد الاتصال به، لا أرغب فى سرد تفاصيل لا طائل من ورائها، كما أنها تبدو بعيدة الآن، كأنها تخص غيرى، خلال أسبوع هاتفنى خالد، قال إنه أجرى التحليلات اللازمة، وأنه سيجرى العملية يوم السبت بعد القادم، زرته بعد خروجه من الرعاية المركزة، لم نتبادل كلمة، عدا ضغطة من يده جاوبته بمثلها، بعد حوالى شهرين جاءنى خالد بصحبة أحد أقاربه، قدم إلىّ هدية تمامًا كما اعتاد أهلى فى جهينة عندما يجيئون إلى أقاربهم فى مصر، أرغفة عيش شمسى، فايش، فطائر مستطيلة معجونة بالسمن والعصفر الذى يكسبها لونًا أصفر، صلب القوام، يغمس فى اللبن فيلين ويطيب مذاقه، كنت أستيقظ على بدء خبيزه زمن قضاء الإجازة فى بيت خالى، لابد أن يعجن ويخبز ما بين الفجر وقبل شروق الشمس، أما من تقوم بإعداده فلابد أن تكون عذراء لم يمسسها بشر، فى متحف تورينو توقفت أمام ثمانية أرغفة محنّطة ضمن محتويات مقبرة «كا» بالضبط، الأرغفة عينها التى عايشت عجينها ورصها على الطاولات فوق السطح لترضع من

الشمس مباشرة، خروجها من الفرن ساخنة، عندئذ يكون المذاق كله وتمام الاكتمال، خاصة إذا غمس باللبن الرائب أو الملوخية الممتزجة بالتقلية، الخبز والفايش أهم عناصر الهدية القادمة مع الأهل من الجنوب، الفارق أنه فى الماضى كانت تحتويها قفة من الخوص، أما ما أتى به خالد فمرصوص فى صندوق من الورق المقوّى، قلت مبتسمًا: مقبولة يا خالد، مد يده بكتاب صغير الحجم أخرجه من جيب جلبابه العميق، إنه الثانى المختص بأم سيتى، من وضع جوناثان كوت مع هانى الزينى، الكتاب يبحث عن سر أم سيتى منذ أن ولدت فى عام أربعة من القرن العشرين.

لو أنى اكتفيت برواية خالد وصحبه لبدت لى إحدى العابرات التى وقعت فى عشق المكان فلزمت، ولو أنى توقفت عند كتابها الضخم عن المعبد لأيقنت أنها باحثة متعمقة فى علم المصريات، خاصة معبد سيتى الأول، ولو قرأت الكتاب المخصص للبحث عنها، لأيقنت أننى أمام سيدة استسلمت أو صدقت بعض الرؤى أنها عاشت كخادمة فى معبد الإله منذ ثلاثة آلاف عام وبضعة عقود أو قرون وأنها سعت إلى المكان الذى عرفها من قبل.

كل هذا ممكن لو انفردنا به على حدة، لكننى فى سعيى هذا كنت مستسلمًا لبث داخلى ينمو ويكاد يتضح، ثمة ما يربط بين ذى النون وأم سيتى وخالد والشيخ الطيب والخطيب صانع الحديد الأخميمى، والأستاذ الفرنسى بجامعة ليون المتخصص فى العطور المصرية القديمة، وعم محمد النوبى المتقن لتراكيبها والشيخ صالح الجعفرى، وغيرهم كثير، ثمة ما لا يمكن إدراكه بالوعى، إنما نقدر على تلمسه وتعيينه من مسافة قصية، شىء اكتمل وبدأ منذ تلك الليلة التى اجتمع

فيها خدام الإله هنا فى أبيدوس وخرج إلى جهة غير تلك التى قدم منها، شىء لن أستوعبه مرة واحدة، صحيح أنه يلوح لى لكنه مازال بعيدًا، يكتمل مع الإمعان فى خرجتى تلك، لذلك لم يطل مقامى بأبيدوس، رغم أننى عند توجهى إليها وقصدى إياها ظننت أن مكثى سيطول، وأننى ربما أثوى فيما تبقّى لى، أسعى من موضع إقامتى إلى المعبد كما اعتادت أم سيتى، لكننى أيقنت بقصر المقام وضرورة المفارقة، والإمعان فى الخرْجة.

لواح رنْ

عندما جئت الذى قصدته مراراً، ظننت أن بقائى سيطول، حالى مغاير، ما من موعد يحدنى أو ارتباط يلزمنى، كانت أبيدوس دائمًا غايتى، أستحضر مواضع منها مرتبطة بلحظات مارقة، أثناء إقامتى وترحالى، مشروعى الخفى أن أقصدها، أحيانًا يتحقق لفترة وجيزة، هذه المرة لا شىء يقيدنى، إلا أن هذا النزوع الغامض، الذى يتدفق من موضع لا يمكن تعيينه، ولأسباب تغمض علىّ بدا، حتى إننى لم أطق صبراً فانطلقت فجراً، قبل تأهّب الشمس للظهور، قبل استيقاظ أى ممن أعرف، سيدهش خالد، سيحاول البحث عنى، ربما يجزع أو يصمت حائراً لا يبدى، المرة الوحيدة التى أفارق فيها البلدة بما حوت موقنًا أننى لن أرجع، أنتبه مغربًا، ناويًا سلوك الطريق المؤدية إلى الجنوب، وجهتى منذ بدء خرجتى، قاصداً الوصول إلى القرية بدون عبور النهر، أنتبه إلى يقينى، كل ما خرجت عنه لن أعود إليه، لن أنثنى، لكم سافرت، قصدت هنا أو هناك، فى كل مرة أفارق أتطلع إلى الموضع الذى أقمت فيه، طالت المدة أو قصرت، دنت المسافة أو نأت، متوقعًا العودة مرة أخرى، حتى إننى لا أقضى حاجاتى كلها، أبقى منها شيئًا يسيراً على أمل الحلول، لم يفارقنى ذلك، عدا هذا السعى الذى بدأ بعد أن خلعت نفسى من كل ما عهدته، أوقن أننى لن

الوذ بأبيدوس عند الضيق، لن أتمهل عند قصدى المعبد، لن أعبر البوابة التى تتخلل السور الخارجى المحيط بالمبنى والمعنى، لن أرتقى المطلع الممهد، لن أخطو حافى القدمين، مثل أم سيتى فوق أرضية القاعة الأفسح، لن أتطلع إلى الأعمدة الأربعة وعشرين مرة أخرى من زوايا شتى، لن أتلقى هذا الغمر الناعم، الكثيف من الظلال المتزايدة كلما أوغلت، تبدو زهور اللوتس عند المداخل المؤدية متفتحة، فى القاعات الوسطى تتضام، تتقارب أوراقها، فى قدس الأقداس تنغلق تمامًا، إنه السر، إنه المبهم الذى لا يقدر على الاقتراب منه إلا من دنا فتدلى، أما الإحاطة فمستحيلة، لن أتأمل الرسوم البارزة، لن أترقرق إذ أتملى من حنية أمنا إيزيس، إذ تلمس زوجها المكفن بالنسيج الأبيض، أصابعها تهمس لكتفه، أما نظراتها فمنها العناية والحماية والحدب وشد الأزر، موقن الآن بعدم بلوغى ما عبرته، أستعيد أويقاتى التى أمضيتها هنا أو هناك فأعجب، كأن غيرى أقدم، لا يمت إلىّ، كل خطوة الآن مؤدية إلى شىء أجهله، لا يمكننى توقعه، كل خطوة بداية، وعندما تفضى بداية إلى بداية، فإنها عين النهاية.

لن أعرف المشاهدة عن قرب، ليس سعيى إلا عندى، تخف دهشتى، لا أتوقف وأتمعن وأترقرق أو أرتد إلا إزاء ما ينبعث منى إلىّ، فقط ما يثير أساى سرعة انقضاء الأوقات، فما توقعته بعيداً، قصيًا، فاتنى وفتّه الآن، ومن خرجا من صلبى طال سعيهما، مضى كل منهما إلى حاله، إلى موضع لم أتوقع بلوغهما له، ما يصدر عنّى الدعاء بالصون وكفالة الأيام، إذا نزعت إليهما، وإلى من رافقتها عمراً ألوذ بالذاكرة، كل ما تجسّد عندى يومًا صار من خزائنى اللا مرئية إلا عبر مخيلتى، أقوى استحضار ما كان بالاستدعاء، وأشده نفاذاً ذكر

الاسم، مجرد النطق به تتجسد معالم وملامح وبنية متكاملة، لم ينادنى أحد ولم يدفعنى كائن، إنما تلبية لما صدر عندى، كل حد توقفت عنده أو أنوى تعين منى.

إلى البر الغربى، الموضع الوحيد الذى يطلق عليه ذلك عبر الوادى، مع أن كافة البر الذى يلى النيل غربى، لكنه فى مواجهة الأقصر يعرف بذلك، ليس الموضع نفسه لكنه الشيخ الطيب، لو أنه مقيم هنا أو هناك لقصدته، لكننى لا أتخيل البر هناك بدونه، ولا أتوقعه فى مكان آخر، كلاهما صنوان، دائمًا أمضى إليه مع استغلاق الحال، أو لحصول ما يستوجب الاستجلاء والمكاشفة، رغم وحشة الطريق الغربى إلا أننى لزمته، ليس عندى أسباب واضحة، لذلك أطرح الأسئلة، كلما أمعنت وصار ما تبقى أقل مما انقضى تتكاثر الاستفسارات، مع أننى ظننت العكس.

هل ميلى إلى الغرب لأننى ولدت عنده، لا تذكر بلدتى إلا مقترنة به، جهينة الغربية، كتبته مرارًا على الرسائل التى أملاها والدى، شيعها إلىّ خالى، إلى أقاربه، لمعرفة الجهات عندى شأن، مثل الأسلاف القدامى، تحديد الوجهة قام عليه كل شىء، لم أعرف مكانًا تتضح فيه الوجهة مثل الصعيد الذى وفدت عنده إلى الدنيا، كل بنيان يتبع المسارات الرئيسية، الشمس، النهر، شرق، غرب، جنوب، شمال، المداخل المؤدية إلى الأماكن المقدسة تتجه صوب نجم لم يتغيّر موضعه منذ حقب سحيقة جهة الشمال، عرفته خلال خروجى إلى الصحراء زمن الحرب، مشاركتى دوريات الاستكشاف التى قصدت أماكن يغمض أمرها على الخرائط المطبوعة، تنأى عن الدروب المطروقة، يتعلّق بصرى بالحلكة، بالنجوم الأوابد، بالشهب المارقة،

بضباب درب التبانة، فى الخضم المجهول أتوقف لأتطلع إلى النهائى واللا نهائى، يستغرقنى فضول محوره، أين موقعى من الكون؟ فى أى اللحظة؟ كم أبعد عن المركز، لكن هل من مركز حقًا؟ أستعيد مولانا جلال الدين الرومى:

لا تسأل عن مركز الكون أنت المركز!

أفاجأ بانقطاعى عن المجموع، عودة قائدهم فى العتمة مناديًا، يداعبنى بحزن، يمكنك أن تسرح كما تشاء، لكن بصحبتنا، الانفراد هنا هلاك.

أن أتساءل، ذلك قدرى حتى الآن، أى اسم أطلقه على تلك السماء الليلية حيث اللامدى، لم أجد إلا سديمًا، إنه الأقرب، الدال، يبدو «الكون» غامضًا، لا يفصح ولا يهدى، كان ممكنًا أن أُفقد فى تلك الطلعات زمن الحرب، لغلبة النظر والإمعان علىّ، تمامًا كما كان ممكنًا أن أُقضى لو أننى بدّلت موضعى، أكثر من مرة طالت شظية ضئيلة، صغيرة، من يجلس إلى يمينى أو شمالى، أى إننى لو بدّلت مكانى لتغيّرت المصائر، أعيش نتيجة الصدفة، لا يعرف قائد الدورية أننى سأمضى يومًا عند حد الصحراء التى أوغلنا فيها صحبة، لكننى منفرد، مبتوت، ما ورائى أغزر مما ينتظرنى، عدا التساؤلات، خاصة تلك المتصلة بالوقت والوضع، الحق أن كليهما واحد، لست منفصلاً عما كان، منذ سنوات، نزلت البر الغربى فى إقامة عابرة، كل ما يمت إلىّ مغاير وقتئذ، نزلت مقبرة حور محب غير المكتملة، إشارات متقاطعة، مرسومة على الجدران، أخبرنى صاحبى وهو من أهل الاختصاص أنها علامات تدل على الجهات، فى باطن الأرض يجب أن يتحدد الشمال من الجنوب، كذا الشرق والغرب، بعد التتميم تتعين

رقدة الراحل إلى الأبدية، فى هذا الهوْ الغامض يجب ألا يضلّ، ألا يتوه عن الجهة، للحد شأن، إنه الإطار، وجود بلا تعيين نفى وتيه، بعد خروج المسلمين واليهود من الأندلس، بقى بعضهم، تظاهروا بخلاف ما يضمرونه، لا يفضح أمرهم إلا ضبطهم متلبسين بأداء الصلوات، أو عند إجراء الختان، وإذا دُفن أحد المسلمين موجّهين رأسه صوب القبلة، من طريف ما طالعته أن مسيحيًا مخلصًا أصيب بورم فى قضيبه، اقتضى الأمر حضور رجل دين مع الطبيب أثناء إجراء العملية حتى لا يكون ختانًا! منذ سنوات. خلال نشوء حيرتى، حصلت على إذن بقضاء ليلة فى الهرم، ولجت التكوين فى الثانية عشرة، عند انتصاف الليل تمامًا، لأننى ترددت مرارًا من قبل لم أكن بحاجة إلى من يصحبنى، أُمهلت سبع دقائق لأقطع المسافة، بعدها يتم إطفاء الضوء، لمست التابوت المفترض رقادى فيه حتى الصباح، عتمة مباغتة، كأن الضوء لم يوجد قط، مفرد، لا ضد متوقعًا، لا نقيض محسوسًا، فقط، امتداد لا أول له ولا آخر، ما من حد، شيئًا فشيئًا أدرك كثافة الظلام، يلمسنى، يحدنى، له وبر، يتخللنى، يتذرى وعيى بحضورى المادى، فقط صور متخيلة، بعضها وارد بذاته لأسباب لا أعلم عنها شيئًا، وآخر متخيل، اندمجت بالقمة، تلاشيت وتلاشت فىّ، صرت جهاتى، أقصدها فأبلغنى، يدركنى ما لم أتوقعه، لا يحوشنى حاجز، لا يحدنى وقت، صرت ذاكرة كلى، أستدعى القصى، النائى، بمجرد مثول الاسم عندى، عبرها أمضى إلى الغوامض الجلية، غير محدد بجسم أو رسم، عند بدء انسلاخى عن كل ما عرفته أو ما سأصير إليه، لم أحدد وجهة، غير أنى بدون قرار اتجهت إلى الجنوب، عند بدء الحيرة يستدعى المرء أسماء المواضع المألوفة، كذا اللحظات الحميمة فتنبثق أماكن ومشاعر ومذاقات، كلها

مرتبطة بالبدايات، قُدّر لى أن أشهد ضمور امرأة أنجبت أبناء وأحفادًا، منها تدفقت حيوات، غير أن تلاشيها بدأ عندما فقدت القدرة على التعرّف، تنحنى إحدى بناتها عليها فتتحدث إليها باعتبارها أمها التى كانت، ارتدت إلى زمن طفولتها، تبحث عن لعبتها وتنشد حضن الأم، وتتساءل عن موعد وصول الأب، أدركت يومئذ أن الوجود الحق ذاكرة، وما الذاكرة إلا ترتيب الأسماء، أو التعرف على دلالاتها، وليت الوجهة صوب الصعيد، يبرز اسم راسخ عندى، جهينة، مسقط رأسى، الغريب أننى مررت بها ولم أدخلها، حاذيتها ليلاً من جهة الغرب، مرتفع أطل منه، تلك الأضواء المتناثرة ركيزتى، المآذن بما يعلوها من أضواء خضراء، غمسنى حال يشق علىّ شرحه، مجرد مرأى الموضع الذى جئت فيه إلى الدنيا أنعشنى وأنشأنى، هنا يعيش من يمتون إلىّ بقرابة، لكن مررت على مشاهد مماثلة، مواضع طالعتها نهارًا وليلاً، لم تعن لى شيئًا، لكن ما رأيته فى هذا الوقت من ليل سعيى أتم الأشياء لأن اسمه «جهينة»، من الغرب تطلّعت، فى صباى إلى الغرب رنوت، تغمرنا رهبة، فى الغرب مقابر الأقدمين التى تضم المساخيط والأصنام، كما تسرح فيه الضباع، حيوان نتن بطبعه، يأكل الجيفة، نباش للقبور، إذا رأى حيًا يتبعه بلا كلل، حتى يدركه الإعياء، عندئذ ينقض عليه، يلحس بتؤدة مواضع تلاقى الأعصاب فيه، عندئذ تنفك الأواصر، وتتلاشى المقاومة، تتفرّق الفريسة عن بعضها، يسهل التهامها، حيوان شره، يصعب مواجهته، لكن إذا بوغت من الخلف، أمسكت اليدان بأذنيه، يمكن السيطرة عليه، إنه الوحيد الذى لا يقدر على المناورة أو الالتفات لوجود عظمتين بارزتين بجوار الأذنين، أستعيد كل ما سمعته عنه أثناء سعيى، ربما ألاقيه فى أية لحظة، لم أتصور أننى سأطالع جهينة من الغرب يومًا، غير أن الجبل لم يعد ذلك

الذى أبصرته صبيًا، شُقّت طرق، امتدت المساحات الزراعية، شنت حملات ضد المتعصبين دينيًا الذين اعتصموا بالمغارات التى آوت المطاريد يومًا، أُخليت الكهوف، لم يعد إليها حتى الهاربون من تنفيذ الأحكام وجرائم الثأر وبدوافع أخرى، غير أن الجبل يظلّ مصدرًا للوحشة وما يستغلق على القوم، لو أنّ الأقربين اطّلعوا على حالى لما صدقوا أو استوعبوا، كيف أتجنب كل معمور وأخوض فيما يرهبه العتاة، غير عابئ بالطريشة أو الكوبرا وما أجهله من زواحف وعقارب وضوار، كنت أرقب إعداد العدة لها عند خروجى إلى الصحراء مع دورياتّ الاستطلاع، فى ليلتى تلك داخل الهرم لم تداخلنى خشية من الظلام أو الغوامض غير المدركة، ما أقلقنى دبيب خفى، ربما لجرذان، جريها فى العتمة، خطوات سريعة، تتبع مسارات خفية فى البنيان، على أى شىء تقتات؟ لم أجد إجابة عند صحبى المتخصصين، أخبرتهم بعدم تسلّقها جدران التابوت، لم يحاول أحدها أن يدركنى رغم حذرى وتوقعى، غير أننى لم أطلع أحدًا قط على نفاذ الشعاع الثاقب، ملامسته دماغى، نفاذه، عبورى إلى ما يلينى، ما بعدى، رأيته عالقًا، واصلاً بينه نقطتين لا أدركهما، قادمًا عبر الجدار المصمت غير الموحى بوجود أية ثغرة خلاله، رغم أننى ملم، مطّلع على إمكانية وقوع ذلك عند توقيت معين من الليل قرب الفجر، إلا أننى بوغت، للحيظة عابرة امتدت الصلة بينى وذلك النجم النائى، سحيق البعد، هكذا يكون الوصل بين الراقد أبدًا والنجوم والكواكب فى مداراتها، مازلت أمضى فى ذلك التصميم الذى يكفل هذا، أى تدبير، أى جهد؟ لحيظة عابرة لكنها باقية، مستوعبة، تعاودنى فى سعيى حيث لم أتخيل يومًا، أتساءل عن الصلة بين الطفل الذى أصغى إلى الكبار فى ليل جنوبى غميق، يتحدثون عن مخاطر الجبل والأرصاد التى تحرس كنوزه

المدفونة، وبين من يتقدم عبر الفلاة، من يعبر الهوْ، غير متحسب لأخطار، غير عابئ، لو دب عقرب لن أنفضه، لن أدفعه بعيدًا، أعرف أنه لا يلدغ إلا إذا تَهدده خطر، لكننى أمضيت عمرًا أجزع لمجرد تخيلى رؤيته، فماذا جرى؟ هل أنا هو، هو؟

لم أدخل جهينة، الكل سيهتمون بى، لن أقدر على رد فضولهم، أو الاستسلام لترحيبهم وعنايتهم وكرمهم، لن أتحمّل، لن أطيق، الدهشة، التعجب، الفضول، لن أقدر على ترحيبهم وعنايتهم وكرمهم، أقصى ما أرجوه ألا يعرفنى صاحب قديم أو صديق حميم، حتى من قابلتهم صدفة يومًا وآنست منهم لطفًا أو معاونة، سعيى وتمامى فى الانفراد التام، لا أقيم الوصل إلا إذا دعتنى ضرورة لاستكمال فهمى لما بدأته منذ حقب ومدد، آه لو وصلت إلى حال أسعى عنده فلا يبصرنى أحد، لا أظهر إلا لمن أرغب، من عرفتهم وأنزلتهم عندى مقامًا جميلاً أصونهم بذكر أسمائهم، أنطقها فيمثلون، أرددها فيكتمل حضورهم، كافة عناصرى من تلك الحروف اللوازم، يكفى اللفظ ليتجسّد قريب، عزيز، عرفته يومًا، أو أستدعى مدينة، أو زقاقًا منها، أو جذع شجرة فى حديقة غنّاء، ناصية ـ وآه من النواصى ـ فى بلد نزلته يومًا وربما لن أقصده مرة أخرى، أو مدينة تقوم عندى كما أشاء ولهذا تفصيل سأذكره فى حينه، لست مقيّدًا بإذن أو وعد، لا أنتظر أمرًا، إنما أتبع ما يصدر عنى.

رغم أنى لم أبلغ غرب الغرب، ما أنا فيه يعد شرقًا بالنسبة لمن يلينى فى الوضع، رغم إدراكى استحالة ذلك إلا أننى بحالى فى الغروب عينه، أحاول استيعاب وصولى إليه، انفرادى به، أقعد فوق صخرة مشرفة تلفحنى رياح مجهولة المصدر، تتدرج الأرض نازلة إلى الوادى

المتاح لبصرى، كم رحت وجئت فيه، عبر أكثر من ستة عقود كان تطلّعى من هناك، أسمع عن الرجال الذين اضطروا إلى الخروج، إلى العيش هناك خارج المنظومة، بين الحين والحين، والآخرون يفارقون المكامن، يقطعون المسافات عبر دروب ومدقات لا يعرفها سواهم، يختطفون شخصًا من هنا أو هناك، إذا لم يتسلّموا الفدية فى ميعاد معلوم، يرسلون برأسه مقطوعًا فى مقطف، أشهر من طلع الجبل مصطفى هاشم، لم أره، لكننى مما سمعته عنه من الوالد، خالى، أمى وجدتى، بقّال القرية، من محمود الجمال، من آخرين لا أقدر على لملمة شتاتهم، أراه ماثلاً أمامى.

ألمحه مهيبًا، طويلاً، فاردًا قامته، متطلّعًا إلى أعلى، لم يظهر إلا نظيف الثياب، جلبابه أبيض يميل إلى زرقة فاتحة، مغسول، مفرود بعناية، عمامته حولها شال شاه، يخطو على مهل، متجهًا إلى الخلف قليلاً بكامل قامته، إذا قرر النزول من الغرب ليمضى ليلة مع أولاده وزوجته، تخلو الطرقات، تغلق الأبواب، لا يرد العمدة على الهاتف الوحيد الموجود فى الناحية وقتئذ، مع أن رنين الهاتف وقتئذ مثير للوجل، للرهبة، أمران يخشاهما الناس من الفقير إلى الثرى، من الخفير إلى العمدة، رنين الهاتف والتلغراف، كلاهما نذير، يتحاشى الضباط والجنود الظهور، حتى رجال الهجّانة الذين لا يعرفون التفاهم بالعربية، المشهورون بقسوتهم يتظاهرون بالغطيط، يولّون الأبصار تجاه الأرض، سمعت من يقول إنه ظهر فى سوق نزه الحاجر، اتجه إلى ضابط شاب، وصل حديثًا من بحرى، هزأ فى المجالس من أولئك الذين يخشون مصطفى هاشم، قال إنه سيصل إليه، وسيفعل فى أمه أمامه.

عندما وصل مصطفى هاشم إليه حيث يقف، لم يشرع سلاحًا، ولم يضغط زنادًا ليخرج طلقة فى الهواء، حدق إليه، أشار إلى أحد تابعيه لينطق عنه، سأله بصوت مرتفع، سمعه كل من فى السوق، جثم عليه صمت مفاجئ، حتى ليسمع رنين الإبرة إذا ألقاها أحدهم، هل قلت كذا وكذا، ارتج أمره فلم يصدر عنه إلا غمغمة، وشل فعله فلم يصدر عنه حركة، حتى عندما تقدم الرجل الثانى وبدا واضحًا ما سيقدم عليه!

يبدو أن تلك الحادثة كانت الفاصلة، استنفرت الجهات السيادية فى بر مصر، بدأ توافد الرتب الكبيرة ممن يرتدون الملابس الرسمية والمدنية، نفر ممن تلقوا تدريبًا عاليًا على العمل فى الغرب الصخرى، المزودون بأسلحة خاصة، ونفاثات لهب، ودافعات غاز إلى أعماق الكهوف، كما تم التصديق على معاونة جوية إذا اقتضى الأمر، عندما ضاق به الأمر، واستحكم الحال، قرر الصعود شمالاً، قاصدًا البدارى، لماذا البدارى بالتحديد؟ لم يعرف السبب أحد حتى الآن رغم أن الكافة يجمعون على أن الغدر جاء من هناك، المطاريد القدامى يعرفون المسارب والدروب، حتى غير الموجودة على الخريطة، تمكّنوا منه عند ملتقى ثلاث شعب قرب مشارف البدارى، تغربل جسده بالطلقات، حتى استحال التعرف عليه عند عرض جثمانه فى السوق عينه، ربما لذلك يصر الأهالى من كبيرهم إلى صغيرهم حتى هذه اللحظة أنه أفلت من مطارديه، وأنه مازال يعيش فى موضع ما، فى مكان ما من الغرب، وأنه سيظهر يومًا لمن أذلّوا أمه أيًا كان وقتهم ومكانهم، تتردد حكايات عن حجاب أعدّه شيخ من كردفان، مصطفى أخذ العهد على يديه، أقسم ألا يجور على ضعيف، أن ينصر المظلوم من الظالم، أن يعين المحتاج إذا كان بوسعه، فى المقابل ثبّت الشيخ

تحت جلده حجابًا صغيراً يحوش عنه الأذى، يرد عنه حتى الطلقات الخارقة، كثيرون لم يستوعبوا، أحدهم هز رأسه قائلاً: لتحدى الحكومة حدود، فرسها عرجاء صحيح لكنها تطول الغزال.

ربما يكمن مصطفى فى مكان مررت به، لكن كم يبلغ عمره الآن؟ يقولون إن العيش فى الخلاء يطيل العمر، أرقب فتحات الكهوف التى أوى إليها المطاريد، لم أفكر قط فى الصعود، أو التمدد داخلها، كانوا مقيمين أيضًا رغم أنهم خارج الإطار، على الحافة، إنما أنا من العابرين، لا أسعى إلى مكوث ولا أنوى بقاء، أتبع ما يشغلنى وأنأى عن كل مألوف، حتى بالحكى والسماع، أبتسم فى سعيى، أستعيد ما قاله أحد معارفى من نجع الهلة، ضابط قديم بالمدفعية، مازال يحتفظ بلهجته الجنوبية، قال له والده: إذا خطفك أحد المطاريد، ابق معهم أحسن ولا ترجع لى، يمكث لحظة ثم يقول: معه حق، معروف العيل اللى بيخطفوه إيه اللى بيتعمل فيه فوق.

أبتسم، أحاورنى، أومئ لى، أسأل وأجيب، أتعرض لى وأستسلم، أتعجب مما قلت وأقتنع، ألمسنى لأنتبه.

أستعيد لحيظات منبتّة عما قبلها وما بعدها، لا أحد غيرى يمكنه ربط مضمونها أو فهمه.

يقف صاحب فى مواجهة الشيخ الطيب بعد انتهاء إفطار رمضانى، فقد ابنته الشابة، أثناء وضعها المولود الأول، جاء إلى الدنيا فى الوقت عينه الذى ذهبت فيه الأم، يقول الشيخ إن المؤمن ينتقل من حال إلى حال، من مقام إلى مقام، إذا أدرك واستوعب ينتقل من الحزن إلى الرضا.

يردد صاحبى المكلوم: سبحان الله.

يميل الشيخ قليلاً تجاهه.

لا، بل يمكن أن يصل إلى حال التلذذ بما جرى، إيمانًا منه بقضاء الله، وامتثالاً لحكمه.

أتلفت حولى، أهذا حالى؟ ما أعرفه أننى مستوعب، حاضن لأمرى، راض بانفرادى وانبتاتى عن كل ما عرفته، كافة ما أمر به الآن ليس إلا تهيئة وإعداداً لشىء لا يمكننى تحديده أو القطع بملامحه، قد أجهله وربما لا أعرفه أبداً، غير أنه ليس بوسعى إلا أن أتبع ما لا أعرف، وأمتثل لما أجهله، كافة ما طالنى يمتّ إلى آخر خرج منى ولم يعد، الحقيقى ما يرد علىّ الآن بالمخيلة، يبدو أن استعدادى قديم، ألم أضبط نفسى مستمتعًا بالحبس الانفرادى زمن اعتقالى، كنت متوثبًا، غضًا، متطلعًا إلى الأمام، أتلفت حولى كثيراً وأطلّ على ما خلفته قليلاً، لم أتم الثانية والعشرين بعد، رغم ذلك أطيل الإمعان، وكلما ابتعدت عمق إقصائى، كأننى فى حاجة إلى الابتعاد حتى أرى أوضح، فى تلك الفترة اتصلت خلوتى بذاتى وطال تأملى فيما كان، لم يكن حبسى الانفرادى أشد ما عرفته من وحدة، بل تلك الشهور التى تجاوزت العام والتى أمضيتها فى سمالوط، مقاطعة المنيا، عندما نقلت قسراً، أقمت منفرداً لأول مرة، ضئيل المورد، شاحب الصحبة، تمر علىّ ملامح شتى، يمثل عندى الوجه، القامة، الطلّة المختلفة من شخص إلى آخر، لا يكتمل الاستدعاء إلا مع ظهور الاسم، فقط أستعيد الحروف فى مجموعها عندئذ تكتمل اللحيظات المندثرة، تتلملم من جديد، يعمر هذا الخواء الجبلى الذى أمضى عبره، ممعنًا نحو الجنوب، صاعداً عكس مسار النهر الأبدى.

لطفى، موظف حسابات، أشقر شعر الرأس والحاجبين، نحيل، طويل، مائل إلى الأمام دائمًا، لا يمثل عندى إلا مرتديًا قميصًا أبيض، قصير الأكمام، عندما علم أن أيامى فى الاستراحة قاربت على الانتهاء، لا مأوى أمضى إليه، ولا نقود كافية لتأجير غرفة لائقة، اقترح علىّ مكانًا فى البيت الذى يسكنه لن يكلفنى أكثر من خمسة وعشرين قرشًا فى الشهر، ربع جنيه لا غير، مرتبى فى هذا الوقت عشر جنيهات ونصف الجنيه، قبل نقلى أسهمت فى ميزانية الأسرة بثمانية جنيهات، لم أقبل انقطاعى، فلأدبر حالى، كان أمرى عسيرًا، أصعب ما فيه الإقامة، لعل المكان أغرب ما أقمت فيه، لم يكن غرفة، إنما الفراغ الذى يمتد تحت درجات السلّم المؤدّى إلى الطابق الأول، حده المالك بجدار من الخشب الصناعى، يتخلله باب، فراغ مثلث السقف هو السلم، على الناحية الأخرى غرفتان ودورة مياه واحدة أستخدمها أيضًا، لطفى يسكن فوق السطح، غرفة ترى الدنيا، بها نافذتان ودورة مياه مستقلة، أطلع عنده لأشم الهواء، قليل الحديث، غامض النظرة يتطلع دائمًا إلى الأمام، طيب، راغب دائمًا فى تقديم العون، لا أغلق الباب علىّ إلا قبل موعد نعاسى بقليل، ما من مجال فى هذا الحيز لممارسة أى نشاط، حتى القراءة صعبة، من وقع أقدام السكان فوقى أصبحت أعرف مواعيد خروجهم وعودتهم، بل عاداتهم، بعض الخطى وقعها أثقل من أخرى، أحيانًا أستيقظ بالليل على نزول أحدهم، إلى أين، لماذا؟ لا أعرف، لكن أغرب ما عرفته، تلك الخطوات الحذرة، الخفيفة، أحد ساكنى الطابق الأول، أسمع خطواته الصاعدة، وخطواتها النازلة، يلتقيان فوق رأسى، يسرى الهمس وإيقاع الأنفاس إلىّ، والكلمات الحذرة التى تنطقها محمومة محذرة من اندفاعاته المجنونة، ثم ذلك الصمت الدافئ، جرى هذا كله فوقى

تمامًا، لطول إصغائى أقدر على التمييز بين الخطوات الراضية أو المطمئنة، أما نزول لطفى الهادئ، المطأطئ دائمًا، فيلزم حضوره عند بزوغ الاسم، لا أرى مصطفى إلا واقفًا عند مرسى المراكب، أعبر إليه النهر، أمضى عنده ليلتى الجمعة والسبت لشدة خوائهما إذا أمضيتهما وحدى، يسكن فى مصنع السجاد، غرفة إقامته تطلّ على مقابر زاوية سلطان، من أعجب تكوينات الحجر التى عاينتها، أنصاف قباب متصلة، متلاحقة، يقتفى بعضها آثار بعض، تتبع تموجات الأرض، صوب الشرق، أطيل التحديق، ثمة ملامح آدمية لا أقدر على الإمساك بها تمامًا مثل تلك الحركة فى الحجر، أشعر بها ولا أراها، مصدرها التكوين، صفوف القباب توحى بتوالى البشر، تعاقبهم، ظهورهم، اختفائهم، بقاء أسمائهم إلى حين، هل يرقد مصطفى فى إحدى هذه القباب الآن؟ لا أدرى، كان يتقدمنى فى العمر بحوالى سبع أو ثمانى سنوات، لكم تبادلنا الحديث، تجولنا فى القرية التى أنشأها سلطان باشا والد هدى شعراوى، كثيرون مررت بهم أو مرّوا بى، لكن هذا المصطفى أول من يرد على ذهنى واقفًا عند شاطئ النيل فى انتظار قدومى، منتظرًا استقرار القارب النيلى حتى يمد يده ليساعدنا على ملامسة البر.

عبدالحميد، أول من قابلته عند وصولى، مدير الجمعية، أنيق، رزين، هادئ الطباع، هدأنى وبث الطمأنينة عندى، أجرى اتصالات لأنزل فى استراحة الرى لمدة أسبوعين حتى يمكننى تدبير إقامة، إذا طرأ اسمه أستدعى نميمة سمعتها عنه، إنه ضعيف فى بيته، عكس ما يبدو فى إدارته، يخشى امرأته جدًا وأنها جميلة لا مثيل لها فى المدينة، لم أرها قط، ذلك الشماس جميل الصوت، لماذا ذهبت إلى الكنيسة؟

ربما لو احتفظت باسمه لأدركت الأسباب، فى ملوى قصر حياة النفوس، توقفت عنده لغرابة تكوينه، وفرادة معماره، تأثيرات هندية وأفريقية وأخرى لا يمكن نسبتها، رغم أن المنشأ من آل سيف النصر، لكن لأسباب لم أعرفها أطلق عليها البعض حياة النفوس فعلق به، تمامًا مثل مسجدى الرفاعى وسيدى أبوحريبة، الأول أنفقت عليه وأمرت ببنائه خوشيار هانم، والدة خديوى مصر، لكن الناس سموه الرفاعى فصار البناء كله إلى هذا الفقير المتصوّف من أهل الله الذى انكشف له الأمر كله عندما أطل من الشبّاك فصار معروفًا به، سيدى أحمد الرفاعى «أبوشباك»، أما سيدى أبوحريبة فكان فقيرًا، لا مقر له، لا بيت ولا ولد، أمضى الوقت كله عند مدخل الحارة المؤدّية إلى صميم الدرب الأحمر، عندما وافته المنية لم يجدوا مأوى له إلا مسجد الأمير قجماس الإسحاقى الذى بناه وشيده وأراد أن يدفن فيه، غير أنه قتل فى حلب، وبقيت المقبرة تحت القبة خالية إلى أن حوت سيدى أحمد أبوحريبة، الفقير، المتجرد إلى الله تعالى، نسى الناس أمر الأمير ونسبوا المسجد إلى الزاهد العابد، حتى إنه صار يذكر فى الوثائق الرسمية والدراسات العلمية، أما اسم الأمير فيوضع بين قوسين كأنه الاستثناء، مثل ذلك كثير، يأتى الاسم بما قبله وبعده ويلغى ما عداه.

هذا البر الذى أمضى عبره، لو أن اسمه غير الجبل الغربى لاختلف الحال، عندما بدأت سعيى، سألت حالى: لماذا قصدت الطريق الغربى رغم أننى لم أعرفه إلا مرة واحدة من قبل، لماذا لم أعبر الطريق القريب من النيل أو شرق النهر؟ لا أجد إجابة محددة أو تفسيرًا معينًا، ربما ليقينى بدنو غروبى، بعد أن قطعت مرحلة، صرت محاذيًا لهرم ميدوم، سماء الخريف دانية، تصير أكثر اقترابًا من الأرض، يؤطرنى الفراغ، أواجه بمفردتى لا نهائية المسعى، كأن أدرك معنى الهرم

لأول مرة، انبثق ذلك من الشكل، ولم يكن إلا استدعاء من الاسم، فلا يمكن مثول الشكل إن بالمخيلة أو الواقع إلا بعد لفظ الاسم، أو استحضاره، إن عمدًا أو بالتداعى، لو أن الهرم له اسم مغاير لصارت هيئة مختلفة، ذلك يقينى، كدت أشهق عندما طالعت هرم ميدوم من قلب ذلك الفراغ، عند الحد، قرب الوادى المزروع، مائل بمفرده، لا قبله ولا بعده، هذا الشعاع الذى تجمّد صخرًا، تذكرت نفاذ أشعة الشمس من فرجات الغيوم، نزولها الهرمى إلى الأرض، صعودها مرة أخرى، هذا ليس معمارًا، إنما معراج من الحجر، ما يُخيّل إلينا أنه ثابت إنما تمثل فيه الحركة عينها، لا هذا ليس بناء محدودًا، إنه مرقب، صعود وارتقاء، كان ممكنًا أن يبدو كصخرة، ما أكثر الجلاميد التى رأيتها منحوتة فى الخلاء بعد تعاقب الرياح والمطر والبرد والحر والظلال والدفء الحرور، لكن هذا التكوين حده الإنسان بالتأمل، والتمكين، كل هرم معراج يفضى إلى ما يليه، فى تواليها على مسافات محسوبة عند خط الغرب مراحل مؤدية إلى الشفق والليل وما وسق، لكم استعدت رؤيتى تلك التى لم تدم إلا لحظة، غير أننى مع كل مرة كأننى أطالعها للتو، كذلك أبيدوس التى تلحّ علىّ كلما قطعت مسافة مبتعدًا منها، يرد علىّ اللفظ فيمثل أمامى معمار ولوحات، وعمال، وكتبة، ودروب مؤدية، وقائمة الملوك المتعاقبين منذ بداية التدوين، وتلك الليلة التى وُضع فيها الأساس لبقاء الحكمة القديمة والمعارف، تفرّق القوم وأيضًا بدء استمراريتهم فيمن يرثهم علمًا أو سيرة، كأنى أقف على أمر هذه الليلة فى كل لحظة تمر بى أو أمر بها، لم يكن ضروريًا بقائى فى أبيدوس لألمّ بما جرى. أحيانًا يمكن أن يدل الاسم رغم إبهامه، لم أعرف موقع تلك الليلة من الأيام، ليلة يليها أحد أو «اثنين» أو أربعاء؟ لكنها مفردة، لا مثيل لها، اكتمل فيها اليقين باختفاء كافة ما

كان بعد تضعضع الأحوال، وتبعثر الحكمة، لهذا جرى البحث عن طريق يضاف إلى طرائق لا حصر لها عرفها عقلاء القوم وخدمة الإله، طريق يكفل بقاء ما توصل إليه الجهد الإنسانى، حتى وإن تبدلت المظاهر واختلفت الدلالات، غير أن الجوهر النائى، الخفى، يظل البث الهادئ حتى يجد من يستوعبه، مجرد معرفتى بخصوصية تلك الليلة يمنحها سائر الخصائص رغم فقدانها للاسم، أكاد أرقب عتمتها المغايرة لما عداها، أوشك على عد نجومها وتعيين مساراتها رغم شسوع المسافة الفاصلة، أدنو من اليقين، إدراكى ملامح كل من الحاضرين، ليس حملة الحكمة الدفينة، والأسرار المبهمة فقط، إنما الذين يقومون بتقديم الطعام والشراب اليسير، وتأمين الليلة من كل مفاجئ، طارئ، فلم يعد الوقت ولا الموضع آمنًا، ولّى ذلك الوقت الذى كان يرحل فيه البصر إلى الأبعاد السحيقة، وتعبر الخواطر حدودًا غير مرئية مؤدّية إلى عوالم موازية، تمضى إلى جوارنا، بل تتخللنا، لكننا لا نراها، ولن يقع لنا شهودها، أوشك على استيعاب ملامح من يعرف أسرار الحروف، ومن يدرك مغزى الأرقام، والملامس لمغزى كافة البدايات والنهايات، والمستوعب لمرئى الاتجاهات كافة أيًا كان الموضع، ومتتبع المعراج إلى الأعلى وإلى الأسفل.

من تلك الليلة خرجت الموسومات التى سعت عبر تغيّر الأزمنة وتقلب الأحوال حتى أدركتنى أطيافه، تلك الليلة حالة نادرة، يستعصى علىّ فحصها أو شرحها، منها بدأ رحيل المعارف عبر أمكنة وأويقات، من خلال لهجات وألسنة وعقائد، أكاد أقف على الترتيب المحكم، أشخاص من المستوعبين، لن يقلوا عن أربعين، سيفضى كل منهم إلى موضع لم يقرره، وأناس لا يعرفهم، سيعلّم كل منهم سبعة، ليس من الضرورى أن يعرف هذا ذاك، أوقن أن سيدى ذا النون

أحدهم، ربما من سلالة الأربعين، لكنه حتمًا من تداعيات السبعة، ليس لأنه ملم بقلم الطير كما تذكر المراجع، لكننى أجزم بما يمنحه لى اسمه، وما ينسب إليه من مسائل، كذلك خالد، وربما أم سيتى التى هجرت أهلها فى إنجلترا ولزمت أبيدوس، لم يعرف الأهالى أنها تتقن اللغة وتقرأ الخط الهيروغليفى، وأنّ أبحاثها مقصودة من عتاة المتخصصين، ما قرأته عنها فى كتابات بعضهم، ما سمعته عن هذا أو ذاك عن حلول روح قديمة حلت فيها فلم أتبعه ولم ألزمه، ربما شامبليون من تداعيات تلك الليلة، ربما هذا الفلاح الأسمر الذى اعتاد أن يلاقينى بترحاب ومودة وفيض منونى كلما قصدته فى المدامود، أو ذلك الأب ممشوق الحضور، هادئ الملامح فى كنيسة نقادة، كلما سعيت إليه، يقول لى:

لا تقس على نفسك، أرى منك ما لا تراه فيك.

أقول إننى لست على يقين من بقاء شىء، ربما بقى شىء، فقط، كنت فى حاجة إلى من يقيم العلاقات ليجلو الغبار عنها، تفرّقت الألفاظ وبدأت تغريبة مضامينها وتراكيبها، كذا حروفها صارت إلى كل وجهة كأفراد شعب لحقت به كارثة كونية تهدد بفنائه إذا ما بقى مجتمعًا، يتفرق أبناؤه ليحتموا بجماعات غريبة عنهم، يحفظون ما لديهم، يضمرون القصد ألا تلحقهم الإبادة حتى وإن تغيّر اللسان.

مع تزايد المسافات لا يدرك كل منهم أنه يردد ما يجب أن يبقى، أنه يأكل ما كان يفضله أجداده بدون أن يعى، هذا ما أقره القوم تلك الليلة التى تعاودنى كلما أمعنت وأوغلت، فى كل خطوة ابتعاد واقتراب، ألفة واغتراب، كل ما يتوالى علىّ أو يصدر عنى من تداعيات تلك الساعات المولية، الألفاظ، مخارج الحروف وكوامنها أيا كانت

متغيراتها واختلاف دلالاتها، الألوان بكل أطيافها، الطعام وصنوفه، طرق رى الزرع وحفر القنوات، معرفة المقاييس، رصد النجوم، الثابت منها والهاوى، والمنفلت، مسارب المياه، واتجاهات التيارات الخفيّة والظاهرة، اتّباع الخطى، مضامين العمارة، توزعى وتفرقى وتلملمى عبر الخطى، تبددى مع التنقل، أبيدوس، قبلها أخميم، جهينة، درنكة، البدارى، النخيلة، شطب، المطيعة، أستعيد إيقاع نطق أبى لأسماء المدن التى يقف عندها قطار الثامنة صباحًا، يحفظ ترتيبها، موعد توقّف القطار، ينطقها متمهّلاً، مغمض العينين حتى إذا لفظ: طهطا، يتوقف، يصل، يهدأ حنينه، كل ما حصّله ما مرّ به، ما عرفته، لو أعرف أن كافة ما عبرته أو اجتهدت لفهمه سينقلب إلى أسماء بعضها باق، وقليلها مبهم، ربما يزيدنى معرفة بأكثر مما أعرفه، لو أعلم أننى ملاق ما لاقيت، أننى أستوعب خلال الاستعادة ما لم أدركه عند الحضور لتغيّرت أطيافى وانثنت حوافى وتنوّعت مواردى، ولفهمت بعضًا من سرّ العصر، أوهن مواقيتى وأرهفها مسًّا لشغافى، وأوعرها حدّة فى النفاذ إلى صميمى.

على حافة

أقف على رصيف، أتأهب لركوب قطار سيبدأ بعد دقائق.

أتطلّع إلى مقدمة طائرة ذات محركات أربعة، معظم الركاب حولى من الصين، يعملون فى الخليج، أحاول الاستيعاب، طيران متصل، بدون توقف لمدة عشر ساعات ونصف الساعة، نقطة التلاقى والاحتكاك واهنة، دقيقة، من خلالها نقطع الفراغ فى الفراغ.

أقف على شاطئ ممهّد، أولى ظهرى لمدينة هادئة، تكاد طرقاتها تخلو من المارة، لا يعنينى من أمرها شيىء، يبدو أننى لم أقض فيها إلا سويعات، مجرد عبور إلى هذا الميناء، سفن هناك عند الأفق، بعضها عند الخط الواصل، الفاصل، بين السيولة واليبوسة، بين الماء والفضاء، قوس الماء فى مواجهة الفراغ، لاأدرى إذا كانت المراكب تمضى مبتعدة أو تقترب، غير أننى أنتظر إحداها.

أقف عند بداية ممر، المطار مجرّد طريق ممهدة، تنتهى عند حافة المحيط، المبنى من طابق واحد، حجرة أو اثنتين لا غير، أنتظر وصول الطائرة التى تجيئ مرة فى الشهر، لو فاتتنى، لو حدث خطأ ما، لابد أن أقضى شهرًا كاملاً، لم أرتّب أمورى لذلك، أنتظر وحيدًا، أتطلّع إلى الأفق.

أخرج من محطة قطار عتيقة، لا أحد ينتظرنى، يبدو أننى أيضًا لا أتوقّع أحدًا، أعبر ميدانًا صغيرًا، محطة حافلات، لافتة تحمل أرقامًا ومواعيد القيام، يجب أن أنتظر هنا، لكننى لا أعرف متى؟ أرض نائية، كل ما يمتّ إليها يجسّد البعد عن العمران، تلك الأسلاك، الحشائش، الحجرات المشيّدة من الجدران المؤقتة، قاعدة للغوّاصات، لم ألمح أى شىء يدلّ على ذلك، أنتظر مرافقى الذى طلب منى البقاء حتى يعود من داخل إحدى هذه الغرف الوحيدة، بعدها نمضى.

رياح، رياح تمرّ من بين أصابعى، حولى، تتخللنى، أتطلع إلى اللا مدى، سأصير إلى هناك بعد قليل طال الأمر أو قصر.

ما بين أبيدوس وحتى بلوغى القرنة، لم أر فى غفواتى إلا انتظارى السابق على الرحيل، لو أننى أقيد لسجلت الأماكن التى أقلعت منها برًا وبحرًا وجوًا وما لا أعلمه، غريب هذا فلم ألمح وصولاً قط، ولا إقلاعًا، إنما تأهّب لا غير، لا أحد عن الغرب، لزمته، شأنى منذ بدء السلوك، عندما وصلت الساحة الجديدة، بديل القديمة، طالعنى وهن العصر، إنه الوقت الذى يضعضعنى، يطال منى ما استعصى بلوغه على رياح الخلاء وسفى الرمال، وحوش الصحراء ودوابها، كذا توالى الخيالات المهدمة، بعض ما يتكشف لى كأنه يلوح أول مرة رغم استيعابى له من قبل، أبدى الدهشة منفردًا فلمن أظهرها ولمن أستهدف إبلاغ البيان؟

لم يعد الوقت يعنى بالنسبة لى شيئًا، لا الفروق ولا العلامات، غير أن وقوفى على عتبة الساحة جرى فى نهاية شتاء أو بدايته، هواء لطيف، خفيف، لا حر ولا برد، إنما يميل ليلاً إلى انخفاض فأتلملم على نفسى، ألتمس الدفء لأطرافى من أطرافى، أغطى بعضى

ببعضى، فى مصر يجيء الربيع بالرمال الناعمة التى تعلق أحيانًا ليوم أو يومين، تبدو الصحراء وكأنها امتدت إلى أعلى، مرة أمضيت أيامًا فى الإسكندرية، أقمت حيث يمكننى رؤية الميناء الشرقى، بيوته العتيقة متساوية الارتفاع، هنا يتحدد قوس الماء والحجر، منه أقلع إلى كثير، إلى جهات شتى لم أبلغها، حيّرنى دائمًا تعلّقى به، تفضيلى له على سائر النقاط التى طالعت فيها الأمواج من كل يابسة بلغتها، من الصين، إلى القارة الأمريكية، من بحر إيجه إلى خليج المكسيك، تعددت البحار والأنهار والماء واحد، هل تعلقت بزرقة الماء العميقة، أم وقوف البيوت النادر، ذلك الوقوف ذو الملمح الإنسانى، كم من الأوقات أمضيتها متطلّعًا إلى الكنه ولم أوفق، هنا على مشارف القرنة أكاد أتعلق بالسبب، إنه انتظار مراكب الصيد، وقوفها القلق، أتابع حركة المويجات، وقوف ما بين البر والبحر، انتظار التأهب أو الوقوف ما بين.

يبدو أنه مقامى المتغير دائمًا، أن أكون بين محطتين، بين بدء وانتهاء، لذلك أميل إلى كل موشك، وأنزع إلى كل متأهب، وأحن على كل ذى شروع، وأتضامن مع كل منتظر، خلال أسفارى تحسّبت كثيرًا للحيظات انتقالى من نقاط الوصول إلى مقار الإقامة، لكم أثارت فضولى تلك الغرف التى سأنزلها أول مرة، الأماكن التى سأعبرها ولن أمكث فيها، الأسرّة التى سأتمدد فوقها، الآن أفهم مما مضى منى ويتكشف لى ما لم أدركه فى عين مرور الوقت.

أشرفت على مدخل الساحة، المبنى جديد، يفيض ضوءًا، سقف على عمد خرسانية فى مواجهة المسجد، أماكن لإيواء القادمين، الفراغ فسيح، أفضل الساحة القديمة، مساحتها أقل، لكن للعتاقة إقامة، ربما

لقربها من الدير البحرى، منذ عقود ثمة جهود لنقل الأهالى المقيمين، المجاورين مراقد الأبدية، فى الأمر صعوبة، لكن بداية تذليلها انتقال الشيخ وآله، أول من تحركوا، بقاء الآخرين فيه حرج ومخالفة بينة، يوشك الأمر أن يتم.

لم أعبر العتبة انتظارًا وتأدبًا، عندما ظهر ماهر كدت أقبل عليه، أعرفه منذ طفولته، أحد خدام الساحة، أحجمت عندما لم تلح منه بادرة أنه يعرفنى، ياه، إلى هذا الحد تبدلت، لم يلمح منى ما يدل علىّ، مع أنه تلقانى ودعانى مرارًا، وتقدمنى إلى لقاء الشيخ، يتطلع إلى بلا تعابير بادية، هو من اعتاد استقبال أرباب الأحوال، المريدين، المجاذيب، من ضلوا ومن جاءوا عبر الصحراء سعيًا إلى بلوغ مكة على قدمين، ومن تركوا الإلف والمألوف وقصدوا البرية لأسباب شتى.

قلت إننى قاصد رؤية الشيخ والإصغاء إلى نصحه، جئته من بعيد، يمكننى الانتظار عند عتبات الباب، إذا كان فى ذلك مصدر إزعاج سأبقى فى الخلاء إلى أن تحين اللحظة، هز رأسه نفيًا، بسط يده علامة الترحيب والدعوة، مضيت على استحياء خائفًا أترقب، غير أنه شجعنى بتكراره «تفضل»، أشار إلى دكة تحت المظلة الخرسانية، اعتدت المكوث إليها، يسألنى عما إذا كنت راغبًا فى دخول الحمام، أتطلع إليه، يتقدمنى، أحرص على ألا أحدث ضجة، حتى رذاذ الماء أتلقاه على جسدى، لا أدعه يفلت إلى الأرض تحاشيًا لأى إزعاج، منذ حقبة مضيت إلى وادى النطرون، كنت فى جمع للزيارة تضامنًا مع البابا، استقبلنا راهب يرتدى السواد، الأروقة والقلايات والمبانى تسكنها الأبدية، قال الراهب إن العادة جرت على استقبال الزوار والقاصدين بدعوتهم، الترحيب أيا كان الهدف، بث الطمأنينة عندهم، نفض الغبار عن ملابسهم، غسل أقدامهم بالماء والملح، عبور

الصحراء ليس بالهين، بالطبع لم يجد هذا لنا، جئنا فى حافلة مريحة، وثيرة المقاعد، مكيفة الهواء، ما بقى عندى ليس اجتماعنا بالبابا، حوارنا معه، تناولنا الغداء على مائدته، التقاط صور تذكارية معه، التجول خارج الدير، الأراضى التى استصلحها الرهبان، فضولى عند التطلع إلى قلايات الخلوة، إنما ملامح ذلك الراهب الذى تقدمنى ليطلعنى على المخطوطات وأماكن الراحة، والأيقونات المتوارثة منذ عصور بعيدة، قسماته، نطقه للألفاظ، إشارات يده، هدوءه الرقراق، هذا ما يمثل عندى، تردد على عندما دعانى ماهر إلى تناول الطعام، مضيت على مهل، لمحت الطبق والرغيف الشمسى، كوب الماء، يستوى المذاق عندى، خلال سعيى لم تعد تثيرنى رائحة شهية أو مذاق فضلته يومًا، فقط ما يسد الرمق، ما يجنبنى الإعياء والدوار، لذلك جرى نحولى وتبدلت ملامحى، بذل ماهر العناية الواجبة كما يجب أن تؤدى، غير أنه لم يتعرف على رغم تبديلى أوضاعى مرات، لم يخطر له أن يسألنى حتى عما إذا كنت أمت إلى بصلة قرابة أو معرفة، لم يدله وجودى على ما كان منى، صرت أحدق إليه أو أستحثه بالنظر غير أننى لم أتلق أية إشارة، كأننى أتطلع إلى مرآة ولا أرانى، لا يقع بصرى علىّ رغم مثولى!

صباح اليوم الثالث لم تلح إشارة لموعدى مع الشيخ، بل إننى لم أعد واثقًا من إقامته أو غيابه، عمله فى القاهرة، كل أسبوعين أو ثلاثة يجيئ الخميس ليقيم بين أسرته ويلتقى مريديه، ثم يغادر عائدًا صباح الأحد، حجبت فضولى ولم أستفسر، إنما عرضت الخدمة، لم يقل ماهر نعم أو لا، خيل إلى أنه ينتظر شيئًا ما يخصنى، إنه لم يقطع، ، صرت أشارك فى تنظيم المسجد والساحة، غسل الأطباق التى يأكل فيها الضيوف، ألم المفارش، أنفض تحتها، أبسطها من جديد، إلى

متى؟ لا أدرى، يمكن اعتبار انتظارى هذا أشق ما عرفته رغم نأى مخاطر الجبل والخلاء بما يحفل به وكمائن الشك والريبة، بقدر اطمئنانى ورسو أمرى بقدر ما تقلقلت، خاصة بعد أن أبلغت بعلم الشيخ لوصولى، أخفيت اسمى عن ماهر، هذا صحيح، غير أننى على ثقة من لقائه بالقادمين عبر الجبل أو الخلاء، لم أدر ما أفعل، ما يمكننى الإقدام عليه، ظننت أننى ملاقيه، أبثه أمرى وتتمدد وجهتى سعيًا إلى العلوم والمعارف السارية من وقت آخر، فى الليل، عندما أتمدد بجوار الجدار، أوشك على وصل عناصرى الأولى المتجمعة، الملتقية عندى، كلها ستتفرق بعد تمام وقتى وانغلاق مدتى، يكفينى الإغماض لأطلع على ما أرغب، أشهر بسائر أعضائى وكافة مصادرى ومواضع بثى، يواتينى شك فى لقاءاتى بكل ما عرفتهم، حتى الشيخ، ليس حضوره عندى إلا بالاسم، ليس إلا واحد منها، كلها تستوى، من عرفته مباشرة بالحواس المعاينة ومن سمعت به، أو لاح فى وعيى، بل من استدعيته من اللاأين بلا مرجعية على الإطلاق.

صباح اليوم السابع، جاءنى ماهر برسالة، قال إن موضع إقامتى ورحيلى أيضًا مشرف على الدير البحرى، نقطة قصية العلو، منها يمكننى رؤية الوادى كله، لا قلق ولا خشية، ما أحتاج إليه سيصلنى مع أحد خدام الساحة، لكل أمر تصريف.

تقدمنى متمهلاً، صاعدًا إلى الحافة التى سألزمها، صخرة ناتئة معلقة، مشرفة على فراغ، مطلة على هوْ، المدق المؤدى إليها لا يتسع إلا لشخص واحد فقط، عليها أتمدد وأرقب وأسعى وأقنت وأبلغ الجهات الأصلية والفرعية، لمحت ذروة الصرح الأكبر بمعبد الكرنك على الضفة الأخرى، وخيل إلى أن مكانى على خط مستقيم مؤد إليه.

مضيت هادئًا، لا دهشة ولا روَع، صرت متوقعًا بلوغ سائر ما ظننت استحالة الوصول إليه، لم أعد أتعجب، هذا ما اختاره الشيخ لى، لا عهد يلزمنى أو ميثاق، يمكننى استئناف السعى، الإمعان فى المضى إلى بعيد، لكننى لا أشرع حتى فى التفكير، رغم يقينى بانتفاء اللقاء، أننى لن أراه، لن أصغى إليه مباشرة، لن يشخص عندى إلا باسمه، أتلقى عنه بدون رسائل صامتة أو منطوقة، بل صرت جاهزًا لتلبية ما لا أعرفه، أو ما لا يتضح لى كنهه، يكفى الإشارة بقدوم الخاطر أو الفكرة من عنده، صار حالى يشبه ما عرفه مولانا جلال الدين، عندما قصد قومًا من الروم لا يعرفون لغته، لا يفهمون من فارسيته جملة، هو أيضًا لا يعرف من نطقهم حرفًا، رغم ذلك عند وصوله يحيطون به، يتطلعون إليه وفى عيونهم تأثر يعقبه دمع، مع استمرار حديثه يصدر عنهم نشيج، هو يعرف أنهم لا يفهمون ما يقول، وهم يتأثرون إلى حد البكاء بما ينطقه على مسمع منهم.

كثيرًا ما استعصى على استيعاب ذلك، إلى أن صرت إلى محل أصعب، إذ أنقطع بمن سائر من عرفت، خاصة الشيخ الذى رسوت عنه، الآن له زمنه، ولى زمنى، أثق أننى لن أبصره، لن أحاوره، أوقن أيضًا أن البث والتلقى قائمان، فأية حال وإلام المصير؟

الساحة

إذن.. الشيخ الطيّب، وكل من انتميت إليهم، وكافة من علمونى وأسدوا إلى الجميل، ليسوا إلا أسماء بوارق، بعضها يمرق كأنى لم أعرف أصوله، وآخر يمكث قليلاً وسرعان ما يذوى، تتجاور العلامات، سيدى ذى النون، الباب الأخضر، أم الغلام، عنبر، شاطئ المحيط، أصوات الحيتان، النائحات فى مقبرة راموزا، المقياس، الجسور الصغيرة، النواصى، كل ما جئت منه، ما ظننت أنه لن يبيد أبدًا، مجرد أسماء، إشارات، سعيى كله ليس إلا علامات ربما تستعصى على التفسير يومًا فكأنها لم تكن.

عندما أويت إلى تلك الصخرة، حاولت استدعاء حال شبيهة، أو تتضمن بعضًا من ملامح، لم أجد إلا فترة حبسى القسرى، الانفرادى، أربعون لم أخاطب فيها صاحبًا أو من أعرف، فقط المخبر الذى يقودنى إلى دورة المياه، أو الحارس الذى يعصب عينى لدفعى إلى التحقيق، فى الأويقات الطويلة دربت نفسى على الاستدعاء، مراحل سفر، صفحات كتاب قرأته، بل إننى خصصت لكل يوم مؤلفًا، أقلب صفحاته عبر الذاكرة، أحاول تجسيد لحظات نشوة مررت بها، لم أجد إلا هذه الفترة كباعث للمقارنة، غير أننى تبينت خطأى، عندما دخلت الحبس كنت فى المستهل، وقتى قادم ورصيده لم ينفد بعد، ما

استحضره من أسماء وعلامات أنتظر تجسده، الآن كل ما يلوح إشارات إلى ما انقضى، إلى ما لن يرجع أبدًا، هذا فرق غير هين، بل إنه نقيض النقيض.

فى مستهل ليلتى الأولى، أطل فضولى العتيق: كيف سأعتاد ظلام الجبل، كيف أتقى وحوشه وهوامه؟، غير أننى تدثرت بنفسى، انطويت على حالى، فلم يمسسنى خوف، ولم تسر عندى رجفة، أمرى مع العتمة قديم، العلامة الكبرى عندما أمضيت ليلة كاملة داخل الهرم الأكبر.

أصبحت سمعًا كلى، لم أخش أى طارئ، ربما أقلقنى دبيب غامض أدركت أنه لجرذان، غير أنها لم تقترب منى، لم تحاول تسلق جدران التابوت، خطر لى هذا عندما خشيت لدغة العقرب، دائمًا عندما أجيئ إلى القرنة وأنزل بالبيت الذى اعتدته لا أخشى الزواحف، الحيات والعقارب، أخبرنى الأهالى أن الثعبان يمضى فى حاله إلا إذا هوجم عدا «الطريشة» التى تكمن ثم تقفز فى الفراغ متجهة إلى الهدف لتلدغ وتفرغ شحنتها القاتلة، إذا لم يبتر العضو المصاب على الفور، أو يحاصر بالربط المحكم. أرجو إذا وقع المحظور أن تكون اللدغة فى الأطراف، ليس العنق، أو الصدر أو البطن، يأخذنى مرح داخلى، ماذا لو القضيب أو الخصيتين؟

هنا لا يطرأ علىّ ذلك، حتى هواجس قبل النوم لم تلح، ربما لأن الليالى التى تعاقبت علىّ فى السعى لم تكن أفضل، خاصة فى الجبل الغربى، الذى تكومت فيه على حالى، غيرمزود بأى سلاح أو آلة لصد الوحوش أو الهوام، ما شغلنى، كيف سأرى أول شروق علىّ، خلال

الساعات الأولى بدأت أتقن التواؤم مع المكان، تبدو النجوم أكثر مما رأيت فى أى خلاء مررت به، عند الشواطئ النائية عن كل عمران، أو عمق الصحارى، كل شىء على مرأى منى، بعيد جداً عنى، قصى، عجبت من إدراك الشيخ لجوهر حالى، إنه عين ما أمر به منذ زمن ليس بالهين، كل ما يمت إلىّ بدءاً من ذوى الرحم وحتى الملامح العابرة فى محطات الانتقال موجود وغير موجود، أدركه بالحواس، وأعاينه بالبصر، غير أننى لا أتعلق به.

منذ حوالى نصف قرن عبرت الجبل من وادى الملوك إلى قرية الفنانين، دير المدينة، رحلتى المدرسية التى تركت عندى علامة، كنت عضوا فى فريق الكشافة، توّاقًا إلى رؤية ما أقرأ أو أسمع عنه، جئنا مشيًا من مصر، أى إننى قطعت المسافة مرتين مشيًا، فى الأولى جئت من الشرق حينًا وإلى الغرب حينًا، كنت فى صحبة، مرة نركب عربة نقل، أو قطاراً، أو قاربًا ينقل الغلال والفخار، فى المرة الثانية مشيت مفرداً، مبتوتًا، فى الأولى الطريق كله أمامى، وفى الثانية ورائى، بدأ التزامى بالساحة وإن لم أدرك ذلك فى حينه، تقع عند بداية الطريق المؤدية إلى الدير البحرى، تضم مسجداً ومضيفة لإقامة الدراويش والعابرين والقادمين لتلمس البركة وحل المعضلات المستعصية، ومنازعاتهم التى لن يحسمها إلا الشيخ.

الساحة.

عندما أصغيت إلى اللفظ أول مرة صار له عندى ترجيع، الساحة، الساحة، على امتداد أيامى، أستدعى الحروف، أنطقها بمفردى، مرة بصوت مسموع، ومرة إلى داخلى، لا يصغى إلىّ إلاى، الساحة أى البسط، اللاحد، حتى إن وجد الحد، اجتماع من لا يعرف بمن يعلم، تماس الغريب بالغريب، مأوى المكلوم، مقصد المضام.

الساحة، الساحة.

لا أول ولا آخر، حتى لو تحدد مدخل معلوم، رغم وجود الحد فلا محدود، لا محل لاختصاص أو توصيف، يمكن لأى إنسان أن ينزلها، أن يأخذ حقّه فى الضيافة، جرى ذلك ومازال، حتى مع نزول المحن وسريان الفتن، وحلول العسكر، التشديد على كل عابر، لم ينقطع الترتيب القديم، للقوم فراسة وقدرة على التمكين تتجاوز أى وثيقة مكتوبة أو أوراق يحملها شخص ما.

الساحة.

كم بلغتها، بمجرد لواحى تحيطنى الحفاوة، حتى فى غيبة الشيخ، يجلسنى شقيقه الأكبر إلى جواره، بالتحديد إلى يمينه وهذا عين الحفاوة، أصغى إلى تراتبية المشاكل، إلى بوح القوم.

امرأة متقدمة فى العمر، فى ملامحها قبس من جمال قديم، ترفع أصبعها، تشكو زوجها الذى طلقها بعد أن أنجبا سبعة وصار لهما أحفاد من ذكور وإناث، تردد باكية:

الأذى شديد، الأذى شديد.

الاسم يشمل الأماكن المغلقة، الغرف التى لا يدخلها إلا الشيخ وصحبه، الكافة فى الساحة، الحروف أقوى من تضاريس المكان، بعد الصلاة تبدأ الحضرة، الأشعار تتلى، تبدأ متدرجة، تتصاعد، تتنغم الأصوات حتى تبلغ الحد الذى تتصاعد عنده الشهقات، تنبثق المواجيد، يتخللها سقوط مختصر.

كم مرة جئت؟

لا أدرى، إنما أعى سعيى، قعودى بين القوم، قبل صلاة الجمعة وبعدها.

الشيخ الطيب الآن مجرد اسم، مثل ذى النون، أوزير، أوسيتى، ميريت آمون، بعد أن فارقنى ماهر صرت إلى انفراد أتم، لا أحد يسعى حولى، ولا يمر بى إنسان، كما أننى لا أتوقع أحدًا، صرت إلى هوْ، الغريب أننى لم أحزن، لم يدركنى خوف، بل صرت إلى توثب وتأهب، الجهات التى يمكننى بلوغها عديدة، فقط، ما على إلا استدعاء الاسم، تصورت فى البداية أننى فى مقاربة مع ما مررت به بعد ظهر الجمعة، بعد الصلاة يبدأ الذكر، عندما تواجدت أول مرة بدا لى عجيبًا، خاصة تدرجه، المفتتح المتمهل البطىء، تصاعد الحركة تدريجيًا، توحد الأصوات، تنغمها، بلوغها الحد الذى تتصاعد عنده الشهقات، أقعد بين القوم، قبل الصلاة وبعدها، لم أعرف واحدًا منهم، لا أرى الوجوه التى تطالعنى فى التوقيت المعاين، إنما كافة الملامح المولية، تلك التى لم أطالعها فى الوقت المختص بها، وتلك المتوارية بعيدًا فى الزمن، وأخرى عرفتها فى مسارى وافترق أصحابها عنى، يدركنى لب المواجيد والأشواق التى طافت بمن أجهل، يوشك كثيرون على التجسد أمامى، حتى لأرى أوضاع جلوسهم، وسعيهم، اقترابهم وابتعادهم، وما يصاحب حديثهم من إشارات أو تعبيرات، حتى عند اضطجاعهم وتسديد أبصارهم إلى ما لا يمكن إدراكه، دائمًا أرى الساحة، تخطر لى فى لمحة أثناء زحام أو سفر فأطوف بها وأنتشى وأرمح كأنها برية، أجريت المقارنة عندما نزلت الخرطوم وعبرت النيل إلى أم درمان حيث ساحة ود حمد النيل، أديت فى مسجده الصلاة، بعدهاخرجت إلى الحلقات، تلك للمصارعة، وتلك للذكر، وأخرى يشهر فيها قوم سيوفًا خشبية لمحاربة جند غير مرئيين، أخرى يفعل فى

يراها كل مخلوق ما بدا له، أمضيت وقتًا غير قليل فى ساحة الفنا مراكش، عندما بلغتها أول مرة عام تسعة وسبعين، احتوانى الاسم وشغلنى قبل أن أطأها بقدمى، كما فهمت واستوعبت فالساحة للفناء، والفناء أمر جلل، بلوغه يعنى التحقق الكامل، فلكل موجود نقطة يفنى منها وعنها، يتلاشى، يندثر، أتوقف عند أسماء الأماكن الموحية، فى القاهرة القديمة قرب القلعة طريق تؤدى إلى المقابر، اسمها سكة الوداع، عندما قرأت اللافتة توقفت مبهورًا كأننى وقعت على اكتشاف، للأسف لن أعرف من أطلق التسمية، لن ألم به غير أن قبسًا منه يطالنى بشكل ما، خارج غرناطة جسر يمكن من فوقه الإحاطة بالمدينة من خلال النظر، هنا وقف محمد الصغير آخر حكام الأندلس ليطلق زفرة حرى، القوم أطلقوا عليه التنهيدة الأخيرة، غرب نجع حمادى أوغلت فى صحراء هوْ مرتين، الأولى برفقة رجال استطلاع زمن الحرب، بلغت معهم جبال البحر الأحمر، خاصة جبل الجلالة الذى تسمع عند سفحه فرقعة ودمدمة تحت الأرض، مركز للزلزلة، حارة صغيرة منزوية فى الباطنية اعتدت المرور بها لأننى معجب باسمها، بين «النهدين» ، أتمهل عند عبورها ويمثل عندى شبقا خفيا، غامضا، فى باريس أويت زمنًا إلى مقهى يطل على ميدان صغير يؤدى إلى مدخل جامعة السوربون الموحى بطقوس دينية ما، تمامًا كما هو الحال فى إكسفورد، تقارب مبانى العلم صروح الديانة، القداسة لكليهما، عندما أخبرنى صاحب لى أن اسمها ساحة السوربون قمت لأمشى فيها كأننى أخطو لأول مرة، يحيلنى الاسم إلى ساحة آل الطيب.

عرفت الشيخ بعد زيارة الشيخ الأجل على شودكيفتش، نزيل فرنسا، تعرف على ما خلفه الشيخ الأكبر محيى الدين ولزم سيرته كما أوقف جل

جهده على دراسته والتعريف به فى بلاد تجهله، بعد معايشة صار من أكابر العارفين، الملمين، الداعين لتلويحاته وإشاراته المبثوثة فى كتاباته، خاصة الفتوحات التى أشبهها بالمجرة، تعرفى إليه يطول شرحه، عندما جاء مصر لزمته، صرنا إلى رباط وقرب، طلب منى زيارة اثنين من القوم، الأول راحل لكنه مقيم، والثانى مقيم لكنه راحل.

تطلعت إليه مستفسراً بالنظر فقال:

سيدنا ذى النون الأخميمى.

الشيخ أحمد الطيب الحسانى.

أطرقت، شق على التصريح بأننى أجهل مرقد ذى النون، بل أقول ما هو أكثر، لم أكن أعرف أنه دفين القاهرة، ظننته فى أخميم، بدأت أتقصى، أقلب المراجع، كتب الخطط والمراقد والمزارات، الأول فى قرافة سيدى عقبة قرب مرقد الإمام الليث والإمام الشافعى، كذلك أبى وأمى وجمع من أقاربى، الآخر غرب النهر فى بر الجيزة، الأول مرجع أكثر، حتى أبدو أمام الرجل أننى جاهل بمدينة معروف تعلقى بدروبها وأسرارها. مضيت بمفردى، لم أستفسر إلا مرة واحدة، والعجيب أن من سألته لم يدلنى تفصيلاً، كان رجلاً نحيلاً، غامق السمرة، يجلس بجوار زير ماء عند مدخل سيدى الليث، قال مرة واحدة مجيبًا:

«وجه نفسك...».

مضيت متئدًا، متمهلاً، يتردد عندى اسم ذى النون، مستدعيًا بيوت أخميم وسعف النخيل وأنوال النسيج العتيقة ومرور الوقت الذى لا يمكن رؤيته، لم يلح لى ذى النون إلا على هيئة قوام إنسانى معلق

بين السماء والأرض، لكنه أقرب إلى اليابسة، كان يتقدمنى، لا يلتفت إلىّ، لكننى واثق أنه مدركى ولو تعثرت، لو أبطأت، لو بدلت إيقاعى فسيلتفت صوبى، يتصل ما بينى وبينه طالما أستعيد، أردد اسمه بدون نطق، عند ناصية تؤدى إلى ما يشبه مربعًا مفتوحًا من جهة واحدة يتخلله شاهدان، يؤدى إلى مسجد حديث البناء، بمجرد وقوع بصرى عليه خف حالى وأدركنى ما يشبه السرور، فرح ينتمى إلى زمن صباى.

يبدى الشيخ على شودكيفتش امتعاضًا لم يجتهد فى إخفائه، قلت إن تاجر أقمشة من الموسكى تعلق بسيدى ذى النون، نذر على نفسه أن يبنى مسجدًا على القبر الذى يتقدمه عامود رخامى أسود، تحيط به كتابة بالخط الكوفى، العامود أقوى دليل على الزمن البعيد، يبدو أنه أهمل كأثر، لذلك لم يجد التاجر عناءً فى قضاء حاجاته مع الإدارات المختصة، شيد هذا البناء الحديث الذى تتخلله نوافذ مؤطرة بالألومنيوم ومصابيح نيون، قرب الضريح القديم وعلى مسافة دانية من العامود الأسود العتيق حفر التاجر لنفسه قبرًا، دفن نفسه عند قدمى ذى النون هكذا دون كتابة، على مقربة مرقدان مما يطلق عليهما شاهد الرؤيا، الأول لسيدنا محمد بن جعفر الصادق، الآخر لرابعة العدوية، كلاهما لم يدخل مصر، مجرد وجود لافتة تحمل اسم كل منهما يعنى حضورهما هنا، ليس بالنسبة لهما فقط، إنما لكل من أقيم له مشهد أو ضريح لا يضم رفاته أو ما تبقى من جثمانه، المهم الاسم، يتساءل البعض عما إذا كان رأس الحسين موجودًا فى المشهد القاهرى أم أنه خلو منه؟، لن أذكر هنا شراء الخلفاء الفاطميين لما قالوا إنه بقايا الرأس الشريف، ونقله من عسقلان إلى مصر، وما أثبته حسن عبدالوهاب ـ العلامة المشهود له فى الآثار الإسلامية ـ من ذكره لمعاينته التابوت

الحسينى فى منتصف الأربعينيات وأنه اطلع على رأس ملفوف فى قماش أخضر وتنبعث منه رائحة ذكية أشبه بالعنبر، لا يعنينى من تلك الأدلة إلا ارتباط المشهد باسم مولانا، أقول وقد عاينت الضريح الكربلائى فلم يخدش منى أوتاراً بالقدر الذى جرى لى مع المشهد القاهرى، كل ما فكرت فيه هناك عند وقوفى أمام الرخام الثمين الذى يتخلله اللون الأحمر الموحى بالدماء الذكية، المستثير لذكرى الاستشهاد أن هذا الموضع آخر ما رأى الحبيب الحسين، آخر ما انطبع فى حدقتيه.

لا يعنينى وجود الرفات، لا يستأثرنى العثور على بقايا، المهم اقتران الاسم بالمكان والزمان، من قوته تكتسب العناصر قوتها، حضورها، مصداقيتها، وهذا مما يطول الحديث فيه، وحتى لا أتطرق إلى دقائق ورقائق لم يحن الوقت بعد للإفصاح عنها أحيد إلى ما ذكره لى الشيخ أحمد الطيب عندما شرح لى دلالة مشاهد الرؤيا، إنها أضرحة رمزية للأولياء، للصالحين، يقيمها البعض بحد رؤيتهم المنامات وتلقيهم الأوامر من الرسول الكريم أو صحبه بإقامة ضريح هنا أو هناك، هذا ما يفسر وجود مزارات لبعض من آل بيته لم يدخلوا مصر قط، مثل السيدة فاطمة ابنته، والسيدة رقية حفيدته، والسيدة سكينة.

هل يرقد ذى النون هنا أم لا؟

لا يمكننى القطع، ثم ما أهمية ذلك؟

المهم أننا نقصد موضعاً محدداً على أساس الاسم، المكان متعلق به أو العكس، الأضرحة الرمزية أمرها قديم فى تلك الديار، ألم يكن للمتوفى مرقدان، الأول يضم جثمان الخارج إلى النهار إلى الابدية؟، الآخر فى أبيدوس أطهر الأماكن، تفصل بينهما مسافة تطول أو تقصر، لا فرق.

منذ وقوفى أول مرة على مرقد ذى النون أتردد عليه لقراءة الفاتحة ولاجتياز تلك الهزة النادرة التى تعترينى كلما مثلت أمام موضع يرتبط باسم كريم، أنا اللاحق، الموقن!

يفيض اسمه ويدل على الناحية كلها، لا أمر بالطريق السريعة القريبة إلا ويبدو لى، ليس بالملامح المحددة، إنما بالحضور المحير، مرة أراها من الخلف، يولى ظهره ساعياً، ممسكاً بعصا، مثبت إلى أعلاها كيساً به حاجات لا أعلمها، يمشى، دائماً يمشى، حتى وإن بدا مقبلاً على، متجهاً إلى حيث موضع كمونى فى الزمن المغاير لزمنه، مرة أراه بعينى طائر، من أعلى، قريب، بعيد، بين أطلال مبان، بين بيوت عامرة تحيطها جداول وأشجار، يقطع قفراً قاسياً لا أثر فيه لماء أو نبات، لكنه فى كافة الأحوال يرتدى لباساً رمادياً أقرب إلى الجلباب، يحيط خصره ما يشبه الحبل المجدول، عمامة متوسطة الحجم، رمادية أيضاً، بشرته غامقة، سواد فاتح إن جاز الوصف، بين بين، ليس سواد الزنوجة العميق، المبهر خاصة مع تورد الوجنتين بظلال الدم الأحمر السارى فى الشعيرات، فى الأوردة والشرايين، من المتبقى، الماثل عندى، بنية جنوبية، فارعة، أبنوسية الطلع، رأيتها للحيظة فى سوق أم درمان عند عبورى إلى ساحة ود حمد النيل الولى الصالح، صدرها يفط متوثباً، مثيراً الضجيج بقدر ما يهدر فيه من حيوية ودفق، وثابة، تواقة إلى أعلى، شفتاها مفتتح، جدائل شعرها النحيلة المضفورة، عيناها مصوبتان إلى سائر الخلق، تستوعب كل ما تقع عليه، لم أرها إلا بمقدار تجاوزها لى، أو تجاوزى لها، تجاورنا فى الحيز بالقدر الذى استغرقه خطو كل منا فى اتجاه مضاد، غير أننى دائم الاستعادة لها فى لحظات شتى، أحياناً تمر إلى جوارى تماماً كما جرى ذلك العصر، لا مقدمات ولا بواعث محرضة، تبدو إذا ذكر السودان فى خبر أو حوار،

إذا سمعت اسم القارة التى أعيش عند أقصى حدها الشمالى الشرقى، صارت تلك البنية صنواً للقارة وللنوع ولفوات الفرصة وقمع الرغبة وفقدان التوق.

حال مماثل يدركنى إذا ما دنوت من أخميم، على الفور أبصر ذا النون، كأنه لم يفارقها قط، مع أنه فى مصر، لكنه عندى مقترن بأخميم، ربما لأنه لا يذكر فى أية مناسبة أو مرجع إلا ويقترن اسمه بهذا المكان، أما أمرى مع الشيخ الطيب مختلف، إذ حاورته وجهًا لوجه وفاوضته وسمعت منه وأخذت عنه ونصحنى وامتثلت له رغم تواضعه الجم وتصغيره لشأنه معى ومع سائر الخلق.

بدأ وصلى به عندما قصدت القرنة برفقة الشيخ على شودكيفتش، عندما قلت إننى جئت إلى الساحة أول مرة سنة ستين وكنت فى الخامسة عشرة برفقة صحبى من فريق الكشافة، ردد: سبحان الله سبحان الله.

فيما ذلك تعمقت بنا المودة، التقينا فى القاهرة ومدن مصرية أخرى رافقته إلى مراكش، أمضينا معًا سبعة وعشرين يومًا، لم نؤد الفروض إلا فى المساجد الضامة، الحاوية للسبعة رجال، القاضى عياض، وأبوالقاسم عبدالرحمن السهيلى، ويوسف بن على الصنهاجى، وعبدالله بن عجال الغزوانى، وعبدالعزيز بن عبدالحق التابع ومحمد بن سليمان الجزولى، وسيدى أبوالعباس السبتى الذى تعلقت به وجرت لى مع صحبه أمور وتذاوب وتشاجن ومقاربات وتذارف دمع، كانت لى معهم أيام وبسائط، آمل أن أذكر كلاً فى حينه.

فى مراكش لم أركع إلا خلف الشيخ الطيب، حتى فى صلاة الجمعة والجماعة، عندما ننتظم فى الصفوف وراء إمام المسجد فإننى

أحرص على الوقوف وراءه، منزلتى منه التابع وهو عندى الإمام، المتبوع، رغم تعدد الأماكن التى التقينا فيها إلا أنه مرتبط عندى بالقرنة، بالبر الغربى، بالحد بين الأخضر والأصفر، بين الزمن العتيق والسارى، فيها اعتدت المكث على مقربة منه، صرت إلى الغرب.

قبل اتصال المودة اعتدت الإقامة فى البر الشرقى، ما بين معبدى الأقصر والكرنك، نهارًا أجوس مراقد الأبدية فى الغرب وليلاً أعبر لقضاء الليل فى الشرق، إلى أن دلنى الشيخ على إمكانية إقامة فريدة قرب الساحة، هكذا نزلت البيت الذى أطلق عليه صاحبه تجاوزًا «فندق»، من طوب لبن، من طابقين، مماثل للدار التى وفدت فى إحدى غرفها إلى الدنيا، هنا أوجد فى جهينة ولا أوجد، ثمة تشابه فى العناصر، غير أنى فى مسقط رأسى لا أنفرد بذاتى لمجاملات الأهل وكرمهم وإصرارهم على الحوطة.

البيت مقام فوق آخر الحد الغربى من أرض شيد فوقها معبد أمنحتب الثالث، من نافذة غرفتى العلوية أرى تمثاليه العملاقين، أستيقظ مبكرًا لأراهما مع طلوع الشمس، قبل الغروب أمثل أمامهما، أطوف بهما، كذلك قبل الشروق، وضعهما يحددان مدخل المعبد فى مواجهة قرص الشمس، مع الزمن تبدل الاسم، منذ العصر الهيلينى صارا يعرفان بتمثالى ممنون، ذكر المسافرون القدامى أنّ أصواتًا تنبعث منهما قبل الشروق غير أنها توقفت بعد ترميم جرى، لم يتبق من المعبد إلا نثار، مزق وصلت إلى زماننا عبر دمار متعمد، متعاقب، ما بين العصر والمغرب أخرج إلى الشرفة الخشبية، أتدثر بالعصر والخُسر وظلال جريد النخل المحاذى لى، إنه صنوى.

تقع الدار عند الحافة، آخر حد الخضرة وأول الصفرة، يمكننى أن

أضع قدمًا هنا وأخرى هناك، عند الحدود قامت المعابد المقدسة لتكون جسورًا للعبور بين الظاهر والخفى، بين البادى والمستتر، الآن، تنتظم الأديرة القبطية عند حافة الوادى، سندها الزرع والفرع والسعى فى مواجهة الخلاء، إلى الغرب تمتد مرتفعات القرنة، تتوزع فوقها البيوت، تتبع تعرجات الصخور الحادية للأسرار، ما خفى منها وما ظهر.

أهى الصدفة أن تقوم ساحة الشيخ الطيب عند بداية الطريق المؤدية إلى الدير البحرى؟، الفراغ المؤطر عرف الابتهالات والأدعية والتراتيل فى الزمن العتيق والأوردة والأذكار الآن، هل ثمة ترتيب نجهله؟ يسرى من وقت إلى وقت، فى تجوالى عبر العمائر المتبقية أتوقف عند النقوش، أحاول فهم الرموز لعلى ألتقط إشارة، رسالة خفية استعصت على الأبصار والأفهام المتعاقبة، ما من عمارة إلا وتتضمن مناجاة لا تبين، تنتقل من عصر إلى عصر، من وقت إلى وقت، من بشر إلى بشر، ما ينقص فقط اكتشافها، عندى أدلة عديدة لكننى أكتفى بذكر مثلين، أولهما ذلك الاعتقاد الكامن، الراسخ عند كل من يسكن قرب العمائر القديمة أن ثمة كنزًا مدفونًا ينتظر من يكشف عنه، فى جهينة اعتقد القوم بوجود أرصاد عليها طلسمات، وعرف كثيرون بمحاولاتهم لفضها والوصول إلى ما تخفى هذا شائع معروف، ثانيهما عاينته وأحرص على لفت النظر إليه، عند مدخل جامع ومدرسة السلطان حسن الشاهق الأشم، فى مكان لابد أن يمر به كل من يقصد الدخول حفر إنسان مجهول على عامود نحيل عدة مناظر متعاقبة لبيوت ودار عبادة تنتمى إلى طرز لا توجد فى بر مصر كله، بيوت ذات أسقف محدبة يغطيها القرميد، كنيسة بيزنطية الملامح أو هكذا قدرت، لا أقصد المكان إلا وأتوقف شاخصًا، مستدعيًا تلك اللحظات النائية

عندما خطط هذا المجهول عندى الآن ليحفر رسالته الحنينية تلك إلى موطنه، كيف فكر؟، كيف اختار هذا الموضع؟ كيف وفق بين الإشهار التام والإخفاء الدقيق، هل خشى افتضاح أمره؟ لم يحدث ذلك، الدليل وصول الرسالة إلى زمنى وتجاوزها إلى ما يلى ذلك، ظل الأمر خفيًا عن العابرين والمقيمين إلى أن فض السر هرتس باشا عالم الآثار الإنجليزى، لم يذع الأمر، بقى دفين الكتب المتخصصة، لم أطلع إلا قلة عليه، كأنى أسهم فى استتار المعنى.

هل يمكننى إيداع رسالة تصل يومًا إلى من أجهل، من لم يبد لواحهم بعد؟ فى الساحة أصغى إلى أصوات المنشدين، إلى الإيقاعات التمهيدية، التصاعد المقنن ثم الانطلاقة المفاجئة، الشهقات الواصلة ما بين السفل والعلو، أوقن أن وشيجة ما متصلة بالأصوات التى انبعثت يومًا عندما كانت الشعائر تقام يوميًا فى الدير البحرى، ومعابد أمنحتب وسيتى وتحتمس، خصوصية منبعثة من منابع خفية تتجاوز الساحة ومن يعبرها، أو من يلزمها، عندما جئتها أول مرة هل خطر لى أن مستقرى سيكون بالقرب منها، لو قال لى أحدهم إننى سأوى إلى صخرة مترفة يمكننى من فوقها رؤية الدير البحرى والممر المؤدى إلى فوهة المقبرة التى حوت الخبيئة الشهيرة، لو أطلعنى أحدهم على كافة ما يؤكد ذلك فى الغيب لما صدقته، وفيما تلا ذلك رحلت وتجولت وأقمت فى أماكن بعيدة، واجتزت مواضع لم يخطر لى أنى بالغها يومًا، حتى انتهى أمرى إلى تلك الصخرة، هذا ما أمر به الشيخ لأغراض لم يفصح عنها، ومن ناحيتى التزمت على أن أصل إلى المغزى فأستوعب، لعلى أهدأ وأستكين، خاصة أن الوجود كله صار عندى، أستحضر منه ما أرغب بمجرد نطقى.

وجود الأسماء، أسماء الوجود ومنها حضرموت

ألمحت إلى ما تبثه الأسماء عندى، ضربت مثلاً بأخميم، ثمة ما يتجاوز معانى الحروف إذا تعلقت بالأشخاص والطيور والحيوانات والأزهار ومقامات الأولياء المجهولين وأصوات أنوال النسيج، كذا ما خفى من البلد وما ظهر .

أتلقى من الأسماء إشارات تتحول أحيانًا إلى صور، بعضها جلى ومعظمها مبهم، تلوح غمامات، ندف عالقة أو سابحة، وديان هاجعة، بوادر ظواهر طبيعية، منها ما أعرفه ومعظمها لم يدرك بعد، مبان، طرق، نوافذ متطلعة، سلالم خلفية، أبراج منها المسكون والمهجور، هذا شأن حضرموت معى، منذ سنين تراودنى، لا أعرف متى أصغيت إلى إيقاع الاسم لأول مرة، ربما فى مقهى الأوبرا، عندما بدأت أتردد على ندوة نجيب محفوظ فى مقتبل العمر، إلى جواره يجلس على أحمد باكثير، أحدهم قال لى إنه من حضرموت، آخر قال إن كل اسم يبدأ بحرفى با إنما يمت إلى هناك، غير أنى واثق من سماعى الاسم قبل رؤيتى لباكثير، متى؟ لا أدرى، لا أتفحص ولا أجتهد، الأصل فى الذاكرة النسيان .

حضرموت . .

حضور وموت، من خلاله أقف على بعد سحيق، مسافات طويلة تماثل بحارًا وعرة وجبالاً تتخللها المضايق، عندما طالعت كتاب «درة الغواص فى معرفة أهل الاختصاص» لسيدى العيدروس، أيقنت بصلة ما تربطنى ولكننى لا أستطع تحديدها قط، ألمح خزائن كتب، حاوية مخطوطات خط بعضها على رقائق من جلد الغزال، وأوراق البردى، ولفائف كتان، محطات وصول للقوافل قادمة من أماكن نائية إما قادمة أو ماضية إلى الربع الخالى، الربع الخالى، هذا موضع آخر أوحى لى بما أوحى، عبرته جوًا ولمحت تضاريسه، غير أننى مرجئ، فهذا يفتح بابًا لا يمكننى عبوره ولا إغلاقه .

لم أظن أننى بالغها يومًا، حتى عند مجيئى إلى صنعاء أول مرة، لم أقصد الجنوب، كانت الأحوال فى اضطراب قبل أن يستوحد الشطران، عندما قرأت فى برنامج زيارتى الثالثة حضرموت تأهبت، جئت فردًا فى جمع يضم أدباء وفنانين ينتمون إلى فروع شتى، نشطاء فى الدفاع عن البيئة، لكل هدفه، فهذا قادم للحفاظ على عمارة الطين، وذاك لحفظ الألوان العتيقة، وثالث يسعى إلى توثيق الأبواب الموشاة بالزخرف، بعد معاينتى للعديد منها دهشت، إنها عين التصاريف والخطوط الماثلة فى جهينة مسقط رأسى، جارى فى الطائرة معنى بالنخيل، ليس النخيل على إطلاقه، إنما الحضرمى بالتحديد، بدا دمثًا رقيقًا، يكثر من النظر فى دفتر يحمله. ما أسعى إليه طائر لم أر إلا رسومًا تخطيطية تقريبية له، معروف بعزلته، موضعه المرتفعات القصية، يتوارى عن أية أنظار بمجرد اقتراب مصادرها على بعد مراحل، يستعصى على أمهر الصيادين، بين الحضارمة من له صلة وثيقة بالطير، أوردت سيرة أحدهم فى مؤلفى «هاتف المغيب».

مقصدى «الحجل الطائر»، منطلقى اسمه، وإحاطتى بقرب إندثاره، حاولت الإلمام بكل ما يمكننى جمعه من أوصافه، منها حدة بصره حتى ليتجاوز النسر الأبيض والجبلى، يمكنه رؤية أدق صنوف الكائنات الساعية بين ذرات الرمال من ارتفاعات شاهقة، كما يمكنه رصد سريان الماء تحت الرمال، إذا حلق فى سرب على ارتفاع معين فثمة ماء وإن لم يظهر، لا توجد صور ملتقطة له، إنما رسوم تقريبية تعتمد على أوصاف أدلى بها من شاهدوه، مما عرف عنه عزلته، يأوى إلى المرتفعات القصية، يتوارى عن أية أنظار قبل اقترابها منه لمسافة غير قصيرة، يستعصى على أمهر الصيادين، ما عرف منه عبر مراحل التاريخ المختلفة سبعة أنواع، لم يتبق منها إلا الحضرمى، تمامًا مثل الماعز العربى المتوحد، آخر ما تبقى منه فى صحراء ظفار.

الحجل، الماعز، الباندا، القرش الرمادى، البابون الأحمر، أجناس أخرى توشك على الانقراض، إما لمتغيرات فى البيئة، أو لكثافة صيد، أو لانعدام القدرة على المحافظة، لكم تمنيت تعقب كل منها، تدوين أوصافها، من المؤسى إدراك النهاية لنوع ما، خاصة إذا كان من المخلوقات التى تعى وتتذكر وتتحرك وفقًا لقوانينها الخاصة، هل يعى الحجل الطائر بانقراض جنسه؟ كذا المخلوقات الأخرى؟ هذا مما حيرنى، ومما شغلنى زمنًا، لذلك عندما واتتنى الفرصة جئت إلى حضرموت.

صرت إلى انشغال به، بإمكانية الحفاظ على ما تبقى، أراه قبل إيغالى فى السبات، ما بين اليقظة والنوم، متوحدًا، منعزلاً عند المرتفعات الصعبة، إذا لمحنى، هل سيهاجمنى أم يسارع إلى التوارى، كيف يميز بين من ينشغل به ومن يقصده لقنص؟

نزلنا مطار شبام بعد تحليق الطائرة بنا فوق العمارات الشاهقة المبنية من الطين، يسميها بعض الرحالة والصحفيين تجاوزًا بناطحات السحاب ربما لتحولها وارتفاعها غير المألوف بالنسبة لعمارة المنطقة.

لم أدخل شبام بل قصدت مدينة سيئون، بعد تفرق كل منا إلى ما يخدم غرضه، ما جاء من أجله، هنا حضارمة قدامى، تخصصوا فى الطيور والزواحف، سمعت فى صنعاء عن ثلاثة يتقنون أصواتًا إذا سمعها الحجل حن وظهر، ما من أمل لرؤيته ورصد أوضاعه إلا من خلالهم حتى يمكن تقديم العون إلى ما تبقى من الجنس، ثلاثة لا غير بعد توقف معظمهم عن إتقان ما يتوارثونه بسبب تضاؤل الاهتمام ودخول الحياة فى مسارات مغايرة لا صلة لها بالقديم، أحد مقاصدى بحث إمكانية نقل خبراتهم وأسرار عملهم إلى جيل أحدث، خاصة قدرتهم على إنهاء عزلة الحجل التى يعتصم بها إذا فقد وليفه، الأنثى أو الذكر، يلج حالة من الحزن الذى يقعده عن الحركة حتى يكف عن السعى من أجل الزاد، ما يمكن أن يضع حدًا تلك الأصوات المتوارثة التى يرجعها البعض إلى عقائد موغلة فى القدم، لم يحدث قط أن تسببت أصواتهم فى إلحاق أى أذى بالحجل، مثل استدراجه إلى فخاخ صيد أو الإمساك به إلى حين، يتعلق الأمر بأسباب عند القوم، قصدت متجرًا يبيع الفضة القديمة والأبواب الخشبية المنتزعة من دور تهدمت أو أزيلت، شغلنى أمر هذه الأبواب، خاصة أن نقوشها ومفاتيح ضبابها التى تحكم مغاليقها تشبه الأبواب فى جهينة مسقط رأسى، زودنى صاحب بالعنوان، يجيئ من داخل المحل كأنه قادم من جب عميق كأنه يعرفنى من قبل، حدثنى عن مصرى أمضى سبع سنوات فى مدن حضرموت مرافقًا لزوجته الأيسلندية، طبيبة تعمل فى مشروع يتبع الأمم المتحدة، لا أذكر اسمه، عرفته منذ أربعة عقود أو أكثر، قيل لى: إنه

طالب مجتهد، ابن فقراء، يعمل فى مهن شتى حتى ينفق على نفسه ويؤمن استمراره، رأيته فى قاعة الاحتفالات الكبرى بالجامعة أثناء اعتصام الطلبة، كان مركز الاهتمام، باستطاعته إطلاق إشارة لحراك وأخرى تسكت، خلال السنوات التالية قابلته عرضًا فى أمسيات دعيت إليها، دائمًا آراه بواسطة آخرين، فى كل مرة إما قادم من بلد ما، أو متجه إلى جهة ما، مرة إلى رواندا، ومرة إلى بورما، ومرة إلى البرازيل، وأخرى إلى النرويج، أين التقى بزوجته؟ لا أعرف، من مواليد ريكيافيك عاصمة أيسلندا، لم أعرف قط طبيعة عمله، أو النشاط الذى يقوم به، لم أهتم بمعرفة تفاصيل، دائمًا أقارن ما عرفته من بداياته، ثم اختلاف وتنوع المحطات المتخللة لمساراته، هذا ما شغلنى ليس بالنسبة إليه، إنما لآخرين، أستعيد أوضاعه التى اتخذها أثناء لقاءاتى به، دائمًا على وشك، متأهب للرحيل، متعجل، إيماءاته أكثر من أحاديثه، أخبرنى الحضرمى أنه كان يجلس هنا، أشار إلى مقعد بدون مسند أمام المحل، كان مرافقًا لزوجته، غير أنه انشغل بتعليم الأطفال فن الرسم، كثير منهم أتقنوه على يديه، دهشت فلم أكن أعرف أن لديه اهتمامًا بالفن، لا فى الرسم أو غيره.

قال الحضرمى: إنه يعرفنى من متابعته لما أنشره فى صحف يمنية بين الحين والحين، قلت مبتسمًا ومداعبًا: من قرأنى فقد عرفنى.

قال: إنه ملم، مطلع، ذكر لى تفاصيل تتصل بالقاهرة القديمة، بالصعيد، بفترات إقامتى بأبيدوس والبر الغربى، بعد عودتى إلى الفندق انتبهت إلى ما حيرنى، إذ إنه ذكر دقائق وتفاصيل لم أدونها ولم أصرح بها فى أى تدوين، ما بقت عندى ابتسامته وملامحه المستبشرة ونحوله، كل من عرفناه سواء لفترة طويلة أو لمدة عابرة قصيرة لا يتبقى منه إلا ملمح، نظرة، وضع، لفظ، ما علق منه لمحة المرح فى سائر قسماته.

يتقدمنى إلى الرصيف المقابل حيث درج عريض يواصل الارتفاع إلى ساحة يحدها سور تتخلله فتحات، درج آخر يؤدى إلى مدخل بناء من سبعة طوابق، طلاؤه أبيض، نوافذه زرقاء، عند التطلع إليه كأنى أراه فى مكان بعيد، أقف فى سيئون، أما القصر فكأنه فى مدينة ساحلية تطل على الكاريبى، أو خليج ما، قوى على حضور البحر رغم أنه بعيد، ربما المصدر فرادة التصميم وغرابة التكوين، مهيمن على ما حوله، مغاير، حتى تلك اللحظة لم أكن أستوعب ما تعنيه عمارة الطين، لم أعرف منها إلا عمارة حسن فتحى التى صممها لبلاد النوبة والقرية القرنة، عاينت ذلك، أسرنى براعة التكوين، قراءة الخطوط والقباب، مبان لم ترتفع أكثر من طابقين، لكن عمارة الطين فى حضرموت مغايرة، قصور متسعة، متعددة الطوابق، الطلاء يوحى بالحجر، أحيانًا الرخام، لكن بعض المواضع تقشر عنها تكشف عن الطين المختلط بالتبن، عين التركيبة فى المقابر المصرية العتيقة، فى الطوبة الخضراء المعروفة أيضًا بالطوبة اللبن، ما وقفت عليه صروح الطين، بعضها قائم منذ عدة قرون، أما الزخارف فبها أصداء هندية، إيقاعات إفريقية، خطوط لا أعرف أصولها، نسق مغاير.

«المتحف داخل القصر».

يتقدمنى، أتبعه، يجتاز الباب الضيق الذى لا ينبئ بما يمتد خلفه، تلك الرحابة، صالة طويلة مقببة السقف، منطلقة بلا حد، كأنها لن تنتهى، على جانبيها واجهات زجاجية لدواليب خشبية، داخلها أوان مختلفة الأشكال، تماثيل من مادة شبه رخامية، لم أتوقف أمام أى منها، تبعت صاحبى إلى مكتب فى نهاية الصالة يجلس خلفه شاب، من اللائق أن أحييه، أصافحه، ليس من المعقول أن أنشغل عنه

بالفرجة، سأبدأ بعد التعرف إليه، غير أننى اتجهت بالنظر إلى لفافة بردى أمامه، أحيانًا يدهش المرء عندما يرى شيئًا يمت إليه فى موضع لا يتوقع فيه ذلك، يبدأ إدراك الشىء تدريجيًا قبل التحقق منه، تمامًا كما يرد على الخاطر اسم لصاحب، أثناء المرور فى طريق مزدحم ثم نفاجأ بأنه أمامنا، أو يدركنا، يلحق بنا ليمس مرفقًا أو يدًا، يصيح أنه هنا!

لم أنتبه إلى اسمه، ذلك أننى وجدت نفسى فى مواجهة المدونات التى تسلمتها من سيدى ذى النون، لم يلحظ أحد منهما غزارة تحديقى المصحوب بدهشة وخشية، لماذا لزمت الصمت؟

لماذا لم أستفسر؟

ربما ليقينى باستحالة الرد، ربما ـ وهذا الأرجح ـ استغراقى فى تأمل ما أراه أمامى ومقارنته بما تسلمته فى الرؤيا من سيدنا، حتى الآن لا أجد إيضاحًا لبزوغ اسم «بونت» أمامى، مع وعيى أنه ما من صلة بين ما يحيطنى وما يترتب على تداعيات الاسم، إلا إذا اعتبرت وجودى فى حضرموت قريبًا من مكان البلاد التى لم تحدد بعد، المرجح أنها على الشاطئ الآخر من البحر الأحمر، فى الصومال أو أثيوبيا، بدلاً من الفضول تقت إلى الانفراد ليقينى أن ثمة شيئًا لا يمكننى استيعابه يجرى.

تبعت صاحب المحل إلى الخارج كما مشيت وراءه إلى الداخل، دراجة بخارية بجوار الرصيف، أشار فركبت خلفه، توقف أمام مقهى شعبى، يجلس عدد من الرجال القرفصاء، يدخنون «الروشبة»، نرجيلة خاصة التكوين، وعاء الماء من الفخار، تتصل به قصبة مفرغة، يمر الهواء والدخان من الرأس الخزفى المستدير إلى الفم ثم الصدر، عجوز يمسك بكيس من قماش يتناول منه الدخان المفروك، يزيده فركًا

بأصابعه ثم يضغطه ليضع فوقه قطع الجمر الصغيرة، رغم توقفى عن التدخين أقدمت، غير أن سعالاً حادًا نشب فجأة أوقفنى، قال مرافقى إن صاحبى كان يفترش الأرض ليدخّن مع الرجال، بعضهم مازال يذكره بالخير، كنت مشغولاً بما رأيت، غير قادر على التركيز، لماذا لم أطلب اللفائف، لماذا لم أستفسر عن اللون الياقوتى للعنوان، إلى جلوس الشاب الذى رأيته داخل المتحف، لا أدرى متى جاء إلى جوارى، ظهوره المفاجئ وميله تجاهى أثار عندى شكًا بوجود تدبير خفى لا أدرك مصدره، كل ما يبدو صدفة مدبرة بإحكام، أين؟ لا أدرى، أى جهة؟ لا يمكننى حتى التخمين، أفاجأ به يميل نحوى، يقول بتأن:

«إذا كنت جئت تسأل عن العلم، فلا علم هنا، وإذا كنت تبحث عن مقصد سعيك فأنت تاركه هناك، وراءك..».

كلماته اتخذت سبيلها عندى، كأنها الصوت الغامض المحرك للحجل، المظهر له، الحاض على فض وحدته والسعى باتجاه ما، ملامح الرجل كأنها تجسيد للكلمة التى لاحت لى مكتوبة بالأحمر القانى.

«بونت».

فى مرقدى، لم أدر إذا كنت أستدعى ما تحويه المدونة، أم أنه يتوافد علىّ؟

بونت

بونت

إنها السنة التاسعة من حكم حاملة روح الخفى الأعظم، الساعية بها، المتحققة، المنغمة، ممسكة الصولجان والزمام، موطدة المراسى، حافظة البشر والثمر والحجر، من لم تدع مخلوقًا يعلن حاجته إلى شىء، من تتكلم فى صمتها، العالية، التامة، مصدر الإيراد كله.

إنه الشهر الأول فى فصل الصيف، اليوم الأول من بدء وفاء النهر، بعد صلاة الغروب المؤدية إلى الترانيم المرافقة لغربة الإله رع فى رحلته الليلة، عبوره البوابات الاثنتى عشرة اللامرئية، إشراقه من جديد.

داخل قدس الأقداس الأعظم، الخفى، آمن، مرتب الجهات، مسير المدارات، ينطق الكاهن الأعظم، المترقى عبر المراحل، بالرغبة التى لا ترد للمدبرة، من لا تعرف الحيرة، لبدء تدبير الرحلة إلى بلاد البخور والمصدر القصى للعطور المقدسة واللبان، إلى بلاد الأشجار التى تنبت دمًا، تحلق فيها الطيور التى لا يمكن رؤيتها فى موضع آخر، موطن النسر الأرقم، والحجل الطائر المتوحد، بلاد قصدها الأجداد فى الأزمنة المولية، انقطعت الصلة بها مع حلول الجدب وغضب الآلهة وتمكن الغرباء الرحل، غير المقيمين، ركبوا أنفاس شماله الأسمى، ولطول الوقت بهم بدا الأمر وكأنه سيمضى هكذا أبدًا، كأنهم جثموا

إلى أبد أبيد، إلى أن تم الأمر، وقام أحمس المخلص بدفعهم إلى مجاهل الصحراء التى جاءوا منها، شرذمهم، بدد جموعهم وأعاد الملحمة.

حتى يتصل السريان ويستقيم الأمر، حتى يصير اللاموجود فى الموجود، ولتؤدى المراسم بالتمام حتى تسرى نسيمات البخور العطرة إلى حنايا الإله الخفى الأكبر الذى وجد بذاته، ليس له صنو، لم يوازه أحد، لم يتشابه معه عنصر مع أن كافتها منه، مردودة إليه، حتى تكتمل المراسم، لتتوافق مع كل ترتيب قديم، رأت الابنة المخلصة لأبيها الخفى تدبير الرحلة وتعيين الوصلة إلى البلاد القصية، لا يعرف موضعها وسبل قصدها إلا من سيفرض منها، هى وليس أى مخلوق غيرها.

ليس هذا إقدامًا منها، لكنه تنفيذ لمشيئة أوحى بها والدها المحتجب عن الأنظار ـ آمون ـ أى الخفى، تلقت عنه أثناء جثوها أمام مائدة القرابين المقدسة، أن تستأنف الرحلات المقدسة إلى بلاد بونت «كتبت فى مواضع أخرى من المدونة بنت وهكذا لمحتها فى قصر سيثون، لكننى آخذ بالأولى لغلبتها وندرة الثانية».

بعد أن أفضى الكاهن الأعظم «حبو سنب» بما عنده إلى المجتمعين التسعة، أشار إلى كبير رجال البحر فى المياه المالحة، حافظ مواقع النجوم ومواعيد هبوب الرياح ومساراتها، واتجاهاتها، ودرجات تلاحق الأمواج، الصلات الخفية بين حدود البروج ودرجات المنازل، لكنه لا يعرف موقع البلاد المقدسة، إنما يأتيه النبأ من كاهن المعبد الأوزيرى.

كائن المعبد الأوزيرى، نائب الكاهن الأعظم، من يؤدى ويؤم

الصلوات طوال الرحلة، يعلن حلول المناسب قبل الوصول، يبدأ التراتيل العتيقة عند المثول أمام أشجار البخور واللبان وشجر الدم، يتلو الأدعية الحافظة قبل قطع أى غصن أو ثقب شجر اللبان والدم. هو من سيوجه كبير البحارة إلى المكان شيئًا فشيئًا فشيئًا عند ظهور نجم معين على درجة محدودة قرب خط الأفق، مرجع الأمر إليه بعد بدء الإبحار، الموضع عنده لا غير، لا تدوين له، غير مسموح على الإطلاق بمعرفته، حتى إذا وقعت الواقعة وخرج إلى الأبدية، إلى النهار فإن الرحلة لا تكتمل طريقها، تعود من حيث بدأت.

الثانى هو العارف بالأشجار، الملم بالأجناس، متقن التمييز بين المقدس منها والعادى، المحدد للشجر المقصود، كما يختلف البشر، وتتباين علامات الأصابع فلا يتشابه منها اثنان، كذا حدقات العيون، كذلك الأشجار، والأزهار وسائر أنواع النبات، أما شجر الدم فلا يمكن لأى إنسان أن يقربه إلا إذا كان ملمًا باللحظة المناسبة، إنما الأشجار والأزهار وسائر صنوف النبات أجناس مثل البشر، منها الخجول، المتبسم، الحذر، ومن يئن إذا عومل بغير رفق، ومن يتألم لفراق من يحب «هنا نذكر الجذع الحنّان، الذى استند إليه سيد الخلق، المبلغ، الخاتم، وعندما افترق عنه أنّ الجذع شوقا».

أشجار الدم خاصة للاقتراب منها أصول، وللتعامل معها خطوات وتدرج، عند اقتلاعها من أرض لنقلها إلى أخرى فلابد من ترتيل وتحوط.

الثالث: مدبر المراسى، منشئ السفن، يعرف الأخشاب المناسبة، زوايا قطعها، وسائل توصيلها، الألياف المكونة، المحيطة بالدسر، الأوزان حافظة الاتزان، قماش القلوع محتوى الرياح، مرسلها إلى

وجهتها، أحجامها، طرق نشرها وطيها، إيقافها وتحويلها وتسخيرها للدفع، لكل سفينة غرض يحدده هو، يضع التصاميم المتضمنة ساحات مختلفة الأحجام، تلك لإيواء الرجال، وهذه لحفظ مأكلهم ومشربهم، أخرى للهدايا المرسلة إلى شعب البلاد المقدسة، الصناع المهرة يجيئون من سائر مدن وقرى الأرضين، من قبلى وبحرى، تنتهى مهامهم عند شاطئ البحر العاتى، هنا تبدأ مهمة البحارة، يوجههم، ينصحهم، يملى عليهم خبرته، فقط فيما يتصل بالسفن إذا طرأ خلل يصلحه، وإذا نشأ أمر عارض يحتاط منه، إنها مراكب مغايرة لتلك التى تبحر عبر النيل، أو بحر الشمال، منها المهيأ لاستيعاب ثمار الأشجار المباركة، عطور الإله، مزودة بكافة ما يلزم للإبقاء عليها ندية، إلى حين وصولها معبد ملايين السنين، منزل الإله الخفى آمن.

الرابع: مدبر التكاليف، ما ينبغى أن ينفق على كافة ما يتصل بالرحلة، بدءًا مما يلزم لبناء السفن، حتى ملابس الرجال المختارين، الحافظين.

الخامس: متقن لسان أهالى البلاد المقدسة، المتحدث بلهجاتهم، العارف بإيماءاتهم، بإشاراتهم، بالخفى من معانيهم.

السادس: القائم على إعداد طعام البحارة، وحفظ شرابهم، وتلبية أمزجتهم، بعض المأكل يستميل به القوم هناك.

السابع: الطبيب المعالج، حافظ العقاقير المداوية، خاصة دوار البحر ولسعة البعوض المكين ولدغة العقرب والأفاعى السارحة هناك.

الثامن: موفد ابنة الإله الخفى، سيدة الأرضين، مؤدى أماناتها، ناقل رسالتها، متقن اللسانين، غير مكلف بأى مهمة إلا نقل ألفاظها ومعانيها.

التاسع : لا يمكن الإفصاح عنه!

عند الساعة الثالثة من رحلة رع المقدس فى عالم الغيب، بلغ اللقاء بالكاهن الأعظم غايتـه، أبدى إشـارة الانصراف للكافـة عـدا مـدبر الرحلة، سنحى المبارك منه، أبدى تجاهه إيماءة تعنى ضرورة مكثه، رغم توقعه هذا إلا أن هيبة انفراده بالأعظم، الوحيد الذى ينفرد بقدس الأقداس أدركته، غير أنه بعد أن بدأ الإصغاء، نال منه عجب.

بعض ما أفضى به الكاهن الأعظم

إلى المشمول بالرعاية، المدبر للرحلة

الإله خفى، لا تدركه الأبصار، لا تعجز الحواس كافة عن إدراكه، إنما تقصر عن رؤية بعض مما أمر بوجوده، مثال ذلك الألوان، ثمة ألوان يمكن تمييزها، وأخرى يستحيل إبصارها، إنما الأمر نسبى، ليس لكل امرئ فقط، إنما لكل مخلوق، من إنس وحيوان وطير وشجر، رغم أنه خفى إلا أنه موجود، أينما وليت البصر تراه مع أنك لم تره، سار فى كـافة الذرات المستعصيـة على المشاهدة، يدرك كل شىء ولا يدركـه شىء، يدبر الأمر كله، له المبدأ والمعاد.

الإله خفى، لذلك يجب أن يظل كافة ما يتصل به خفيًا أيضًا، ليس بإرادة الكائن، إنما لجوهر الكينونة، هو الخفى مصدر كل شىء، ما يظهر ومـا لا يبـدو، ومـا يلوح ولا يبين، مثل ذلك العطر، كل عطر إشارة، كذلك النسمات، منه وإليه، لا يمكن تعيين مصادرها والقول ببدئها من هنا أو هناك، يستحيل إدراك الهبوب.

لأنه خفى، كل ما يتصل به خفى، كـافة ما يصدر عنه ومـا يصير إليه، الأنفاس وترددها إلى حين الكف، الأرواح وسعيها، الأشواق

ومقارها، الأحلام وما حوت، النجوم القصية، الأضواء الساعية، أريج الكندر والعود، المستكة والأفاوية، لأنه خفى فكل ما يتصل به يجب أن يستتر، لذلك على كل من يتصدى للخدمة عليه مراعاة ذلك، لكن ذلك جليًا يا مدبر الرحلة المقدسة، أستوعب وليس عليك من رقيب عتيد إلا هو.

لأنه خفى، عطره خفى، والبلاد التى تنبت فيها أشجار وأزهار ذلك العطر يجب ألا تشيع، أن تظل فى مجال السمع، كثيرون سمعوا عن أشجار الدم، واللبان الممتد، وطيور الحجل، لكن من بوسعه القول إنه بلغ تلك الأقاصى؟

هنا صمت الكاهن الأعظم، لم يكن بوسع المدبر التطلع إليه، لعله يرى من معالم الوجه وتعابيره ما يمكن أن يفسر ويدل أو يومئ حتى، لكنه يعرف أنه لو خالف وتطلع فلن يقع بصره على شىء، لأن قداسته محتجب، يكلمه من وراء ستار.

صمت.

كما أخبره مساعد الكاهن الأعظم، عند بلوغ الصمت ينتهى التلقين، يحق له أن يستفسر مرة واحدة، كل البشر من حقهم السؤال، أما الأجوبة القاطعة فمستودعها ومقرها عند الخفى الأعظم، آمن.

يغالب حيرته ورهبته، يستفسر.

لكن كيف أعرف الطريق إلى بلاد بونت؟

تتباعد المسافة بين طرح السؤال وتلقى الجواب، يستمر صمت الكاهن الأعظم، يدرك المدبر أن الجواب لن يأتى، عندما أحاطت أنامل المساعد بمعصمه منبهًا إلى نفاد الوقت، إلى انقضاء اللقاء، إلى

ضرورة بدء تراجعه ليخرج من الساحة الخاصة التى لا يبلغها إلا من يقع عليهـم الاختيـار وتشملهـم بركـة الاستدعـاء، للسعـى إلـى خدمة الإله آمن .

مرسى للرحيل

مرسى للوصول

يقول مدبر الرحلة، الساعى إلى رضا الإله الخفى، خادم سيدة، إن الأخشاب أعدت، شذبت، كذلك حبـال الكتان والليف المتخذ من جذيع الأشجار، كما نقلت كافة التفاصيل من حيز التجربة إلى هيئة التجسيد، من ذلك الأطعمة المجهزة لتحمل المسافات وتغير المناخ، ماء الشرب، ماء الطهارة، أدوات الاستدلال على الطرق من مواقع النجوم وتدرجات ألوان البحر واتجاهات الرياح، والأدوية المعالجة، كما أعد حيز لطعام خاص بأنواع نادرة من الطيور والحيوانات لا توجد إلا فى تلك البلاد، كذا الفراشات التى تعد لها تعاويذ خاصة بالمعبد الأكبر .

لمدبر الرحلة اطلاع وإلمام بالبحر الشرقى، أوغل فيـه، خبر نوّاته وفترات هدوئه، استكانته المفاجئة، حلم بالمسافات الفاصلة بين جزره الخالية من البشـر، يعـرف مـا تعنيه تدرجـات الأزرق، مـا تدل عليه بالنسبة للقاع من قرب وبعد، فى الليالى الخالية من القمر ينظر إلى الماء، من انعكاسات النجوم وتردد أشعتها يحدد المسار الآمن، حيث لا شعـاب يمكن الاصطدام بهـا أو مشـارف دوامـات تبتلع كل مـا يلج حيزها، إنه من يعرف طريقه، ناقل رسوم الأقدمين، مقارن ما يكون الآن بما كان .

كافة ما يلزم نقل عبر الصحراء، قرب البحر أصبح الاستعداد لحوض الماء تمامًا بمجرد صدور الإشارة من البيت الكبير، يعرف المدبر أن المراسى ثابتة ومتحيزة، الثوابت أمرها معروف، جلية، لكن بالنسبة لتلك الرحلة لا يتكرر الخروج مرتين من المكان نفسـه حتى لو بلغ الفـاصل الزمنى ألف فيضـان، تلك رحلة خاصـة، كل سعى فيـهـا مبارك، تأتى بعد انقطاع دام حقبًا متتالية لاضطراب الأحوال بسبب تمكن الأغراب من الشمال ودوام الفترة حتى تمام اقتلاعهم منه، غير أن كافة مـا يتصل بالسفـر إلى تلك الديار المقـدسة حيث البخـور واللبان وأشـجـار الدم والحـجل الطائر والنسر الأبيض، إن لم تصنه لفـائف البردى والمدونات الخاصة، تتناقلها الصدور .

لا لوازم الرحلة، ولا الأماكن التى سيحفظ فيها البخور والكندر النقى، والأعشاب التى ستظل خضراء مورقة حتى وصولها إلى بيت الإله الخفى، ولا كفـاءة الرجـال المدربين، القـادرين على تحمل عـتو المسافة ومشاق الانقطاع عن الأهل واخضراء الوادى، لم تشغله وسائل التدبير أو التعيين .

مـا قلقل هدوءه، مـا حـرص ألا ينعكس منه ظل أو صـدى على ملامحه أو نبرة صوته، خفاء مقصده، غموض وجهته، حتى الآن لا يعـرف، دائمًـا يكون الإقـلاع من مـوضع للوصـول إلى آخـر، مكان الرحيل يعرفه بتواجده عنده، أما الهدف لم يتضح بعد، لابد من انتظار الإشـارة، عليـه التزام السكينة مهمـا انتظر، كل ما يصـدر عن الكاهن الأعظم لحكمة، صمته لحكمة، ليهدئ روحه، ليتأمل ما قيل له، ما لمحه أثناء المحادثة، لعله يتوصل بمعنى خفى عليه، أو إشارة غـابت

عنه، الانتظار يطول، الأيام تتوالى وما من بادرة، ليخفى هواجسه، ليبدد حيرته، أنظار الكافة متعلقة به، منتظرة كل ما يصدر عنه.

خفاء الاسم.

بُنت.

بونت.

يضيف الاسم صفات وملامح على صاحبه أيا كان جنسه، إنسانًا أو طائرًا أو حيوانًا أو نباتًا أو جمادًا، سهلاً أو مرتقى، مدينة أو محلة، واديًا أو تلاً، نهرًا أوبحرًا.

لا يمكن للمدبر أو أى بشر ظاهر أو خفى تصور هيئة العالم بدون أسماء أو ألوان، بل لا يمكن تمييز الألوان إلا بأسمائها، «أصل الاسم فى المدونة إذا كتب بحروف العربية يكون هكذا «رن» أو «الرن» أى يمكن نطقه مجردًا أو بإضافة ألف ولام، يذكرنا ذلك بما ينطقه القوم إذا أرادوا إلى شخص ذى حيثية يقولون: دا له شنة ورنة، والمقصود بالشن ذلك الإطار المحيط بالاسم للحماية، فكأنهم يشيرون إلى وضعية الاسم فى داخل الحدود الحافظة، هذا ما وصلنى من لغة الطير».

لو أن الشرق اسمه مغاير لأصبحت ملامحه مختلفة، كذلك الليل والنهار، الاسم سابق على الظهور بين الموجودات، باق بعد زوالها بشرط حفظه.

هل يعرف الاسم إذن قبل تحقق المخلوق؟

ألا تذكر النصوص المقدسة أن الأسماء كلها عند الإله الخفى، أوجدها وأخفاها، يظهرها بقدر ولمناسبة أو ضرورة، هو لا اسم له،

امن أو الخفى، لم يسمه أحد، فلم يسبقه قبل ولم يتبعه بعد، خلق ذاته بذاته.

لكل موجود له اسم، ظاهر مع تحققه، مستتر قبل ظهوره وبعد انقضائه، البحر للبحر، للزرقة، اللامدى، للأنواء، لمواقع النجوم، لطلوات البغتة، للحلم بالبعيد، البحر ليس للنهر، لو أن النهر اسم البحر لتبدل أمره.

بُنت أو بونت؟

بماذا يوحى الاسم؟

يحار، لم يتوقف أمام ما يشبه ذلك قط، عندما أخبره الكاهن الأعظم بتدبير الرحلة، لم تثر بونت عنده السؤال، بدأ بعد تلقيه الأمر مباشرة، لم تبدأ الاستفسارات إلا مع غموض القصد وتوالى الإشارات.

بونت فى مكان ما، حتى الآن لا يعرفه، لا يلم به إلا من خلال الاسم، رغم أنه مدبر المجهود الأكبر ليس أمامه إلا الاسم.

بونت.

تستدعى إليه لونًا بنيًا، ليس بالفاتح ولا الغامق، لون غامض يصعب أحيانًا تصنيفه أو نسبته إلى مرجعية مفروغ منها مثل الأرض السهلة أو الجبل الوعر، يستحضر بنايات من طابق واحد، معتمة، لا نوافذ فيها، تحيطها الأسوار، يقف إنسان وحيد، ربما رجل، ربما أنثى، مخلوق ما، يقف عند نقطة محددة تحت جدار لا ظل له.

بونت.

تفلت الصور منه، تنأى، لكل اسم عنده قرين ما، أحيانًا واضح إلى درجة النصوع أحيانًا يغمض حتى لا يلوح منه أو إليه شيء، للزمن ألوانه للسبت لون، للأحد آخر، للاثنين، حتى اليوم العاشر «كان الزمن عند أصحاب قلم الطير مغايرًا لما نعرفه الآن، فالشهر من ثلاثة أسابيع، لكل منها عشرة أيام، وبداية السنة مع أول نقطة من الفيضان أى الدميرة كما نسميها ونعرفها حتى الآن».

يغمض المدبر عينيه، تتحول الموجودات إلى أسماء، يروح، يجىء فى مكانه، يدرك أن الرحيل ليس بالحركة فى المكان فقط، إنما داخل الذات أيضًا، يفتح حدقتيه على اتساعها، تمامًا كما يرى ظاهرة طبيعية فى الخضم المائى لم تذكرها الكتب، أو اكتشافه أرضًا لم يبلغها إنسان قبله، أو مخلوق برى، مائى لم تقع عليه عين.

إذن يمكنه السفر بدون سفر.

لكن هل سيصل إلى بنت؟

أى بنت يقصد؟ تلك التى وصفها الكاهن الأعظم، أم التى تحددها المدونات أم التى تخيلها؟

بُنت هناك فى مكان ما، فى الجنوب الشرقى، عند موضع ما من التقاء البر بالبحر، أو على مسافة إلى الداخل، تبدأ الرحلة إلى هناك من موضع مطل على البحر الشرقى، يطلق عليه البحارة البحر الأحمر، عند بلوغ مواضع تحددها الرسوم يتوهج الماء الليلى بضوء عقيقى لا مثيل له، لا يمكن وصفه، ليست له مرجعية فوق البر أو بين ألوان الشفق، أو ما يظهر بعد نزول المطر، يجيئ من كافة أنحاء الماء، خاصة القاع حيث الأشجار التى تأكل وتتنفس وتتكلم فيما بينها وتتناكح وتتوالد.

لو أن الرحلة باتجاه الشمال لتغيرت الملامح، ولو أن بنت هناك لاختلف تصوره لها، إنه يتخيلها هكذا الآن لوقعها ولوجهته التى يقبل عليها عندما تأتيه الإشارة بالتحرك، لو قيل له إنها مدينة لتغير تصوره، لكنها بلاد، هكذا أتذكر فى متون الأجداد العتيقة، عندما كانت المنظومة مستقرة والثوابت قائمة قبل اختلال الأوضاع وتمكن الأعراب، غير أن المسار عاد إلى أصله، استأنف النهر جريانه بين ضفتين لا يوجد على جانب أى منهما أعداء، عادت تماثيل وشارات ورموز الإله الخفى إلى القلاع الحدودية، تنبعث منها رسائل الدخان، وومضات المرايا، ظهور الألوان بترتيب معلوم، كل ما يبث الائتناس عند المقيمين فى المرابض حتى وإن باعدت بينهما المسافات.

استئناف الرحلة اتصال للزمن، تصحيح لقطع وقع، لكن متى سيبدأ؟ متى ستفرد السفن قلوعها؟ بونت شواطئها على البحر، غير أنها موغلة فى العمق، كما تشير المدونات القديمة، مساحات منها شاسعة خلو من البشر، من المدن، لكن طرقها سالكة، آمنة، مهدها البشر والدواب عبر أزمنة متعاقبة، كذلك جريان السيول والزمن، منها الجاف والموحل، تنتشر بها نهيرات ضيقة يمكن عبورها بخطوة، يتم توزيع المياه على النواحى طبقًا لترتيب محكم يتبع ظهور النجوم أو مواقعها فى السماء، ينظم المرور المياه من جهة إلى أخرى أحجار صغيرة يتم تحريكها بنظام دقيق ينفذه رجال متفق عليهم، هكذا يتم توزيع المياه المحدودة بمعدل دقيق يصونه ميراث ممتد.

فى بونت جبال متفاوتة الارتفاع، منها المرتفع وهذا أجرد، بدءًا من المنتصف وخلال بعض شهور السنة يبدو عليه ثلج، أما المتوسط

فمكسوٌّ بالزرع كذلك المنخفض، وهذا منبت اللبان النقى، الأمثل، من شروط نموه أن يشب من بذور دفينة فى سفوح مائلة ليست بالمنخفضة أو الشاهقة، تستقبل هبوب الرياح الموسمية من البحر الشرقى الأعظم، تحتوى الأغصان عند بلوغها سرعة مقدرة، إذا زادت يتغير اللون وإذا تمهلت يتبدل القوام، تلك السرعة وهذه الحرارة لا تتوفر إلا فى مرتفعات بنت، كذا كثافة الندى، من تلك الظروف الاستثنائية ينبت اللبان النقى، لا يستخدم إلا فى قدس الأقداس، حول تمثال الإله، الأنواع الأخرى لكل منها جهة مغايرة، بعضها داخل بلاد بونت، والأخرى فى ديار أخرى، منها جزء صغير وأخرى كبيرة فى عرض الماء اللانهائى، ثمة إشارة فى المدونات إلى إحاطة المياه من كافة الجهات بمنبع اللبان الأفقى، هذا ما يثير فضول مدبر الرحلة، يتغير تصوره مع تلقيه إشارة جديدة أو اطلاعه على معلومة لم يلم بها فى المدونات العتيقة، لا يمكنه تأطير مخيلته بحدود معينة، لتمام التصور لابد من توفر ثلاثة، حضور مادى معاين، وظلاله، ثم اسمه الحاوى لهذا كله، هنا يصير التحديد الدقيق، إذا توفر عنصر واحد أو عنصران يبدأ سعى الإنسان لاستكمال الناقص بالمخيلة، ليس لديه إلا الاسم، الحضور المادى لابد من بلوغه، الوقوف عليه مباشرة، أما الظل فأمره محير، هل يتبع الأصل المادى، أم العكسى، طبقًا للشائع فالظل فرع وكل مصدر له أصل، لكن ثمة من يقول إن الظل أصل وأن المصدر تابع، ألا ينبئ الظل أحيانًا عن الجوهر أكثر؟ عند هذا الحد ينطق المدرب محدثًا نفسه:

«لكن شرط وجود الظل حضور الأصل».

يومئ مجيبًا نفسه، لكنه سرعان ما يحاور ذاته

«هل يكتمل حضور المصدر إذا لم يكن له ظل؟».

يستعيد جملة قرأها فى مدوّنة قديمة..

«الأصل فى الأشياء الظل..».

إذا تبلغ به الحيرة مداها يفرغ إلى تأمل ما لديه، ما بلغه بالفعل، الاسم، ليمعن فيه لعله يبلغ ما لم يعرفه الذين كابدوا مشقة المسافة وهبوب الأعاصير وقسوة الاغتراب عن الأهل والنسمات المعهودة وطزاجة خبز الصباح الذى يرضع نموه من أشعة قرص الشمس آتون ليكتسب قبسًا منه «لعل المذكور هنا يشير إلى الخبز الشمسى الذى مازلنا نعده ونعجنه ونضعه فى أشعة الشمس ليكتمل اختماره ونضجه قبل أن يدفع به إلى الفرن، وأفضل أحواله أن يؤكل ساخنًا أو فى يوم خبيزه، فلو أتى عليه الليل يقسو»، كذا سخونة اللبن الخارج لتوه من الضرع السخى.

مجريات الاسم

يطرأ ما يغير هيئة البلاد على مخيلة المدبر، يغلب عليه ما يجعلها دائرية تمامًا أقرب إلى الانبعاج، لها مركز، لا يمكن اعتباره مدينة مثل طيبة أو منف، ربما يكون واديًا تصدر عنه المياه أو تصب فيه، أو مرتفعًا تنمو على سفوحه أشجار الدم واللبان، الأسوار محيطة، تتخللها أبواب نافذة مباشرة إلى البحر، رغم أن البيوت من الحجر الأبيض، أعلاها من طابقين، إلا أنها ذات هيئ بشرية، كأن النوافذ عيون والزخارف ملامح تميز هذا عن ذاك، عند هبوب الرياح تتوارى، لا يمكن رؤيتها عن قرب، مع تصاعد الضباب فى الساعات الأولى من النهار تلوح عالقة مستندة إلى فراغ، ليست البيوت إلا مواقع متقدمة

للطرق الوعرة المؤدية إلى الأشجار المعنية، السماء مثقلة بغيوم غزيرة تدر الأمطار الموسمية اللازمة لنضج اللبان، عندئذ لا يمكن رؤية الأرض كلها لا من قرب ولا من بعد، فى الترتيب القديم للرحلة أن الوصول ينبغى أن يكتمل مع بداية جنى المحصول، عند الوصول لابد من اتباع تعليمات المدرب وإلا ضاع الاتجاه، الأرض صفتها الاستدارة، لذلك لا يمكن تمييز الشرق من الغرب، العلامتان الرئيسيتان لكل ما عداهما، مصدر ظهور الإله رع وغيابه، مصدر رحلته الظاهرة والخفية.

هكذا رآها المدبر، بلاد طابعها الاستدارة، يبدو فيها القمر قريبًا جدًا من الأرض، أكبر حجمًا فى العيون، يطلع قرص الشمس وهو باق، ظاهر، فيجتمع الاثنان معًا.

فى مقره المؤقت أمعن المدبر فى تأمل الاسم واستلهام مجرياته، لكنه لم ينشغل عن أداء مهامه، ثلاثة أرباع النهار مخصص للمرور على أبناء خدام الإله المتأهبين للإبحار، من الأصول المرعية عند طول الانتظار ضرورة شغل المكلفين بمهام شتى، تنظيف المعدات، ترتيب الأماكن، نقل الحمولات من جهة إلى جهة، تنظيف الرمال، مراجعة التفاصيل مرة ومرة، القيام بما يجب أن يهموا به كأن القلوع ستفرد بعد لحيظات، مهم أن يظل الكافة فى حالة تأهب لا تهن حتى لواح الإشارة من بيت الإله الخفى، من الكاهن الأعظم، إلا أنه يتوحد بخلوته، بما يطلع عليه عبر قوة الاسم، يتوجه بالبصيرة صوب جهة معينة هناك فى عمق زرقة البحر، هناك موضع تلك البلاد، منبع الأشجار اللازمة لاكتمال عطور الإله، ملامح القوة مغايرة، لسانهم أيضًا، الانقطاع عنهم لم يؤثر، لم يغب عن خدام الإله الخفى أن الصلة ستعود يومًا وأن

إقامة الغرباء وتمكنهم من مصر السفلى عارض، مؤقت، صحيح أن الرحيل تعطل، لكن خدمة ما يلزمه استمرت ومن ذلك الحرص على إتقان اللسان، حرصًا على تمام التفاهم يومًا عندما تمتلئ القلوع بالهواء، وتنتفخ الأشرعة صوب الوجهة المثلى، بين ركاب السفينة الأولى ثلاثة، الأول عمره أربعة وعشرين فيضانًا، الثانى يصغره بواحد، والثالث بأربعة، يتقن كل منهم لسان الأهالى هناك، كأنه ولد بينهم، تعلموه فى المعبد، لابد من ثلاثة مع كل رحلة، حتى يحل الثانى مكان الأول إذا خرج إلى النهار بغتة «الخروج إلى النهار عند القوم يعنى تمام الوفاة وبدء الرحلة الأبدية وطبقًا لما اطلعنا عليه فى المدونات لها طقوس وأحوال يطول شرحها، لكن عن معاينة يمكن القول إنها لاتزال باقية، عند دنو أجل الوالد رحمه الله، اقترب منه أحد الأقارب المعمرين، مال على أذنه، راح يهمس إليه بما يجب أن ينطقه إذا قابل الأخطار المتوقعة، راح يطمئنه مرددًا: لا تخف نحن حولك، عرفت أن ذلك من عادات القوم، أنه تلقين لابد منه، وصار ذلك إلىّ فيما تلى ذلك»، أما الثالث فيحفظ ما عرفه الأول والثانى من بعده إذا جرى لهما مكروه.

الآن يتقن المدبر عبارات التحية والمجاملة، سمات الغضب، العبارات الملازمة لها، أصغى ونطق وصحح ما طلبوه منه حتى رضوا عنه، كل كلمة اسم، مباشر أو غير مباشر، كل لفظ اسم بدرجة ما كذا الأجوبة اللازمة عن الأسئلة المتوقعة وغير المدرجة فى الحسبان.

الآن صار ملمًا، موقنًا من هيئة الرجال والنساء هناك، كيف ينتظرون، كيف يتطلعون إلى وصول القادمين من الأراضى السوداء، إلى هدايا بلاد النهر الممتد، حلى الذهب، المنسوجات بأنواعها،

الأطعمة طازجة ومجففة، بين الرجال من يتقن الخبيز والطهى، كافة المواد مصانة، معالجة، بحيث كأن الخضروالفاكهة انتزعت من الحقول أمس، كذا أسماك النهر، لثمار الوادى مذاق مغاير، يمكن أن ينبت نفس الصنف هنا وهناك، لكن أرض كيميت «يرد اسم مصر فى المدونات هكذا وطبقًا لقلم الطير فالاسم يعنى الأرض السوداء الخصبة» تكسب مذاقًا فريدًا، مغايرًا.

الهدايا درجات

من ينتظرون عند المرسى مباشرة لهم ما يلزم، كبيرهم له ما يقدم عبر درجات، عند اللقاء الأول، وصباح اليوم الثالث وظهيرة اليوم الرابع، وعند سماحه لرجال الرحلة بقضاء ليلة فى قصر الطين، سوف يسأل بعد الترحيب:

«لماذا تكبدتم مشاق البحر العاتى وجئتم إلى بلادنا القريبة من السماء؟».

على المجيب أن يوفق بين إبداء الاحترام وتجسيد هيبة مطلقة، إنه لا يمثل نفسه، بل ينطق ويمثل عن ابنة الإله الخفى، سيدة الأرضين، الوراثية، النورانية، حامية القطرين، حارسة البحرين، علية الخطو باتزان راسخ، يستعيد مرات ظهور الكاهن الأعظم من وراء حجب البيت الكبير، تقدمه وتيدًا، فليقتد به، إنه مرجعية عند الاضطراب أو وقوع الخلط أو فقدان الدليل، أما تَعبيرات وجهه فيجب ألا تفصح عن نفسه إلا بعد أن ينقل متقن لسانهم المعانى إليه، عندهم من يتقن لغة أبناء وأحفاد الإله الخفى، لكن يصعب أن يوكل إليهم الأمر، ما يتفوهون به يجب أن يصل إليه عبر ثقة مأمون، ليس بينهم من يتقن الكتابة، هذا فعل له قداسة لا يقدر عليه إلا خاصة الخاصة من أهل

كيميت، الكتابة جلل، متصلة بالوجود، بل إنها موازية له، تجريده وترميزه وتفسيره، من يمسك أسرارها يمكنه تبديل المصائر والمسارات وحفظ مضامين الأزمنة التى تعبر إلى العدم.

فى بونت يعرفون النطق والإشارة، لكنهم يجهلون الكتابة، ليس مسموحًا لمن يتقنها من أبناء الرحلة أن يكتب على مرأى منهم، لا بالنقش على البردى ولا الحجر ولا جذوع الأشجار ولا فى جلسات الراحة والائتناس بعد مآدب الترحيب وتبادل المودات حيث يصغى كل منهم إلى استفسارات عن النهر الأعظم، مبدؤه ومنتهاه، عن العمائر الهائلة وأسرار الفلك.

كل الاستفسارات يمكن الرد عليها عدا المحظورات وتلك محصورة، معاينة، أولها الإفصاح عن أسرار الإله ثم الكتابة، مرامى الحروف، مضامين الأشكال واحتمالات التفاسير، هتك دلالات الرموز يحول دون انتقال المعانى من عصر إلى آخر، لا شىء يثبت على حال حتى الكتابة، ما يفهم عبر المتون الآن لن يدوم، سيأتى زمن لا تشير الحروف إلى دلالاتها، تتغير معانى الألفاظ وربما تغيب تمامًا إلا لقلة قادرة، ناطقة، وربما تنطق الأسماء بطرق لا صلة لها بالأصل، بحروف لغات مغايرة، ربما تسفر عن ملامحها حينا وتتجلى مكتملة للبعض فقط وتحتجب عن كثر.

الاسم مفردة، متصلة، منفصلة، جزء من كل، ما يوحى به الآن اللفظ، «بنت» ربما يوحى بعكسه بعد ألف فيضان، لا ثبات لشىء، «بونت» الآن ليست هى التى سيطالع اسمها أو أرضها من سيسعى بعد ألف فيضان، «بونت» عبر الملامح يرى إناثًا وذكورًا، ملامحهم مغايرة، تقاربهم، تباعدهم يصغون إلى الرسائل، يتطلعون إلى اللوحات الحجرية التذكارية، إلى الصلوات المرفوعة إلى من لا يرى،

الموجود فى كل مكان، غير متوقع ظهور بوادر عدوانية رغم انقطاع عدةأجيال، هم يعلمون بمصاعب حلت، حلول الغرباء وانقضاء وقت حتى طردهم، حتى اتصال الجنوب بالشمال.

عليه أن يرقب تغير الملامح مع ظهور الهدايا، بعضها يسلم لحظة الرسو، ومنها ما يقدم فى قصر الطين، وأثمنها ما يفصح عنه بعد الحصول على أشجار اللبان وأغصان الدم وريش النسر الأبيض والحجل الطائر، وآخرها عند الرحيل، لكل مضمون وترتيب، للوصول مراسم، وللإقلاع مراسم، وما بين البداية والنهاية تتضح قسمات ومضامين تلك البلاد.

بونت.

بخور، لبان، طيور تحلق على ارتفاعات شاهقة، لا توجد إلا هناك.

بونت.

يكفى نطق الاسم الآن بعد ليال أمضاها محدقًا فى النجوم، متتبعًا الأرواح الشريرة التى تهوى محترقة أمام الإله الخفى الذى يواصل الرحيل عبر البوابات الاثنتى عشرة متخطيًا العقبات ليطل من جديد عبر الشرق، كل طلقة ولادة، كل ظهور خلق جديد، خلق منه وإليه وبه، متجدد، دائم، خفى لا يبين.

عند لحظة معينة تدركه نشوة الفهم، رعشة الكشف، يتحد بالعلو والسفل معًا، يصير ضوءًا أو طيفًا أو لمسة فى شفق أو ذرة لا تتجزأ، يصير هذا منه، وإليه، به وعنه، أما بونت فيقف على رباها ويستنشق فراغها، يتنسم عطورها، كل على حدة، بدءًا من أريج الشجر

المقدس، وحتى رائحة الماء، والطيور والفاكهة الغريبة، ومفردات الأشجار التى لا يوجد مثيل لها فى بر «كيميت» المباركة.

لم يستغرق سنحى المدبر بمفرده، إنما كل مكلف بالإبحار والمشاركة، خلال الانتظار أطال التأمل والتوقع، حتى خلال أداء الواجبات الدقيقة اللازمة لإتمام الرحيل صوب بلاد بونت من ثراها عطر الإله.

ليس سنحى المدبر بمفرده، كل منهم أقلع وأوغل بحرًا وبرًا صوب ساحل معين تبدأ عنده «بونت»، كل سلك طريقًا يخصه، تعددت السبل إليها على قدر أنفاسهم وتمكنوا منها، كل منهم رآها كما يريد، كما لاحت من خلال إمعانه فى الاسم، وصل بهم الحد إلى حال من الامتلاء وكأنهم أمضوا بها عمرًا، لذلك لم يدهش أحدهم عندما جاء قاصدًا من بيت الإله الخفى ينبئهم أن الكاهن الأعظم يبارك وصولهم سالمين، هكذا بدأوا الخطو عبر الدرب قاصدين مدينة ملايين السنين، طيبة المباركة من الإله الخفى، أيبين بعد رحيل عبر الرحيل.

رسوم.

أمر الكاهن الأعظم أن يخلو كل منهم بنفسه فى أماكن الإقامة الملحقة بالمعبد الكبير، بدءًا من المدبر إلى أصغر البحارة المجدفين كذا الحمالون، ينتظرون الكتاب والرسامين والملونين، إذ يفرغون من مهامهم الخاصة التى تتبع المعابد بدون وسيط، يجيئون من مكان إقامتهم الذى لا يفارقونه ولا يطرقه غيرهم، فمن يجسد صور الآلهة والرموز على جدران المراقد الأبدية والأماكن المقدسة يجب أن يسلك مراحل شتى، أن يقطع صلاته بكل خارج عن المواضع المخصصة لديار الصدق الأبدى، أن يحتوى التعاليم حتى كأنه يتنفسها، كان المطلب بسيطًا، مفاجئًا لمن طال بهم التمعن والانتظار.

«صف لنا ما رأيته».

عندئذ ينطلق كل منهم محدثًا بما اطلع عليه من خلال استحضار الاسم وتقليب أدواره وتفحص مراتبه، بعد أربعين ليلة، أخطروا كافة بالتأهب قبل شروق الشمس، المضى عبر النهر إلى الغرب الأبدى، إلى الطريق الصاعد صوب بيت الإله الذى شيدته ابنته المخلصة فى حضن الجبل، عمارة لم تعرفها البلاد من قبل، يبدو مرحبًا بكل قادم، غير مسفر عما يحويه، رغم ارتفاعه إلا أن المرقى إليه سهل، لا يكلف الساعى نحوه جهدًا أو مشقة.

بعد تمام الطقوس واكتمال الشعائر، وصل سنحى المدبر يتبعه الآخرون، أول من خطا إلى الداخل هو، عندما تطلع إلى الجدران أدركه.

بونت.

إنها بونت كما رآها، تمامًا كما تخيلها، يستعيد ما قاله الكاهن الأعظم خلال لقائهما الأول.

«ستصل إلى بلاد عطر الإله، بونت التى لن يعرفها مخلوق، موقعها، لن تتجسد إلا من خلال التخمين، سيطلبها كثيرون، سيطول بحثهم، لكنهم لن يدركوها أبدًا. . .».

لم تنل الدهشة سنحى المدبر بمفرده، كل من خرج معه، عندما وقع بصره على الرسوم رأى بالضبط ما عاينه بالمخيلة، بالتفكير والمعاينة، لم يخبر أحدهم الآخر، لم يقع نقاش حول اختلاف تفاصيل أو انتفاء فروق أو تطابق حدود، وقف كل منهم على ما عاينه، كذلك كل من سيأتى بعدهم ويقع بصره على تلك الأشكال والألوان، سيراها كما

يريد، طبقًا لصلته بالاسم حتى إن تغير نطقه فى السنة ولهجات أخرى، وفقًا لما يتوفر لديه من أقاويل آخرين أو مدونات شفهية أو مثبتة.

بعد أداء الصلوات، بعد شمولهم بالبركة ونيلهم حظ الركوع أمام حجاب يمكث خلفه مساعد كاهن المعبد انصرفوا، تفرقوا فى الوادى، لم يجتمع اثنان منهم، من رأى «بونت» لا يحق له أن يطلع عليها مرة أخرى، أو يبحر إلى شواطئها، بعضهم اكتفى بما عاينه فكف عن الصمت ولزم داره أو محل إقامته، ورغم كل المبذول لم تصدر عنهم أية استجابة، سنحى المدبر التحق بخدمة المعبد الكبير، خصص له مقام بعد أن امتنع عن أكل السمك والبصل وكل ما يثقل البدن ويعكر العرق، كما أنجز حلاقة جلده تمامًا، وعندما يطلب منه أن يصف ما رآه لمحتجبين لا يقع بصره عليهم، يسرد بدقة متأنية مسالك الدروب المفضية فى البر والبحر، يحدد مواقع النجوم والمواضع التى تكثر عندها الشهب، والنقاط التى تشتد عندها الدوامات، وألوان البحر نهارًا وليلاً، وهيئة الشواطئ عند الدنو للرسو، وعند الابتعاد أثر الإقلاع. . .

هنا تنتهى الكتابة المدونة بقلم الطير أصلاً، المنقولة نصًا على يدى العارف بها، المتقن لها، سيدنا ذى النون، بعد مساحة خالية يدون ما نصه:

«سافرت ثلاث مرات، وجئت بثلاثة علوم.

فى السفر الأول جئت بعلم قبله العوام والخواص.

وفى السفر الثانى جئت بعلم قبله الخواص دون العوام.

وفى السفر الثالث جئت بعلم ما قبله العوام ولا الخواص فبقيت شريدًا، وحيدًا، إلى أن قرأت تلك المدونات، فأدركت من ألم بمثل ذلك العلم، لكن الوصلة بهم مستحيلة، إذ إنهم خرجوا إلى هناك، ومازلت هنا فسبحانه هو الناشر، الطاوى للطى.

سوقطرة

على حافة فراش، داخل غرفة فى فندق مشيّد من طين حضرموت، مستيقظ للتوّ، رأسى مستند إلى راحتى، متطلّع إلى الأرض، غير ناظر إلى أية نقطة ثابتة أو متغيّرة، طلة جانبية وتقطيبة فى اتجاه غير محدد، فى مواجهة شىء ما فى نقطة لا أقدر على تحديدها، إطراقة الوحدة القصوى.

هكذا أبدو لى عند تفحص حالى، واستعادة ما كان منى خلال تلك الزيارة، أستعيد ذلك الصباح اليمنى فأوشك على تحديد بدء ذلك الحال الذى انته إلى خرجتى، منبتًا، منفردًا تمامًا عن كل ما تعلقت به أو اتصل بى، لأستقر إلى حين لا أعلمه عند ذروة ذلك المرتفع الواصل بين قرية الفنانين فى دير المدينة إلى وادى الملوك، بالبصر أرى شواهق الكرنك فى الضفة الأخرى ومرتفعات الشرق، بالقرب من استراحة الفرنسيين العاملين بدير المدينة، أمرنى الشيخ أن ألزم حتى يأتينى خبر، منذ أربعين عامًا عبرت المرتفع ضمن فريق الكشافة، أنّى لى العلم أن مقامى سيكون هنا؟ نسمع عن قصص جرت لهذا وذاك فنظن الحال بعيدة عنا، مستحيل أن تدركنا، مع توالى المواقيت نفاجأ أن وجودنا وما نصير إليه حكاية يرويها آخرون يظنون أيضًا، لن يدركهم ما لحقنا وغيرنا وبدّلنا وحاد بنا عن الأصول التى وفدنا منها والفروع التى اتبعناها.

إطراقتى تلك السابقة على بدء رحيلى إلى سوقطرة نقطة تنجلى عندها بداية الأمر، لكل حركة إيقاع، لكل سفر مقام ونغم، هكذا يقترن رحيلى إلى الجزيرة النائية بشروعى هذا، رحلة لم تكن مدرجة فى البرنامج، مرهونة بإجراءات وترتيبات، أبلغونى بعد العشاء باكتمالها، مجموعة من جنسيات شتى، تضم إعلاميين وأدباء ومدافعين عن حقوق الإنسان، عن البيئة، زيارة الجزيرة ليست بالأمر السهل، فرصة لا تتاح لكثيرين، مناخ ملائم فى هذا التوقيت مناسب تمامًا، شتاء بدأ منذ أسابيع، فى الصيف يتوقف الطيران لثلاثة أشهر وأسبوعين، تشتد الرياح الموسمية العاتية، تهطل الأمطار الغزيرة ويتكاثف الضباب، تتضافر ظروف طبيعية خاصة تعنى بفحصها مراكز رصد المناخ، عند حد معين يصعب رؤية الجزيرة لا بالعين الإنسانية ولا بالأقمار الصناعية ولا بالحاسب الآلى - جوجل الأرض - وهذا محيّر حتى الآن، تنعزل تمامًا، فى المحيط تكثر الدوّامات، تلجأ الكائنات إلى شواطئها، تظهر أنواع من القشريات، خاصة عند غروب الشمس وشروقها، تقف حيتان العنبر مع القرش الأبيض والدرافيل العابثة، وأسماك دقيقة لا يتجاوز حجم بعضها أصابع ضفدع، غير أنها مجمع للألوان، فى تلك الشهور يكفّ الأهالى عن الصيد، لا يخرجون إلى اليم، يكتفون بطرح البر، ما تثمره الأشجار، ما ينبت من الأرض، ما يُحلب من الضروع، نظام قديم لا يخالفه أحد، يرضعه الأطفال مع حليبهم، يعنى هذا توقف الصيد تمامًا، لو شذ أحدهم وأمسك بسمكة ضئيلة سيلحق الأذى بالجزيرة وتوابعها، سيبطل عمل الطلسم المدفون فى موضع ما، وهذا يعنى تقلقل اليابسة واضطراب الرواسى واحتضار الأشجار النادرة التى لا يوجد مثيلها فى المعمورة، بل يمكن اختفاؤها إلى الأبد، تفسير ذلك فى لفائف لغتهم القديمة والتى يرجعها البعض

إلى أصول حميرية، لا يتكلمها إلا الأهالى فى سوقطرة، وجزيرتين أخريين على بعد ساعات بالميل البحرى المعتمد، جزيرة عبدالكورى، ودارساه، ثمة أخرى ثالثة، سمحا، يعيش فوقها ستون فردًا لا ينقصون ولا يزيدون، نصفهم ذكور، وإناث، إذا مات أحدهم يولد من يخلفه فى اليوم نفسه، هذا مما عرفت مثله فى صحراء مصر، فى واحة أم الصغير، عدد سكانها مائة وأربع وستون، يتحدثون لغة غير مكتوبة، لا أذكر أين قرأت أو سمعت أنها تنتمى إلى جذور عتيقة جدًا ربما كانت المصرية القديمة، ياه أتوقف، أى أمور تتكشف خلال الاستعادة والتدوين؟ ألم يحدثنى كبار السن عن طائر متوحد، أعزل يعيش فى المرتفعات التى تلى الواحة؟ هل لفظ أحدهم اسمه؟ هل سمعت الحجل؟

لم يعننى الأمر وقتئذ، إنما استعدته عند بلوغى الجزيرة وما سمعته عن طائر نادر جاء المصريون من أجله إضافة إلى أسمائهم الأخرى ومنها اللبان ودم الأخوين، لم أعرف أننى ملاق هذا كله عند ملامسة العجلات للمهبط الممهد على الشاطئ، لاحظت مواقع المدفعية المضادة للطائرات من عيار مائة ملليمتر، ما الخطر المتوقع هنا؟ المواسير مصوّبة إلى شتى الاتجاهات، فى جبهة القناة كانت صوب الشرق لاغير، للسماء فوق المحيطات حضور مغاير، كذا فوق الصحارى رغم أن الماء فى الكوكب سياقه واحد، غير أنه يكون عذبًا فى مواضع، مالحًا فى أخرى، غير أن إدراكه عندى يتغيّر طبقًا لوضع الطلّة ونقطة الإشراف، ربما الاسم له الفاعلية، الاسم يحدد التلقى، يؤطر الاستجابة، فهذا خليج لأن اسمه كذلك، وهذا محيط، وهذا نهر لأن المعرفة تحققت عبر الاسم.

هنا فى سوقطرة تتموّج الأرض، شجر الدم الذى جئنا لنعاينه عن قرب لا يوجد إلا فى الأعالى، الطرق غير ممهدة، كافة العربات التى نتحرك بها رباعية الدفع، قوية، متينة، معدة لتلك البيئة الوعرة، نقطع فى يوم ما أمضى القدامى أسبوعًا لبلوغ نهايته وربما أكثر، ثمة شىء يستعصى على الشرح أو التفسير، ربما مصدره درجة الضوء، لون السماء، ارتفاع الأرض هنا أو هناك، ربما نوعية الأشجار التى أراها أول مرة، ملامحها الاستوائية، مرجعية ذاكرتى أفلام شاهدتها ولوحات لا أذكر تفاصيلها وصفحات من كتب، عناصر شتى تكثّف الإحساس بوجود محيط حتى وإن لم نر الماء اللانهائى، كذا قرب المساء من الأرض حتى ليوشكا على التماس فى بعض المواضع، يتزايد اليقين بفرادة المكان، لا قرين له، كل مكوناته خاصة جدًا حتى إن وجد بعضها فى مواقع أخرى من الكوكب.

ما بين نزولنا ولحظة وقوع البصر على شجر دم الأخوين ثلاث ساعات ومائة وخمسون كيلو مترًا، الجزيرة توحى بنقيضين، المحدودية واللامدى، فالماء من كافة الجهات مهما امتدت طولاً أو عرضًا، سوقطرة طويلة، أما الانطلاق فلعدم تعيين الحدود، الماء يعنى الماء، يمتد حتى الأفق، كل نقطة مؤدية إلى أخرى، وإن قامت يابسة إلى حين فلابد أن تنتهى إلى ماء.

قال سعيد السائق إن ما لا يُرى فى الجزيرة أكثر مما يدركه البصر، لم أفهم إلا فيما بعد، طمأن الأديب الألمانى الذى كان مطلبه الوحيد أن ينزل مياه المحيط، يكرر أنه يرتدى ملابس الاستحمام تحت البنطلون، أكد أن اللحظة المواتية ستحين، ليس كل شاطئ أو موضع يمكن النزول منه، إنما هى مواضع ومواقيت.

حدّثنى سعيد وصحبه عن أمور بعضها اتضح باستفسارات مباشرة منى، والآخر خلال حواراتنا، كنت معنيًا بالشهور الثلاثة التى تختفى فيها الجزر تمامًا حتى عن عدسات الأقمار الصناعية، غير أننى فوجئت بما هو أهم، مع بدء صعودنا الهضبة رأيت شجرة لبان غليظة الجذع، تبدو مثل قمع مقلوب، تنبت فروعها فجأة، تنبثق بدون تمهيد، متساوية كأنها مقصوصة.

سألنى سعيد عما إذا كنت تعرّفت عليها من قبل؟

قلت إننى رأيت صورها فى الكتيبات الصغيرة التى وُزّعت علينا، يبدى ابتسامة، ما مررت به أندر أنواع اللبان، هذه الشجرة يوجد منها فى العالم كله خمس وعشرون، فى الجزيرة ست عشرة، تسع موزعون على جبال الأطلسى فى المغرب وجزر الكنارى، أخبارهم مقطوعة، لكن أشجار سوقطرة تجد من يعنى بها، كل من يولد هنا يعرف أن المصريين سيصلون فى مواقيتهم القديمة وعندئذ يظهرون الخبيئة المدفونة قرب إحدى هذه الأشجار، عندئذ

أتساءل مقاطعًا: أى مصريين؟

تطلع إلىّ دهشًا كأنه يقول: ألا تعرف قومك؟

قال إنهم جابوا البحار ونزلوا كل الجزر حتى هدتهم آلهتهم إلى هذه الشجرة، لم يخلفوا موعدهم، لا يتأخّرون يومًا ولا يتقدمون، ومنذ أزمنة بعيدة قبل انقطاعهم رتّبوا أمورًا بمقتضاها تتم رعاية الأشجار.

أى أمور؟

يقول إن هذا ما لا يمكن الاطّلاع عليه، لا يعرفه إلا أصحاب الشأن، يشير إلى الأرض، إلى الأشجار، لقد تعاقب كثيرون وتبدّلت نظم ودول بعضها عات لكنهم لم يعرفوا قط.

بفضل ما عمله المصريون من تحاويط بقيت الأشجار عندما فار المحيط وغطّت المياه الجزيرة كلها لدقائق معدودات، بعد بدء انحسارها تغيّر كل شىء، فنيت أشياء كثيرة خلال ذلك عدا تلك الأشجار.

أخفيت فضولى، بدلاً من النطق بالاستفسار تلو الآخر رحت أبدى إعجابى بمهارة السائقين، عندما أشار سعيد إلى أعلى الهضبة، فوجئت بالأشجار المرشوقة فى صفوف متوالية، كان اهتمامى متّجهًا إلى الطريق، عندما تسلّقت العربة حافة وعرة الانحدار، تعجبت من قدرة الإنسان على تطويع الآلة لمقتضيات الظرف، إذن هذه شجرة الأخوين.

كل شجرة مفردة، بالطبع كل شجرة وحيدة، تمامًا مثل البشر يفدون إلى الدنيا فرادى ويخرجون منها كذلك، لا أحد يجيئ مع أحد، ولا أحد يموت مع أحد، تبدو وحدة هذه الأشجار لاتساع المسافات بينها، أدقّق، أحاول الاستيعاب شأنى عند بلوغى أماكن ومشاهد لموجودات أثق أننى لن أطّلع عليها مرة أخرى إلا من خلال التذكر.

أخيرًا تحتها.

جذع مستقيم لا التواء فيه، منه تنبثق الفروع التى تتوالى حتى حدّ معين لتنبثق الأوراق الخضراء المستطيلة لتتلاقى متساوية، مشذّبة، مهذّبة، تشكل التويجة الخضراء، كأنها وعاء حامل للغوامض، أما الدماء فتنزف من الجذع.

شجر نادر أيضًا، لا ينمو إلا فى هذا الجزء من الجزيرة، لا يوجد فى أى مكان من العالم، فى المغرب أيضًا توجد شجرة قريبة توصف بأنها ابنة العم، اسمها براكو Prako، أما شجرة سوقطرة فاسمها دارسينا سينابار: Darcenna Cinnabari.

يقول بركة الشاعر من عائلة سعيد: إن من أطلق الاسم هم المصريون الذين تتوقّع الجزيرة مجيئهم تمامًا كما كانوا يفدون فى الزمن العتيق، هم أول من تعرّفوا على هذه الأشجار، وجدوا فيها ما جابوا البحار بحثًا عنه، إنه درجة اللون، لم يكن مطلوبًا اللون الأحمر بكل ما يحتوى، إنما درجة معينة، معروف أن الألوان يمكن حصرها، أما الأمر فهو الإحاطة بدرجاتها، إنها لا تنتهى، تتحدد بالضوء والظلال ودرجة الميل وما يفد من سحيق الكون، لماذا بذل المصريون ما بذلوا؟

تقول رواية قديمة: إن ملكًا مهابًا من الفراعنة أحب زوجته، عشقها، كانت جميلة، سلسالة، حنونة، محبة لسائر المخلوقات، إذا اكتمل اتحادهما عند ممارسة الحب تتوهّج وجنتاها بلون أحمر لم يعرف مثله، لم يره لا فى الزهور ولا إبداع الفنانين ولا فى الألوان المصاحبة لبزوغ الشمس وغيابها، بعد رحيلها أوشك سليل حورس الابن أن يجنّ ألمًا، ومما توصل إليه الحكماء المعالجون، جمع كل ما يمتّ إليها، بعكس المتبع الشائع، إخفاء ما يتصل بالنقود جلبًا للنسيان، وكان مما طلبه تلك الدرجة من اللون، تمكّن كبير المعلمين فى قرية الفنانين التابعة المعبد الأكبر من التعرف عليها، قال: إنها لا توجد إلا فى عمق المجرات، وفى جذع شجرة ما فى مكان ما، لم يُحدد، هكذا بدأ البحث ولا يعرف أحد هل لحق بدرجة اللون أم أنه أحد أحفاده، لا تفاصيل شافية حول هذا الموضوع.

ينكر آخرون ذلك، يؤكدون أن المصريين أدركوا فاعلية دماء الأخوين فى علاج الاضطرابات المعوية وتقوية المناعة وتطهير الجروح والشفاء من الحمى.

أهالى الهضاب التى تنمو عليها الأشجار يهزّون رؤوسهم نافين هذه المزاعم كلها، إنما يتصل الأمر بالطائر المقدس الذى أرسله المصريون إلى الجزيرة التى عرفوها منذ أزمنة قديمة، سعوا إليها من أجل اللبان النادر، كانوا يضعونه فوق الفحم فى قدس الأقداس ليفوح على مهل مع مواد أخرى تنتمى إلى البريّة والبحار السبعة، كلما بلغوا أرضًا أطلقوه لكنه كان يعود دائمًا، عندما بلغوا سوقطرة حطّ فوق شجرة من تلك الأشجار، أقام فوق غصونها ولم يره أحد بعد ذلك، حتى ذلك الحين لم تكن الجذوع تنزف دمًا إذا جرحها أحدهم بسكين.

ما نراه ليس إلا دماء الطائر المرسوم على بعض جدران المعابد والمقابر، الطائر الذى يموت ويُبعث من بقاياه مرة أخرى، يمتّ بصلة ما إلى الحجل المعتزل، وربما كان هو، من يدرى؟

يتقدم شاب فارع، نحيل، يحيط خصره بتنورة طويلة الألوان، ملامحه نتاج تلاقح أجناس شتى من أفريقيا والهند، سوقطرة محطة على طرق شتى ومسارات مختلفة.

يمسك بسكين مدبب الحافة، يتمتم بما لم أتمكن من سماعه، يغرز المقدمة فى لحاء رمادى اللون، يحركها قليلاً، على مهل يبدأ النزيف، قطرة نحيلة، ضامرة، رأس دبوس، تليها أخرى، يتزايد السائل، يسارع الشاب بتلقيه على ورقة شجر صغيرة، أحاول الإصغاء إلى الأنين غير أننى لا أرصده إلا فى درجات الأحمر المختلف تمامًا عن كل ما عهدت، أحمر فيه كافة الألوان النقيضة، يميل أحيانًا إلى أصفر، مرة أخرى إلى أزرق، فما أعجب وما أغرب.

يؤكد الشاب أنه يصغى إلى أنين الشجرة، لا مثيل له، حاد رغم خفوته، لا يعرفه إلا من اعتاد واقترب، يقول إن كافة المخلوقات من

...مر وشجر وحيوان وطائر، فى بر الجزيرة أو بحرها المحيط، كلها ...الم، تبكى وتضحك، هنا من يعرف تلك الأصوات، البعض يمكنه ...ماوية، أنواع شتى من المخلوقات البحرية، بعضها غير مصنف، لم ...رف عليه علماء الأحياء من شتى الأجناس، حتى أهل الصين الذين ...ددوا الصلات مع كل دابة فى البر والبحر.

السلاحف النادرة لا تأتمن إلا أرض الجزيرة على بيضها، ما من ...لقة مماثلة، خاصة عندما يفقس البيض وتخرج السلاحف الصغيرة عابرة الرمال صوب البحر، فى الشواطئ الأخرى يختفى أكثر من ...صف العدد، إما لالتهام الأسماك المتوحشة وغيرها من دواب البحر ...اها، أو الطيور القادرة على الرؤية ليلاً، عدا سوقطرة، العدد الذى يخرج من البيض يصل كاملاً إلى المياه.

يقول بركة:

هذه الأشجار لا يمكن أن تنمو فى أرض أخرى وإلا ما تكررت رحلات المصريين، قال إنهم جاءوا، فى البداية حاولوا نقل البذور، ثم الجذوع مغروسة فى طينها، وعندما يئسوا من استنباته هناك أقروا التردد فى مواقيت معلومة.

سألته مبهورًا بما أسمع:

مازالوا يترددون؟

نعم فى ذاكرة القوم.

فى البداية تمهلت، قال إن المصريين لم يصلوا بهداياهم وأطبائهم وأشعارهم وكلماتهم، إنما تركوا وعدًا بالوصول، هذه الحالة من الانتظار تتجدد مع كل طلة شمس.

حرير أخميم

بدأت سفرى إلى ألمانيا حيث إقامة مقدّرة لمدة شهر ونصف الشهر، تلك مدة طويلة بالقياس إلى ما اعتدت أن أقضيه، بدأت بمكوث يسير فى فيينا، بالضبط لمدة ثمان وأربعين ساعة.

بعد ساعتين من وصولى توافد علىّ بعض من قومى المقيمين فى المدينة التى لم أشعر أننى غريب عنها لترداد أغنية أسمهان فى مسامعى، «ليالى الأنس فى فيينا»، أبدوا من الحفاوة ما تأثرت به، لم ألتق بأى منهم رغم وجود أحد أقاربى، من مواليد جهينة، من عائلة مقلد، تجاوز الأربعين بعامين، أصلع تمامًا، يمتلك عربة أجرة، يعمل عليها، أخبرنى أنه اعتبر نفسه فى إجازة منذ لحظة وصولى، يضع نفسه تحت إمرتى ليلاً أو نهارًا، مرّ بظروف صحية مؤلمة، جراحة عميقة فى المسالك، الحمد لله على كل شىء، بدا فرحًا، مؤتنسًا بى، فخورًا بانتسابنا إلى منشأ واحد، مضينا إلى النادى المصرى، فيه التقيت بعم جمعة بائع الزهور، كان مقاتلاً فى حرب أكتوبر، خاض معارك عنيفة بين صفوف قوات المظلات الخاصة، لا يتحدث إلا عن التناقض بين الهول الذى شاهده، والمصير الذى آل إليه عندما اضطر بسبب عسر حاله إلى الهجرة والتقلّب فى مهن شتى، منها غسيل الأطباق، وحمل الأثقال، هو من حارب ودنا من الحافة الفاصلة بين الحياة والأبد.

سأذكره مرارًا، حتى بعد توحدى وبدء خرجتى وانتهائى إلى هذا المرتفع.

صباح اليوم التالى، جاء مقلد، صحبنى إلى ضفة الدانوب، إلى متحف الأحياء الطبيعية، إلى القصر الرئاسى، قبل أن أصل إلى نهاية شارع يشقه الترام، لمحت على الجانب الآخر ملصقًا ضخمًا، إعلانًا عن معرض للفنان الفرنسى كلاين، هذا ما استنتجته، لبى مرافقى ما طلبت، استدار راجعًا، توقف قرب المبنى العتيق الذى ذكّرنى ببعض المبانى الروسية الضخمة، إنه حظى، عرفت كلاين من الكتب التى اعتدت شراءها لكبار الفنانين، من أعرفهم ومن أجهلهم، غير أن ما أيقنت منه أن لا شىء مثل الأصل، اللوحة الواحدة أراها فى كتابين بألوان مغايرة رغم الأصل الواحد، كلما أتيحت لى الفرصة أحاول رؤية كافة ما أقدر عليه خلال أسفارى، أحيانًا تلعب الصدفة دورًا، كما حدث عندما نزلت مدينة تورينو وعندما قصدت المتحف المصرى مشيًا من الفندق الذى أقمت فيه، مررت على مبنى يغطى واجهته إعلان عن معرض لفرناندو بوتيرو، هكذا رأيت صدفة ما تأملته طويلاً فى الكتب، مخلوقاته البدينة، المنتفخة، دخلت المبنى، تتعدد محتوياته، متحف كلاين يشغل صالة فى الطابق السفلى، تحت مستوى الشارع، يمشى إلى جوارى مقلد مسرورًا لأننى سوف أرى شيئًا أهتم به، أرغب فى معاينته، يقول لى إنه لأول مرة ينتبه إلى هذا المبنى وثراء ما فيه رغم أنه يمر به يوميًا تقريبًا ولعدة مرات نقل إليه رجالاً ونساء.

أخيرًا وصلنا إلى صالة مستطيلة، إضاءتها خافتة، أولها شاشة تعرض فيلمًا للفنان فى مرسمه، فى الشارع، فى مطعم يتناول كأسًا من النبيذ، غير أننى لم أجد لوحاته التى لا يستخدم لها إلا لونًا واحدًا،

الأزرق بدرجــاته، لاشيء إلا الأزرق، وهـذا اللون دال على الأبدية عند المصريين القدماء، إن لم يكن هو ملمحها وجوهرها، هذا معرض لرسائله، لكتب عنه، لكراريس يومياته، لأننى أجهل الألمانية فلم أدرك هذا عندما لمحت الملصق، مقلد يتحول سروره إلى أسف لأننى لم أجد ما أبحث عنه، ما كنت أود مشاهدته، لم يسمع بكلاين ولا يعرف شيئًا عنه، لكنه أظهر إحباطًا حقيقيًا لأننى لم أوفق تمامًا، قلت له فلنسع إلى الصالات الأخرى، المجاورة لم أكمل تفقدها، تحتوى على أوان معدنية من الألومنيوم، حديثة، مختلفة الأشكال، لا يتشابه منها اثنان، لم أدر المغزى ولم يعجبنى الشكل أو المضمون، عند القاعة التالية توقفت أمام فراغها الأعمق وضوئها الأخفت وشيء لم أحدده، بدأ ذلك عندى عندما التفت لأقرأ اللافتة بحروف سوداء على أرضية سوداء، غير بارزة، بل إن ثمة شيئًا فيها يجعلها متوارية، نائية حتى عمّن يقف أمامها، الكلمة التى أدهشتنى، جعلتنى أحملق.

أدقق.

أخميم.

لم أفض مباشرة إلى مقلد، لكننى عندما أخبرته راح يضرب كفًا بكف، مرددًا أخميم هنا، سوهاج هنا، بلدنا هنا ولا أحد يعرف، سبحان الله، سبحان الله! القاعة مخصصة لحرير أخميم، قطع، شذرات، بقايا، لحسن حظى أن الوقت ما يزال، أمامى ست ساعات على موعد إقلاع الطائرة إلى برلين، إذن يمكننى التأنى.

معروف ما يثيره اسم أخميم، لكن ما يحدثه ذكر الحرير فغريب مستبهم، غامض لذلك لم أخض فيه طويلاً، اقترن الأمر عندى بالأسئلة التى تظلّ بلا أجوبة، لماذا الحرير فى أخميم؟ لماذا حرير

أخميم؟ فى أى عصر عرفت البلدة دودة القز، وفقس اليرقات، وفرز الخيوط ونسجها وصباغتها، كيف والحرير أمر يخص الصين؟ فى كل ما رأيته من مخلفات وأثاث جنائزى، لم أعرف إلا الكتان، الكتان قماش مصرى تمامًا، وإن حيرتنى شفافية تلك الأردية على الأجساد الأنثوية الممشوقة، نفرتيتى على ظهر المقعد، نفرتارى بينما إيزيس مرتدية تاج حتحور تأخذ بيدها على العامود الأخير فى عمق منزل أبديتها، تلك الوصيفة أو الخادمة فى مقبرة الوزير رخميرع، تقف مولية ظهرها إلى الناظرين فى وضع غير مألوف بالنسبة لكل ما رأيته، ممشوقة، سمهرية، بشرتها غامقة، ربما نوبية، ترتدى ثوبًا أبيض، شفّ إلى درجة لا أعرفها فى أى نسيج، فلق مؤخرتها يبدو واضحًا جليًا، دائمًا أستعيد تلك الوقفة وهذا الحد، أيمكن أن يكون حريرًا هذا؟

أنحنى لأدقق الرؤية من خلال الزجاج، الفاترينة فى هيئة مستطيلة، ارتفاع الكتب.

قطعة من بقايا ثوب لامس جسدًا إنسانيًا، ربما امرأة، أو رجل، حرير يرجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد.

أعتدل، أول مرة رأيت النقوش الأخميمية فى متحف القرون الوسطى بالحى اللاتينى، بالتحديد قرب طريق سام ميشيل، عرفته أيضًا بالصدفة، كنت قاصدًا رؤية معالم تلك القرون فى أوروبا، فوجئت بقاعة مخصّصة لنسيج أخميم ويبدو أنها قطع امتلكها يومًا أحد القادرين، لم يكن بينها حرير، إنما كتان ونوع آخر من الخيوط لم أقدر على تصنيفه، ترددت عليها مرات، أحدّق فى العيون الفسيحة التى تتضح أحيانًا وتتغمغم أحيانًا أخرى، تنجلى وتبهت، هكذا الأمر فى فيينا، تطالعنى العيون وأطالعها، تلك النظرة غير محددة الاتجاه،

المصوبة إلى حيث يصعب التحديد، الدوائر المتعانقة، خطوط رهيفة، أوتار، أوتار متشابهة غير أن الأنغام المنبعثة منها لا تتشابه، لا تنتهى، كذا الألوان، غير أن ألوان هذا الحرير غميقة، إلى الداخل، ممعنة فى الذهاب إلى بعيد، ربما لعتاقتها، أو لخفوت الضوء، حيوانات يمكن أن تحسبها كلابًا أو غزلانًا، أوز ريشه مثلثات يتوسط كل منها مربع، تماس ما بين الأزرق والبنى، ما يشبه حصانًا على أرضية ياقوتية يلتفت برأسه ليقطف شيئًا ما من غصن غير باد، لا أدرى لماذا انبعث عندى ألم غامض حسرة على ما فات، حروف لا يمكن نسبتها إلى لغة بعينها، لكنها يمكن أن توحى بلغات شتى، فمرة عربية ومرة آرامية وربما تنحو إلى العبرية وقد تقترب من اللاتينية، مرة أخرى، أتساءل: لماذا لم أنتبه إلى فوات السنين؟ أبريل، مايو، يونيو، يوليو محطات متوهّمة لمسيرة لا ندركها عند وقوعها إنما عندما نقارب الانتهاء منها، أتوحى لى الأشكال بهذا كله، من قال فى نص قديم: ما قادك إلا الوهم؟ ربما ابن عطاء الله السكندرى، بالضبط هو، ليس الوهم إلا الاسم، أتفرق بين الأشكال، مرة إطار لقلب بلى ولم يعد موجودًا، ومرة إشارة، وأخرى تلميح، وثالثة إيماءة، أدق الأحوال ما كان إشارة، الإفصاح نهاية، مقاربة اندثار، كنت أشبه بمن غطس فى جب فبدا له ما لم يتوقعه قط وما لم يدر بخلده، طوانى حرير أخميم، ليس فى حد ذاته، بل ما حواه من إشارات ولوامح وتنبيهات شتى.

نبهنى مقلد إلى مرور الوقت، تلك لحظة سأندم على مفارقتها كثيرًا، لماذا لم أبذل الجهد بتثبيتها؟ بالبقاء عندها؟ لم تكن أحوالى قد وصلت إلى ما وجدت عليه حالى فيما بعد عندما صفّيت أمرى وبدأت خرجتى، لعل البداية جرت هنا، طوال إقامتى فى ألمانيا أتساءل: لماذا جئت؟ ماذا جنيت من الترحال؟ لماذا لم ألزم؟

مازلت أعجب لوجود تلك المجموعة التى أعدّها الأثرى والأنفس من حرير أخميم، لم أقرأ عنها فى مراجعى، لم أجد لها إشارة فى أى كتاب مما سعيت إلى اقتنائه بحثًا عن أسباب حرير أخميم.

بإغماض العينين يمكننا رؤية ما استعصى علينا إدراكه بالبصر الحديد إذا أتانا وأدركنا، بعد مفارقتى المتحف مضطرًا بدافع السياق صار لحرير أخميم عندى حضور أقوى، يكفى أن أذكره، فقط الحروف الدّالة حتى تنبعث أشكال ورؤى، مخلوقات يصعب تصنيفها، تفسير أجهل مصدره يقول إن ما نقش على الحرير، خاصة الأشكال الهندسية ليس إلا اختزالاً لعلوم الأقدمين، خبيئة من العلوم ماثلة فى الألوان ودرجاتها، الخطوط التى تبدو كالأحاجى، لعل يومًا يجيئ فيه من يقدر على فك المستعصى كما فعل شامبليون ومن سبقه فى دراسة الهيلوغريفية.

بعد أن عانقت مقلد ودعا لى بالسلامة فى سفرى هذا، انفردت بحرير أخميم بدءًا من دخولى المطار، انطويت عليه وأمعنت فيه رغم أن مقلد لم يزعجنى ولم يقطع صمتى، لم يتكلم إلا ردًا علىّ، خلال المحاضرة ظلّ يتطلّع إلىّ راضيًا بوجود أحد ممن يمتّون إليه متحدثًا فى الأجانب، مُحتفيًا به منهم، لا يعنيه ما يصله منّى أو ما يستوعبه أو لا يستوعبه مما أقول، هكذا قرأت ملامحه.

ما صرت متأكدًا منه أن نقوش الحرير ذاكرة فى حد ذاتها، غابت دلالاتها غير أنها تنتظر الفضّ، تعجبت من الترتيب والمساق الذى قادتنى إليه الصدفة، أما ما صرت موقنًا منه بالنسبة إلى نشأة الحرير فى أخميم ما سمعته فى سوقطرة من أحد أقارب سعيد السائق الذى استقبلنى بترحاب وحدثنى أثناء حشره الغليون الخزفى بالتنباك المعدنى، قال بعدما أكد منزلة المصريين الخاصة فى الجزيرة وانتظار

قدومهم مرة أخرى كما كانوا يجيئون فى الزمن القديم، معهم الذهب وكل ما هو ثمين، كان وصولهم يتم فى يوم معلوم كذا سفرهم، تمامًا مثل الصينيين، يجيئ المصريون من أجل اللبان، يجيئ الصينيون سعيًا إلى دماء الأخوين، يصحب الصينيون نساءهم، يجيئ الرجال المصريون فقط، أهمهم رجال دين، هم الذين يتلون التعاويذ المقدسة أثناء الحصول على عصير الشجر النادر، ويحمل كل منهم الجدار والأوعية التى صيغت بشكل معين، لم يحدث اجتماع أهل الشرق والغرب، كل منهم يحرص على أن يغادر أو يصل فى توقيت يحقق ذلك، يفارقون قبل بدء موسم الأمطار والضباب وغياب الجزيرة حتى عن أنظار أهلها، لم يحدث اجتماعهما معًا إلا بعد انقطاع المصريين لثلاثة أجيال متعاقبة وعندما وصلوا الجزيرة جاءوا فى غير التوقيت الأول، مما أدى إلى التقائهم بأهل الصين الذين لم يبلغوا بعد المرام الذى حددوه من جنى دم الأخوين بجرح الشجر المنتصب المتألم، غير أن لقاء جرى أثمر ما أثمر، إذ وقع فى دائرتى بصريهما - رجل وامرأة - كل منهما، ولم يخرج الكاهن المصرى من عندها، كما أن الأميرة الصينية لم تفارقه، لا يعرف واحد من أهل الجزيرة ماجرى، كلاهما لم يفترق رغم أن الكاهن غير مسموح له بمقاربة امرأة أجنبية، كذلك الأنثى الرقيقة التى لم تنطق إلا أنغامًا، لم تكن امرأة فقط، إنما أميرة، لا أحد يعرف أية مرتبة؟ لكنها كانت ذات خصوصية وتبجيل، رغم المحاذير، رغم التنشئة، رغم المخاوف، إلا أن الرجل رجل والمرأة امرأة، مضى كل منهما إلى الآخر، منها تعلّم المصرى أسرار الدودة والشرنقة والخيط، كان ذلك أثمن ما عاد به إلى بيت الإله فى أخميم، زودته الأميرة باللوازم، ماذا قدّم لها مقابل ذلك؟ ماذا عادت به إلى الصين من الكاهن المصرى الشاب؟ لم يخبرنى مدخّن الغليون السوقطرى الذى بدا واثقًا مما يقول وكأنه شاهد على ما جرى.

صبا

عندما عرفت إقامتى فى القرنة، بدأت النزول بين تلك العائلة الطيبة الضيافة والتى تعامل كل نزيل باعتباره فردًا منها يمتّ إليها بصلة أيا كانت جنسيته، أدّى هذا إلى هيام بعضهنّ برجالها، مثل تلك السويسرية التى عرضت الزواج على محمود الذى يبدو بقامته وعينيه كأنه قُدّ من حجر لم يعرف بعد ولا تصنيف له، لا هو ديوريت ولا صوان ولا جرانيت، لونه مخالف، أما عيناه فلا تتطلّعان إلى الأمام، إلى الموجود الحالى، بل إلى توقيت انقضى وصار مطويًا إلا أنه قادر على استبصاره، هامت به وأرسلت إليه ليزورها بالفعل، وعندما عرضت الزواج اعتذر، امرأته ابنة عمه، أن يقترن بأخرى فهذا مستحيل رغم أن الشرع يكفل له ذلك، عرضت أن تكون قريبة منه على أى وضع، أخبرها باستحالة مفارقة القرنة، ليس لأن عياله هناك وأهله، لكنه قُدّ منها، يمكنها اعتباره مثل إحدى النخلات أو قطرة ماء فى ساقية قديمة أو لون فى مشهد عتيق، أخيرًا اقتنعت، طلبت أن تقضى إجازتها السنوية فى البيت، كذلك الأعياد والمواسم، تصل فى مواقيت معلومة، تأوى إلى غرفة أعدّها لها، ليس فى بيت شقيقه الذى يُؤجّر غرفه للزائرين مثلى بعد أن فرشها بما يكفل الراحة، أثاث بسيط من جريد النخيل «عنقريب» حشايا وأغطية نظيفة، تأوى عند محمود،

بين عائلته، تشاركهم فى الخبيز، وإعداد الطعام والغسيل، وبعد الغداء تجلس لتقرأ فى كتاب، ألمح العناوين الفرنسية والألمانية، أُحيّيها بإيماءة من رأسى، تقابلنى بطلّة أمومية وانفراجة ثغر تطلب القربى، قلت لمحمود مداعبًا : إنها تبدو كزوجة ثانية، ابتسم، أحيانًا أُقابل هنا بصمت من نوع خاص، صمت لا أعرفه من أى بشر آخرين، لا ينفع معه جدال أو إلحاح أو تكرار، لم يقل لا ولم يقل نعم، كل ما قاله بعد يومين : إنها جزء من البيت، كأحد الأقارب، سعادتها عندما تنظر إليه وعندما تكتمل العائلة حول طبلية الغداء أو العشاء، يمكننى رؤية البيت من مرقدى، من مرقبى هذا، تمثالا أمنحتب الثالث علامة واضحة، من نافذة غرفتى أراهما، أطلّ عليهما، غرفة بالطابق الثانى، أنزلها دائمًا رغم أنها ليست الأوسع أو الأوثر لكنها تتيح لى أيضًا رؤية الشروق، أحرص على إبلاغ محمد بقدومى مبكرًا حتى يحجزها لى، لم يقل إنها مشغولة قط، حتى تأكدت أنه ينقل من يشغلها قبل وصولى، يخطرهم مقدمًا؟، حدث لى مثل ذلك مع صاحبى التونسى فى باريس، لكن لتلك تفاصيل أخرى ليس الآن أوانها.

هل جال بخاطرى يومًا أننى سأقيم معلّقًا فوق صخرة مشرفة على كل ما تجوّلت فيه، الحرص كله إذا تحركت، حولى الأفق لكننى لا أقدر على الخطو هنا أو هناك، البيت، البيت، أراه يذكره أكثر من تحديقى إليه.

حرصى على المكوث فى تلك الغرفة لرؤيتى الشمس عند بزوغها، مقدماتها من اللون الأحمر القانى بكل درجاته فى الشتاء، البرتقالى الممتزج بالأصفر صيفًا، صعودها البطىء، المتمهل فى أيام البرد، تسارعها فى زمن القيظ حتى إننى تابعت تحركها البادى ذات صباح من

أيام مؤونة، رصدت تقدّمها فى الفراغ، عندما أستند بظهرى إلى قائم ...اش تبدو من بين نخلتين تتلامسان فى مواجهة النافذة، رغم ...مت المعقم إلا أننى أسرى إلى النغم أو يسرى نحوى فيعبرنى، ...حد به، أرحل بدون سفر، هذا حالى منذ تعرفى على الأنغام ...ارية، التى تتخللنى، تزايدت معرفتى بها خلال إشرافى هذا على ...ما يمكن يصل إليه بصرى، والأهم بصيرتى.

النغم المطلع عندى، ما أبدأ به، مقام الصبا، إنه دليلى فى التنقل بين الأنغام، إنه محتواى، مرشدى، قاطرتى التى تشدنى إلى ما كان وما يكون منّى، لا أدرى أيهما يستدعى الآخر، مجرد نطقى للاسم، أو عندما يلوح بدون القدرة على تحديد مصدره أو أطرافه، أو حدوده، ...افة العناصر أذكر أسماءها فتوجد، عداه، يحيرنى الصبا، حظى من ...م، نصيبى، لذلك أوقن أننى جلبت الشجن، ما مصدر ذلك؟ لا أعرف، كيف بدأ الأمر معى مبكرًا عندما كنت أنفرد بين صحبى ...ملائى، أجد نفسى نائبًا عنهم رغم أننى بينهم، دائمًا ثمة فارق، ...أفكر فيه لا يخطر لهم، وما أحاول معرفته لا يبذلون من ...له الجهد.

ما مصدر الأسينة؟

هل استمعت أمى عند بدء حملها إلى عازف ربابة متجوّل أو فى السوق أو بمناسبة أجهلها، أشد الأصوات مجلبة للدفين منى تلك الآلة ذات الوتر الواحد، القديمة مثل القدم، أراها على جدران المقابر، فى المتاحف، خاصة فى اللوفر الذى أفرد قسمًا للآلات الموسيقية، إما ...رية أو هوائية، وهذا مصدر كل نغم حتى الآن، وسيظل الأمر كذلك إلى أن تفنى الأنغام كافةً إذا فنيت!

صديق قديم فرح بأول مولود له، يضع إلى جواره سماعة صغيرة تبث موسيقى، يقول: إن الجنين فى بطن أمه يتأثّر بما يصل إليه من مويجات، يطرب، يحن، يشجى، لذلك يحرص على بث الأنغام على مقربة من الابن الذى لم يتجاوز عمره أيامًا معدودات، يأمل أن يتشبّع بها، أن يشب عازفًا أو مؤلفًا.

يحيّرنى مصدر ميلى إلى الصبا، أهى وحدة أمى أثناء حملها بى وغناؤها الحنين إلى البلدة، إلى أمها، إلى مكان البدايات، عندما سافرت ابنتى إلى الغرب لتبدأ حياتها هناك دارسة، راحت تطوف البيت، توقفت عند مدخل غرفتها.

«مع السلامة يا أودتى. . . ».

لم تكن تخاطب جدرانًا، إنما تهتف بحقبة، بعمر مولّى، لكن ما أدهشنى ذلك التطابق، التشابه، نطقت العبارة بالإيقاع نفسه، الوضع الذى اتّخذه جسدها أيضًا، الانحناء قليلاً فى اتجاه غير محدد، تمامًا مثل أمى عندما كانت تطوف مسلمة، مودعة أركان البيت قبل سفرها إلى الصعيد لقضاء شهور الصيف، تخاطب الجدران والصنبور وعتبة المدخل، تلتقيان رغم تباعد الظروف، اختفاء طرف وسعى آخر.

هنا يشبّ مقام الصبا جالبًا موسيقى لا أعيها، لا أعرف نغماتها، لا أقدر على استرجاعها أو ترديدها مع أنها كامنة فىّ، سارية عندى، إنها تلك الموسيقى التى سرت من الكون إلى مكوّناتى التى كانت متفرّقة فى الكون الفسيح، صاحبت سعى ذراتى إلى بعضها حتى تمام تلملمها وتلاقيها لتتفاعل فى رحم أمى دافعة بى إلىّ، لا أعرف مدى تأثير خفقات قلب أمى علىّ، هل أقضت مضجعى أم هدهدتنى جنينًا، كذا إيقاع سريان دمها فى الأوردة والشرايين؟ أنغام أمدتنى، بعضها

صاغنى، كللنى وسوّانى، لدفقها تأثير، لن أعرف مداه، ولن أطّلع إلى كنهها وفحواها، تمامًا كتلك الأصداء التى يثيرها عندى اسم النغم «صبا».

عندما أُتيح لى فى زمن متقدم بالنسبة لطفولتى، قريب منى الآن أن أصغى إلى الأصوات التى تتردد فى جنبات قلبى، أذينه الأيمن، مدخل الأورطى، ومخرج الميترالى، أصغيت إلى أصوات الكون من تدافع موج على شاطئ، وهبوب رياح من نقطة بداية لا يمكننا تحديدها، وسريان نسيمات، وهزيم رعد، كلما نقل الطبيب جهاز الرصد إلى مكان مغاير فوق صدرى، أصغى إلى الصوت المكبّر، المنبعث من الجهاز، أعجب لما أصغى إليه، كل صوت ينسب إلى عنصر فى الوجود مصدره قلبى، يتجسّد عبر دقاته، بقليل من الإصغاء يمكننى رصد ما لم أعرفه من أنغام، كلها كامنة فى مكان ما، موضع، حيز، متواجد، سار، فاعل، الموسيقى فى الموجودات، تنتظم الكون، كل ما نقوم به أننا نكتشفها، عندئذ تنبعث النغمات، لكل حظه، وحظى الصبا.

متى بدأ؟

ربما مع هدهدة أمى لى حتى أغفو، أنام فوق حجرها، أو مسندًا رأسى إلى كتفها، كلمات متوارثة، كذلك النغم.

نام، نام، وأنا أدبح لك جوزين حمام.

نام، نام يا حبيبى، أمك السيدة وأبوك الإمام.

لا أذكرها عندما كنت المعنىَّ بها، إنما من شدوها عندما كانت تنطقها لينام شقيقى الأصغر سنًا أو شقيقتى، إنها الأنغام الأولى المنطوقة،

سعت إلىّ واستقرت عندى، ومع بدء سعيى تزايدت، تعددت مصادرها، تلاوات القرآن، الشيخ محمد رفعت والشيخ عبد الباسط والشيخ مصطفى إسماعيل، أصغيت إليه طفلاً عندما دخلت مسجد سيدى مرزوق الأحمدى على ناصية الدرب، بل إنه يمنح هذا الجزء من شارع قصر الشوق حضوراً خاصًا، لسنوات تالية تردد على مسمعى مجيئ الشيخ هذا باعتباره حدثًا يمكن حساب ما قبله وما بعده، تمامًا كما أدركت البعض من أهل الناحية مازالوا يستعيدون مجيئ محمد عبدالوهاب وغناءه ليلة كاملة فى سرادق نُصب بميدان بيت القاضى، فرح أحد أبناء زكريا صبح تاجر النحاس القديم، يمضى الوقت، وأقابل فى باريس صاحبى السورى بدر، من الذين يقولون: الشيخ مصطفى إسماعيل وكفى، لا قبله ولا بعده فى فن التلاوة، أهدانى تسجيلين نادرين، أحدهما من دمشق، والآخر الذى دهشت لحصوله عليه من مسجد سيدى مرزوق الأحمدى عام ثلاثة وخمسين، إنها القراءة، التلاوة التى أصغيت إليها عند مرورى بالثامنة، أصوات الإعجاب، ذلك التهليل وتلك الآهات، وأصوات أخرى لم أقدر على تمييزها أوجد بينها بشكل ما، بحضورى، بأنفاسى، لم يعبّر أبى بالصياح ورفع الصوت، إنما يهزّ رأسه فى صمت، وعنه أخذت تلك العادة، لم أعرف أن تلك التلاوة والصلاة التى أعقبتها كانت تُبثّ مباشرة إلا عندما أصغيت إلى المذيع فى النهاية، ينبئ المستمعين بالمكان، وبالانتقال إلى دار الإذاعة، فما أعجب.

لصوت الشيخ مصطفى إسماعيل الظهيرة، وللشيخ محمد رفعت ما قبل الغروب، للمواقيت أنغام شتى يوحّدها ويصل بينها الصبا.

فى الصباح الباكر، الأغانى المنبعثة من مذياع الجيران أو المقهى، لم

نملك جهازًا يخصّنا إلا بعد تجاوزى السادسة عشر، دائما ما أصغى إلى الأغانى والموسيقى عبر الفراغات التى تفصلنى عن الآخرين، معلقًا، مرهونًا بأمزجتهم الخاصة وعلاقات البعض بنا، جارتنا الأقرب تتركه مفتوحًا فى الخميس الأول من كل شهر، حفلة أم كلثوم التى يستعد كل بطريقته للإصغاء إليها، كذلك فى ليالى رمضان، اللحن المميّز لمقدمة ألف ليلة وليلة، متتالية شهرزاد لريمسكى كورساكوف كما عرفت فيما بعد.

للصباح أغان، أم كلثوم «يا صباح الخير يالّى معانا» «الفل جميل» أما شدو ليلى مراد فيبث التفاؤل فى الموجودات كافة، «مين يشترى الورد منى وأنا بنادى وغنّى؟»، موسيقى اكتشفها وسوّاها وقدمها أقدمون ومحدثون، بهم تقطر النضارة فى الفراغ، ويهفو القلب إلى ما لا يمكن تأطيره أو تعيينه.

عند الظهيرة، قبل نشرة الثانية والنصف، ثلاثون دقيقة من أغان مختلفة لتلك التى بدأ بها اليوم، جبل التوباد، محمد عبدالوهاب، على بلد المحبوب ودينى لأم كلثوم، ليلى مراد طبعًا، أولاً وأخيراً.

أيام الجمع تعنى بابا شارو، الموسيقى المؤدّية إلى ما يطلبه المستمعون، فيما بعد عرفت المقطوعة المأخوذة عنها كاملة، عندما أصغيت إلى الأصول تذوّقتها بيسر، بل إننى صرت فرحًا لاكتشافها مرة أخرى واستعادة لحيظات كثيفة من زمنى الخاص المولى.

الموسيقى تمييز، لولاها انطمست معالم الأحاسيس، إذا كان الوجود الظاهر لا يمكن التعرف عليه بدون الألوان القائمة على التناغم أو الضدية، فإن الوجود غير المرئى يستحيل إدراكه بدون الأنغام.

كان لابد أن يمضى زمن طويل حتى أهتدى تمامًا إلى ما يشجينى ، لكل إنسان نغمه ، دفين ، مبثوث فيه ، محظوظ سعيد من يعرف ، من يقف عليه ، وقد كابدت طويلاً حتى اقتنعت أنه الصبا ، الأنغام حولنا ، داخلنا ، فقط نحتاج إلى إدراكها ، إلى تلمُّس السبل إليها ، إما بالبصائر النافذة ، أو عبر المجهود المبذول ، وفى كافة الأحوال لابد من الإصغاء إلى ما يحتويه الاسم ، اسم النغم .

الهفوف

يتوارث أهالى الهفوف أبًا عن جد مرويّات شتى تؤكد أن بلادهم بما
وت مستقر للذكريات المنسيّة ، المتوارية عن أصحابها ، لهذا كثر
الوافدون إليها من جهات الدنيا الأربع بحثًا عما كان منهم ، لم يعرف
الك إلا قلة محدودة عبر العصور المتوالية ، ولأنه لا شىء يخفى مما
الك إلى علم البعض ، قصدها من تعلقوا بأشخاص غائبين حملوا لهم
ال دة وتعلّقوا بهم ، غابوا عنهم إما بسبب الهجاج أو الفقد ، جاء علماء
حثون عن مسائل طال استعصاؤها فظنوا أنهم واجدون بغيتهم فيما
يه الأولون الذين أدركوا كنه العلوم كلها ولم يدوّنوها ، أيضًا بعض
أهل الموسيقى الذين سرحت منهم أنغام أوشكوا أن يدركوها غير
ها أفلتت منهم ، كثيرون من هؤلاء بعد عبورهم الصحراء الغميقة
اجأون أن الإنسان لا يمكنه استعادة إلا ما يخصّه هو ، ما غاب عنه
بعضهم قصدها مشيًا ، ظنًا منهم أنه كلما ازدادت المشقة سهل
الصول إلى المبتغى ، معظم من وصل لم تعرف أخباره فيما تلى ذلك ،
اله منهم ظهروا فى ديارهم بعد انقطاع الرجاء منهم وفناء الأمل فى
دتهم ، لم يدل أحد من هؤلاء بنصائح أو خطوات اتّبعوها تسهّل
لى القاصدين الآخرين مهامهم ، شرط الاحتفاظ بالذكرى التى كانت
فقودة عدم الإفصاح عنها ، إنها تبزغ عبر الخواطر لا غير ، ليست من

مادة الحلم حتى، لذلك يقول بعض القوم فى الجنوب الذى أويت إليه:

هفّ علىّ الشىء الفلانى. . .

هفّ علىّ فلان. . .

هفوف من السرعة الخاطفة، البداية التى لا تبقى لحيظات حتى، تلحق بنهايتها مجرد بدئها، بقدر ما يحتفى أهالى الهفوف بالغرباء القادمين إليهم بحثًا عما كان منهم من لحيظات وشوارد تحتوى الفائت، الغائب، فإنهم لا يسمحون بالإقامة الدائمة، كلما قصرت أوقات العابرين كان ذلك أفضل وأنقى، لم تعرف مدة محددة يجب عدم تجاوزها، ولكن كلما جاء القاصد فجأة ومضى بسرعة فهذا أفضل، لم يعرف شيئًا قط، حتى ما يعرف مشكوك فيه غير مؤكد، إلا أننى تعلّقت بالهفوف على أمل أن أبلغها يومًا فأسترجع ما كان منّى، جرى ذلك بعد أن تواترت أعراض النسيان عندى حتى خشيت أن يكون ذلك أول أعراض الزهايمر، رعبى أن يدركنى، أن أضلّ عن نفسى، ليس الوجود إلا ذاكرة، وليست الذاكرة إلا أسماء، كما أن الأسماء ذاكرة لذلك نسيانها يُعدّ علامة تآكل حواف الحضور، فإذا تزايد تقدّمه يختفى المرء وهو ما يزال يتنفس ويتلفت ويستدعى عبثًا ما كان منه فيأتيه فى غير الاتجاه المرجو، فى مقتبل عمرى عرفت الطريق إلى اجتماع أسبوعى ينتظم أفراده حول شيخ جليل، لحسن حظى أننى التقيت به واستمعت إليه وحاورته رغم فارق العمر والخبرة، إلا أنه كان يفسح صدره لكل ساع مريد، ومن طلّته نحوى يبدو أنه توسّم فىّ شيئًا، رحم الله الشيخ العلامة أمين الخولى.

ينظر إلىّ من غياهب الخلاء، يفد علىّ من الهفوف، يطلّ ويمضى

بعد أن أراه متصدرًا الجلسة مساء كل أحد، مما وُصف به بعد غيابه أنه لم يترك كتبًا ومؤلفات كثيرة لكنه ترك رجالاً كثيرين ورغم أننى لم أعرفه إلا من خلال هذه الندوة، فإننى أعدّ نفسى واحدًا منهم.

أراه يحاول تذكّر اسم شخص ما، يلمس جبهته بيده، يقول:

«يبدو أننى بدأت أنسى. . .».

ثم يقول:

«أول ما تفقده الذاكرة الأسماء. . .».

خلال السنوات الأخيرة، وقبل اكتمال الأسباب التى أدت إلى بدء حرجتى، تغيب عنى أسماء شتى، بل يحدث أحيانًا أن أرى المعنى، الملامح عندى، الصوت، أما الاسم فلا، عبثًا أحاول تذكره، بعضهم يدرك ذلك فيسألنى: من أنا؟ يبدو أنك لا تتذكرنى؟ فى البداية كنت أخجل، لا أعترف بالنسيان، ومع تكرار الحال صرت أبادر بالاستفسار: ذكِّرنى من أنت فالنسيان واقع؟ أكثر من مرة نطقت الجملة التى أصغيت إليها منذ حوالى نصف القرن.

«أول ما تفقده الذاكرة الأسماء. . .».

تمامًا كما لفظها الشيخ، أنطق بإيقاع صوته نفسه، لو أننى سعيت إلى الهفوف فربما أدركت الأسماء التى غابت عنى، عندما رأيت الاسم لأول مرة على الشاشة المعلّقة فى الطائرة توضّح المسار، كنت قاصدًا الخليج العربى، بعد تجاوز الرياض، بدت الهفوف، صرت أترقّبها بعد أن حفظت المراحل، إذا خلت الطائرة من شاشة فإننى أضبط التوقيت، من محطة القيام إلى الأجواء القريبة من الهفوف، لم أمرّ فوقها مباشرة، إنما بالقرب منها، لا يعرفها إلا من يقصدها لذاتها، الاسم منحنى بعضًا من أسرار مكوناتها، ما يتّصل بها، صرت إلى الهفوف بلا سعى، بدون أن أبلغها، من غير إقامة.

نيسابور

حتى أهلى لم يعرفوا هذه الحقيقة عنى، تلك النبوءة التى أخبر عنها مغربى فتح الكتاب لى بحثًا عن دواء يشفينى من الصداع النصفى الذى خرجت من رحم أمى إلى الدنيا به، ويبدو أننى سأغادر به فلم ينقطع حتى الآن، فقط تتفاوت فترات حلوله، قال المغربى الذى كان فى طريقه إلى مكة مشيًا إنه وجد أمرًا بعيدًا عمّا يبحث عنه، غير أنه يخصّنى، سألت جدتى لأمى عائشة، ما هو؟ قال مشيرًا إلىّ لا تجعلوه يبلغ نيسابور، إذ قصدها ثم وصلها لن يخرج منها حيًا.

لدى ما يجعلنى أحذر النبوءة، ما جرى لأخى محمد ذكرته أكثر من مرة، عندما انتابته حُمّى بعد عودتنا من جهينة، فى الطريق إلى عيادة الطبيب الذى لم نكن نذهب إليه إلا مضطرين رأت أمى التوقف عند الشيخ عطية، رجل كله بركة، معروف بنفاذه وقدرته على عمل الأحجبة والتعاويذ الواقية، تبعها أبى صامتًا، تطلّع الشيخ الذى كان يجلس فوق كنبة عريضة إلى شقيقى، قال متأنيًا: إذا طلعت عليه شمس الجمعة ربما يبلغ المائة.

فارق شقيقى فجرًا، تمامًا فى الوقت عينه الذى اكتمل فيه كل من أبى وأمى، هكذا مثلت عندى نيسابور كموضوع يجب أن أتحاشاه، ألا أصل إليه، بل ألا أسعى إليه، عندما بلغت طشقند وسمرقند وبخارى

وخرتنك، وصحراء تركمانيا المدفون فيها الشيخ الأجلّ نجم الدين كبرى كنت أعرف أننى ناحية نيسابور، لذلك خشيت أن أجد نفسى فيها أو على مقربة منى، عندما زرت الولايات المتحدة ثلاث مرات لأغراض مغايرة إحداها إجراء جراحة فى صميم قلبى، كنت أستفسر عما إذا كان هناك مكان اسمه نيسابور؟ أعرف أنهم أطلقوا على مواضع معينة أسماء من العالم القديم، غير أن حذرى كاد يتلاشى فى بلغاريا، من مصيف فارنا ركبت مع امرأتى وابنى قاربًا خرج فى نزهة بحرية باشتراك معلوم، كان ذلك فى نهاية السبعينيات زمن الشيوعية، لم يخطر لى قط أن مدينة تقع هنا على البحر تحمل الاسم، عندما بدأت المرافقة الحسناء تتحدث عن الأماكن التى سنبلغها وذكرت اسمًا اشتبهت به، رفعت يدى مستفسرًا وعندما بدأت فى ذكر معلومات إضافية عن نيسابور، حمدت الله أن القارب المكوّن من طابقين لم يتحرك بعد، كان لدينا الوقت للاعتذار والمغادرة بعد أن أبديت الرغبة فى العودة إلى الفندق متعللاً ببدء نوبة صداع نصفى مفاجئة، تلوح بوادرها التى أعرف، حتى يومنا هذا لا تعرف زوجتى الدافع الحقيقى.

حرصى على عدم بلوغ نيسابور صاحبه أمر أو هاجس نقيض، ألا أقيم كثيرًا وإلا أدركتنى، لم يكن المعنى الذى وصلنى من النبوءة يعنى مكانًا محددًا على الخريطة، لكنه شىء كامن هناك يمكننى أن أبلغه من هنا، أو شىء لا أقدر على تحديده بالمعنى الدقيق يمكنه أن ينطلق من هناك ليدركنى هنا، بقدر حرصى على ألا أصل إلى نيسابور، أن أحذرها، أحيانًا أبالغ، فعندما أطالع اسما ينتمى إليها أتلفّت حولى، حتى إننى أقارب سيرة الخيّام وأشعاره وجلاً فربما يكون بعضها نظم هناك، بدأ ذلك عندما علمت أنه أمضى وقتًا هناك، انطبق ذلك على علماء ونحويين ورحّالة أيضًا، بحرصى نفسه على التجنب قام حرصى

على الفرار، لو لزمت ربما أدركتنى نيسابور، لذلك جبلت على الرحيل منذ يفاعتى، فى ندوة أقامها بعض الأصحاب لإبداء الرأى فى بعض مما أقوم به، قال أستاذ جامعى مرموق يُكنّ لى مودة ويبدى اهتمامًا:

«غريب أمره، دائمًا على سفر، دائمًا فى شروع . . .».

سألنى صاحب أجنبى بصيغة تعجب ربما تحمل استنكاراً ما . .

«لكنك تسافر كثيرًا».

لا أذكر سياق الحوار، أستعيد الجملة، النظرات الحائرة، ما يدفع بظل ابتسامة إلى ملامحى أنهم كافةً لا يعلمون.

سنجم رع

فى البدء كنت أنطقه «سنجم رع» ثم أصغيت إلى صحيح الاسم من الأستاذة باسكال التى قام بينى وبينها هفوف لم يستمر إلا ليلة ناقصة، ثم دار الزمن دورته وحللت بالقرب من موقعها ولو أنبأنى إنسان بما صرت إليه لاستوثقت خلله، فماذا سيدفع بى للإقامة فى الجبل؟ لكن هذا ما جرى، ولكل ما عرفته أكثر من تفسير.

الصحيح هو «سى نجم رع».

لا أعرف عدد المرات التى زرته خلالها قبل أن يستقر بى الحال أعلى الجبل قرب استراحة الأثريين الفرنسيين انتظاراً لأمور سيطلعنى عليها رسول يصلنى فى وقت معلوم من طرف الشيخ الطيب، من مرقدى يمكننى معاينة ومشاهدة قرية الفنانين بمنازلها، طرقاتها، شارعها الرئيسى، بمرافقها، فى أويقات الهدوء وطوافى بالنواحى التى يمكن لبصرى الإلمام بها، كنت أجول فى تقسيمات القرية، الحالة الوحيدة من نوعها التى وصلت إلينا سليمة واضحة تقريبًا، فكل ما تم العثور عليه يمتّ إلى الضفة الأخرى من الوجود حيث اللاوجود، قليلة تلك الآثار المتبقية من الحياة اليومية، نادرة القرى أو المدن التى وصلت إلينا بقاياها أو ملامحها، دير المدينة حالة فريدة، من مكمنى أوشك على الإصغاء إلى أحاديث القوم، تلمُّس النظرات الخلسى، شكوى أم من ابن جاحد،

وقت توزيع الطعام، الحبوب، السمن، الطحين، كل المواد بقدر من المعبد الكبير، القرية تحيطها المرتفعات، الوادى قصىٌّ عمن يقيم فى الضفاف الأخرى، ومن يجول فى الغرب، كأنها معزولة، بل كانت معزولة فعلاً، ليس لأن من يعيشون هنا هم من يجسدون ملامح الآلهة، إنما لمعرفتهم بالمسالك والدروب المؤدّية إلى مراقد الأبدية لأبناء الآلهة وخدمهم وأتباعهم بكل ما تحوى، لدهور وأجيال ظلوا فى هذا المكان الذى بقيت خطوطه العامة واضحة، هنا سعى سى نجم رع وامرأته وابنته.

مثل علاقتى بالغرب كله، لم تعن لى التفاصيل شيئًا عندما جئت أول مرة إلى أن طالعت وعرفت ولزمت، بعد أن قرأت وتأنّيت، بعد أن استوعبت، بعد أن ابتعدت واقتربت، بعد أن حللت المكان عينه صرت كأنى أتنفس بدلاً منه، أرى ما لم يقع عليه بصره أثناء سعيه.

المرقد ضيق، الدهليز المؤدى إلى أسفل ممر يفضى إلى رحم، كل مدخل هنا يليه نفق ضيق مباشر أو مموّه، لكنه يفضى إلى حقيقة واحدة لاغير، المستقر الأبدى على هيئة رحم، إذا كان السعى بدأ من رحم الأم المفردة، فإنه ينتهى إلى رحم الأم الأكبر، الأرض، لذلك كانت الدفنة فى العصور الأولى توضع على هيئة الجنين داخل المشيمة، فى المتحف البريطانى رجل من أهل نقادة التى عشتها من خلال الاسم قبل أن أحلّ فيها ضيفًا على المطران بيمن، الرجل الطيب الذى أحمل له ودًا، الإنجليز نقلوا المجهول الذى لا نعرف اسمه مع التربة التى وُسِّدَ فيها قبل خمسة آلاف عام على الأقل، ما قبل الأسرات، لأننى لم أعرف اسمه سميته حتى تتوثق العُرى بيننا.

إنسان البدارى

هذا ما أطلقته عليه حتى يمكننى استعادته، تأمل رقدته، محاولة لمس المعانى الكامنة، كل مقبرة بمثابة رحم أبدى لذلك يكون الشكل أقرب إلى البيضاوى، لأن اسمه مبهم لا يمثل لى إلا كما يرقد فى المتحف عرضة سهلة للناظرين، المارين بسرعة، أو المتمهلين الدارسين، أما سى نجم رع فصحبة وعشرة وملاطفة.

يغلب على مرقده اللون الأصفر الصريح الواضح، كل ألوان المرقد خصبة، طازجة كأنها بُسطت بالأمس، عندما بدأت الفهم، ابتسمت، كنت أقف بمفردى متطلّعًا إليه، خاطبته وكلى ثقة أنه يصغى. . .

«طبعًا يا عم، شغل المعلم لنفسه».

أتوقف أمام الجانب الشرقى، أسعى معه أثناء حصاده القمح فى حقول يارو، الجنة الأبدية، أدقق البصر فى العيدان الصفراء الكثيفة، أكاد أصغى إلى هسيس النسمات إذا مرت، إلى صوت المنجل إذ يجز السيقان، زوجته بردائها الأبيض خلفه، حقول يارو تتخللها قنوات المياه، تحيط بها كالإطار، هذا طبيعى، لابد من أنهار فى الجنة، لابد من زرع، الحصاد والغرس أيضًا، دفن البذور وتفتق الأرض عن الزرع ثم اشتداد السنابل، كافة التفاصيل، حياة موازية، غير أنها تخلو من الأعداء، أرض بلا سفك دماء، بلا هجوم ودفاع، بلا تمترس واختراق، تكون الجنة، أتجول بالبصر على الجدران، رغم محدودية الفراغ إلا أن الثراء اللونى غزير، ما يأخذنى كل مرة، ما أرغب فى تأجيل رؤيته حتى أتأنى وأحاول الاستيعاب، ما يدفع بى إلى الإفصاح عن إعجابى ودهشتى نطقًا رغم انفرادى وشساعة ما بيننا من وقت، فهو ذلك المنقوش، المرسوم أعلى الجدار الشمالى عند زاوية لقائه بالشرقى، الصاعد مع انحناء السقف.

الشجرة الأنثى.

جذعها بنى غامق، عريض، ربما سنط، جميز، كلاهما مقدس، تنبثق من الأرض، يخف البنى تدريجيًا، عندما يقترب من الأحمر يبدأ ظهور الأنثى، تنبت متفتّحة إلى أعلى، مفرودة اليدين والأصابع، مندمجة بالأغصان المثمرة للأوراق، شجرة أنثى، أنثى شجرة، كل شجرة امرأة، كل امرأة شجرة، أغمض عينى فى مهجعى، أستعيد المشهد الذى صاغه سى نجم رع حبًا وتدثّر به راحلاً، أحار، أوشك على الإدبار، عندما أوشك على ملامسة المقصود أمسك، فالغاية أبعد، والأمر أشمل.

كعب الأحبار

أحيانًا يوجد الاسم بدون وجود المسمّى أى الشخص أو الشىء المقصود الدلالة عليه، لكن إذا وُجد الاسم مثل الشخص، نطق واستنطق، مثل ذلك معروف، طالعته مرارًا ثم عشته مع كثيرين، لكننى أضرب مثالاً بكعب الأحبار، بعد تدقيقى فى كافة ما نسب إليه، ما روى عنه أيقنت أنه مجرد اسم، أطلقه بعضهم ليحقق وجودًا لمن لا يوجد حتى يتم الإقناع بما يُقال سواء كان خبرًا، أم مقولة منسوبة لعلم ما.

كعب يعنى وجهة، والأحبار جَمْع حبر، أى العالم، العارف، المطّلع، التقى، الورع، المتبحّر، جامع الأصول، مدرك الفروع كلها، إليه ينتسب كل ما يمكن أن يتلاشى، خاصة ما يتصل بسير الأولين، يبدأ الأمر بإسناد المتن إلى اسم قريب، ثم اسم أبعد، إلى أن ينتهى إلى كعب الأحبار فيورد كاملاً لأنه علم لا بعد بعده، أو يبدأ الأمر به، ثم يسند متنقلاً بين أسماء خيالية إلى أن يستقر عند أبينا آدم، أو أحد الصالحين الذين عاشوا قبل نزول الإسلام، قبل التدوين، طالما نطق كعب؛ فهذا يعنى بث الثقة ودقة القول، رغم يقينى بعدم وجوده إلا أن هيئة تشكلت له عندى، طلّة لا يختص بها أحد غيره، قعدة فى ركن مظلل بغمامة أو أغصان متداخلة تستند إلى قوس من حجر، أرى

القوس ولا ألمح ما يتصل به، هل يقوم بمفرده أم أنه جزء من بناء؟ لا أعرف، المهم أنه فى خلفية كعب الذى يجلس متربعًا، ينطق بالأقوال المتوارثة، خلاصة الحكمة، عصارة التجربة ومفاتيح الأسرار، رغم يقينى أنه لم يسع يومًا، إلا أنه دائمًا يمثل لى من اللا أين، متطلعًا صوبى، يحدثنى، ينبئنى، يزيدنى علمًا بما لا أعلم.

قطر الندى

لم تصلنا ملامحها أو قسماتها عبر لوحة، لم يكن مسموحًا به وفقا للمعتقد وهذا غريب، الخوض فيه خطر، فلنحذر رغم أننى ناء عن كل الأطر، عن أى حدود، لم أقرأ مثل ذلك فى كافة ما طالعنا، لكن يكفينى ما يصلنى عبر الاسم إذ يلفظ على مسمعى، عندما أطالعه، أو أصغى إلى الكلمات الشجية المصاحبة لموسيقى البرنامج الإذاعى المبثوث دائمًا عند الظهيرة، لا يردنى، لا يتردد منبعثًا من ذاكرة أنغامى إلا ظهرًا، أردد مطلع الأغنية التى صيغت خصيصًا لها، ليس عن تكليف إنما عن شعور قوى بالوحشة إذ تنأى الجميلة عن الديار.

قولوا لعين الشمس ما تحماش

أحسن حبيب القلب صابح ماشى

أما ترديد الاسم المصاحب له تلك النغيمات فكأنه وداع أبدى، نذير، هكذا جرت المقادير، أرحل مع مفرداتها المكونة لوجودها، حروف اسمها ومنطوقها، طلتها الرقراقة، بشرتها التى تشف عما بداخلها لرقتها ورهافتها، شرابها من لباب الزهور، وطعامها من العسل الجبلى المصفى، لم تقرب من الألبان إلا حليب الكون. حضورها إيماءات، سعيها إشارات، نظراتها حنين دائم وتطلّع

ومعاودة، خطوها تجسيد للخفق الأول، كل ما شابه أول خفق الجنين، بداية التكوين فى الرحم البيضاوى، الحيز الذى يجرى فيه تلملم الذرات، المقابل للفراغ المحدود، تحت الأرض الذى ستتفرّق فيه الذرات عن بعضها فيكون فناء وتجددًا، هكذا لخّص شيخى الأكبر محيى الدين الأمر عندما قال إن الحياة جمع والموت تفرقة، يكفى نطق اسمها لتتدفق الأفكار كلها، مثلها لم يخلق فى البلاد، أقابلها عندى بنفرتارى، جميلة الجميلات، أحلاهم، خاصة لحظة انقيادها إلى الربة حتحور، مرتدية القميص الأبيض الشفاف الذى تبين منه قسماتها، ثوبها أبيض تمامًا، لا يداخله لون آخر لأنها مبرأة، طاهرة، ناصعة، لا أستعيد تلك اللوحة الجدارية إلا وأثق أن هذه من تلك، سريان واحد وإن تنوع، أصداء لأصل خفى وإن تعددت عبر الأوقات.

يقطر الندى مع رحيلها من مصر إلى بغداد، لماذا قبل أبوها؟ لماذا أفسد ما يمكن أن يكون؟ كيف طاوعه قلبه على انفرادها، وصل مصيرها بآخر لم تلتق به قط، حتى وإن كان الخليفة، ممتد النفوذ، قائم البسط، كيف تُدفع إلى فضاء لم تغرد فيه قط، لم تحلق فيه مرفرفة؟

أمها أدركت ذلك، اشترطت أن يصحب ابنتها كافة ما اعتادت عليه وألفته حتى لا تنال منها الغربة إلى درجة أنها طلبت بناء قصور مشابهة لما عرفته فى مصر على امتداد المراحل، كل منها مزود بالحشايا، الألوان، الأوانى، العطور التى اعتادتها، حتى درجات السلالم وارتفاعات الجدران، فكأنها أينما آوت لم تفارق أمكنتها، صحبها فريق الموسيقيين العارفين بشجى أنغامها، كذا وصيفاتها العالمات بالروائح التى يمكن أن تبهجها وتلك التى تبعث عندها الشجى، ما تعبق به الأمكنة.

تحقق هذا كله حتى صار من أعاجيب الأمور، يتناقله الناس، رويه المصادر، لم يكن فراقها لأبيها سهلاً لذلك أقدم على تنفيذ كل ا صرّحت به الأم وما ألمحت، غير أن ما فاتهما جوهر الغربة ونفاذها، نه الانتقال ذاته، مهما حاول المرء لن يعتاد التبدل، التغير، لن يألف ـع الرحيل، ما من إقامة مع الاغتراب، ومع الإمعان يفقد المرء ما كان ـه شيئًا فشيئًا فيصير إلى غيره ولا يستمر هو هو، لذلك يقول الناس ى بر مصر الجنوبى الذى تدثرت به مع خرجتى وهم يضربون المثل: ظر من مرآة الغريبة، فما أعجب وما أدل!

خرجت قطر الندى من دنياها، يوم خطوها مفارقة مهدها وملعبها أترابها حتى وإن صحبها صورة من هذا كله، خلفت الآفاق التى اعتادتها، ضفتيّ النيل، ألوان الغمام ذات يوم خريفى، هبة النسائم، حضورها حفلات البهجة فى القصر من وراء خباء أو مباشرة مع صويحباتها.

أستعيدها فأحزن عنها ولها، ليتنى أقدر على وقف رحيلها هذا، روح منى ثم تطرقنى مع مثول اسمها عندى، فأتبدد بين الدنو الابتعاد، بين اقتراب وإدبار، فكأنى أحاول أن أعلق بدائرة، نقطة داية هى عين نهايتى، ليتنى أعلم.

درب الأربعين

ما من مؤتمن فى المعمورة مثل الكلاف، كلماته نهائية، عند البدء وعند الوصول، تُحصى له الإبل فلا يوقع ورقة، ولا ينطق يمينًا، يسلّمها إلى التاجر عند المحطة الأخيرة فى بيرقاش قرب عاصمة المحروسة، مصداقية محصلة أزمنة متعاقبة وتجارب متوالية وعناصر مفروغ منها، منها طول الطريق الذى يُقاس بمدة قطع الإبل له، أربعون يومًا لا تنقص ولا تزيد إذا اتبعت الأصول، كذلك انفراده وعدم اتصاله بطرق أخرى، أو وجود أى حضور بشرى، حتى الوحوش تتلافاه، ليس أمام القوافل إلا أن تتبع المسار، فإذا أصاب الإعياء بعض الإبل ونفقت فلا يمكن تكذيب الكلاف لأن ما يقوله، ما يفضى به ليس له تأويل، إنه ما جرى بالفعل.

ما من درب مطروق رغم اكتمال جدبه وقفره إلاه، إنه الأشد قفرًا، الممتد، الذى يبدو أحيانًا فكرة هائمة أكثر منه رمالاً ممهدة تمتد حتى تختفى عند الأفق، لا يوجد له وصف مُدوّن، ولا تعرف أسماء المواضع التى يمرّ بها إلا فى أفئدة الكلافين وذاكرة الإبل التى توصف بدقتها وقوتها، حتى إن الذكر منها أو الأنثى يختزن الإساءة الصادرة عن شخص ما عدة سنوات، وفى اللحظة المناسبة ينطلق ليثأر مما لحقه من أذى، لو فقد الكلاف وعيه، لو أصابه أذى فإن الجمل الذى يحمله

يمضى متقدّمًا القطيع كله، يعرف أين التوقف، وأين ومتى يمكن استئناف السير، جمل الكلاف ليس جزءًا من القطيع المقاد إلى السوق للذبح أو البيع، إنه فى أهمية الكلاف نفسه لأنه يعرف الطريق، قطعه مرات، والجمل الذى يتاح له السلوك مرتين يحفظ أدق التفاصيل ويلحق بما لا يدركه أحد، تلك المسارب التى لا يمكن عبورها، التى لا تؤدى إلى شىء منظور، وتؤدى إلى كافة ما يستعصى على الإدراك.

قبل الخطو لابد من ترتيب وإقدام، لابد من معرفة الوقفات والحركات، نوعية الطعام والمقادير، والمسافات بين الماء والماء، الكلاف عليم، ملم، عنده من الموروث ما يجنبه الضلالة ويؤمن له التزام الدرب، ومعرفة علامات هبوب العواصف المباغتة التى يمكن أن تخفى قطيعًا بأكمله بدون أن يبدو منه أثر، ومازال البحث عن جيش قمبيز الفارسى قائمًا رغم مضى حوالى ثلاثة آلاف عام، إنه الدرب الوحيد الذى يمكن القول بعذريته، لم يمارس الجنس على أى جزء منه ولا فى أى لحظة مرت به، قطيع الجمال لا يمكنه إلا الخطو، لا يُترك إلا للراحة، أما أن يأتى أحدها الآخر فمحال لأن الجمل لابد من انفراده بأنثاه، حتى إن انعاظه لا يكتمل إلا إذا تأكد أنه بمنأى عن العيون تمامًا، وفى الريف يضطرون إلى تغطيته برداء، كذا يعرف الكلافون من الخبرة المتوارثة أن من يقدم على إتيان غلام لن يرجع ليسلك الدرب، بالطبع لا يمكن التفكير فى الأنثى، لأن إناث البشر لم يطرقنه ولم يعرفن معالمه لشدة المشقّة وتعاظم الجهد، عندما يسعى المرء، يتحرك متقدمًا فى البر أو البحر تنأى الرغبة ويضعف النزوع، لا تقوى الشهوة إلا مع الإقامة، ورغم مرات المكوث للراحة على الدرب إلا أن ثمة عرفًا قديمًا يحفظ للدرب عذريته، إذ من الأفضل، الأحسن ألا يحدث جماع حتى باليد.

الكلاف الماهر هو من يعرف العلامات المتوارثة، المؤدية، لا يبدأ العبور إلا بعد دربة يتلقاها عن الأقربين، لذلك يصح ما قاله بعض المعنيين أن الكلافة لا تكون إلا أبًا عن جد، باستثناء من أغواهم الدرب، سواء اقتربوا منه خلال ترحالهم أم قصدوه لما سمعوه عنه، كثيرون لم يقصدوه لذاته، إنما دنا منه خلال ارتحاله فتعلق وصار إليه، ليس بمفرده، إنما بصحبة القطيع وضامنه، يحكى الكلافة عن الذين علقوا بالدرب، غمرهم فضاؤه ونداوة ضوئه، شيء يستعصى على الوصف دفع بهم إلى التوقف عن التقدم الذى لابد منه، رفضوا النصح وبقوا ليتبعوا ما لا يعرفونه، ضاع أثرهم وانقطع خبرهم تمامًا، لكن بعضًا منهم عملوا صبيانًا للكلافين، فضلوا الرواح والمجيء، ويُعرف هؤلاء بالمأخوذين أو المضروبين بالدرب، ينتمون إلى أجناس شتى وملل مغايرة، من يمكث يهلك، الدرب للعبور، ليس للإقامة، على امتداد الأربعين يومًا اللازمة للإبل كى تقطع المسافة، لا يكون إلا مكونًا عارضًا تلمسًا لظل أو درءًا لقيظ وعر، لا منازل، لا محلات، الدرب خلوٌ من هذا كله، وعلى من يدخله أن يخطو مع أخذ الحيطة، وإلا فإنه الرحيل المبين.

يعرف الكلافون المدى الذى يمكن للإبل أن تتحمله، سيرًا وظمئًا، يعلمون بالأنغام التى تسرى عنها، وتلك التى تبث حماسها أو تهدئ من روعها، ويحفظون المواقع التى يمكن للعصا أن تلمسها وبأى درجة، متى يستحسن السير ليلاً؟ متى يصبح الرحيل أفضل نهارًا؟ يتقنون الاستدلال بالنجوم، الثابتة والوافدة.

يراقب الكلاف الأكبر من هم أصغر منه، ويضعونه هم تحت أنظارهم، كل منهم يخشى على الآخر ما يعرف بسرحة الخلاء، هذا

حال معروف لمن خبر الدرب وقطعه فى كلا الاتجاهين، إذ يحدث أن يفتتن المرء عند نقطة معينة تمتد فيها الرمال إلى حيث لا يمكن التعيين أو التدقيق، يبدأ التأمل فيما تدركه حواسه من ألوان وتدرّجات، ما يشفّ عنه الفراغ، ما يدركه من رؤى، عندئذ يبدأ الخطو مبتعدًا عن الجمع، ملبيًا ما رآه أو سمعه هو لاغير، لكل أسبابه الدافعة إلى السرحة، كما تختبئ الإبل فى بعضها البعض عند لواح العاصفة الوشيكة، كلها ظاهرة ومتوارية أيضًا، كذلك البشر المصاحبون، كل منهم مشدود إلى الآخر، إلى القطيع أيضًا، تتّصل الأسباب بين الإنس والإبل خلال الترحال عبر الدرب، لكن إذا حاد أحدهم وانفرد ثم سرح فلن يعرف أحد له طريقًا ولا دليلاً.

فى الزمن المولى لم يقتصر الدرب على حركة قطعان الإبل المساقة إلى الذبح، إنما كان للعاج والعطور والجلود النادرة والأعشاب المرصوفة والمنحوتات الخشبية وأحيانًا الذهب والفضة وكريم الأحجار، كان الطلب على ما يجيء من الجنوب من كافة الأقطار، حتى إن بعضًا مما عبر الدرب وجد طريقه إلى أباطرة الصين ومهراجات الهند وخاقانات المغول وسلاطين بنى عثمان، وفى طوب قابو سراى قطع من العاج الذى لا يوجد إلا فى دارفور، وكردفان، بداية السعى إلى الشمال.

ألفة الدرب معروفة، ولكن غير المعروف من يألف الآخر، الإنسان أم الخلاء؟ كيف يوفق من يرحل عبر المفازة؟ كيف يقيم فى الحركة؟ كيف يأنس بدون إقامة؟ كيف السكن فى الترحال؟ قرب نهاية الرحيل يقطع العهد تلو الآخر، لا عودة، غير أن المضروب بالدرب لابد أن ينثنى، معروف أمر هؤلاء، أخذهم الدرب عن أهلهم، عن مقاصدهم

التى تطلّعوا إليها أول أعمارهم، أخذهم عن أنفسهم، ليس لدى معظمهم طموح إلى ادّخار مال أو بناء مقر، هل شرع من يرحل فى تشييد مأوى، هل أقام أحد على جسر؟ ليس الدرب إلا جسراً بين بلدين، بين نقطتين، بين جهتين، وصل بين مأوى ومأوى، لا يرفض الكلاف من يسعى إلى الالتحاق بالركب إلا إذا شكّ فى أمره، كأن يكون القاصد هاربًا من عار لحقه أو جرم ارتكبه بغير حق، كيف يمكن معرفة ذلك؟ لا شىء يخفى فى الدرب، كل أمر منجلٍ مهما بالغ صاحبه فى إخفائه أو محاولة طيّه، مع بدء الخطو يقتربُ الواحد من الواحد، الإبل أولاً ويتبعها الإنس، شيئًا فشيئًا يتحركون كلا لكنهم واحد، يعرفون التلبية ومتى يكون الوقوف، لا مفرَّ من الخطو فى اتجاه واحد، إلا من أدركته السرحة، من يشرد يضل، ومن يضل لن يصل إلى ما يقيه أبدًا، لاشىءَ أمامه إلا العدم المحض مهما بدا الخلاء حافلاً بالرؤى، ضاجًا بالأصداء، لألاءً بالألوان، يحدث أحيانًا، خاصة عند هبوب الرمال الناعمة أن تنفصل أعداد من الإبل، لا يرسل الكلاف من يبحث عنها، من ينفصل يضيع، لا نجاة إلا بالتزام الدرب، أحيانًا ينشأ ما ليس فى الحسبان، هبوب مباغت، تنتقل الرمال بين الرمال، تنطمس المعالم، هنا يتقدم الكلاف المتمكن، باستطاعته اقتفاء أثر من سعوا عبر الدرب منذ عدة أجيال، يهتدون إلى مواقع الخطى البائدة بمجرد النظر، يمكنه الاهتداء بأنفاس الراحلين شرط خلوص النيّة فى تقصّى المسار، يفضى العارفون لمن يثقون بهم أنه لا يمضى خلال حيّز معلوم، إنما عبر الروح، من روح إلى روح.

أنيس الجليس

عرفت فرقًا وشيعًا شتى من الحُسن، ملت مع الكافة حتى حيّرنى أمرى قبل أنَ يبلبل من يعرفنى ويطّلع على اليسير من مكنونى، مع أى هوى أميل؟ وأى عمارة أسكن، وبأى غرس يمكننى الشبوب والطلّ؟

غير أنى عرفت تنويعات من الجمال أخشع إزاءها، والكمال الماثل فيها أحتفظ بمسافة فلا أجرؤ ولا أقترب، بمجرد إلمامى ألزم، أضع حدودى حيث لا حدود أو علامات، منطق حالى يقول: هل من المعقول أن يسفر هذا لى؟ هل من العقل أن أتصور هذا من حظى؟ هل يلتفت من كان مثلها إلىّ؟

مرات حاولت وفى النادر اهتديت وتلوت، لكننى فى معظم المرات اكتفيت بما يعنيه النظر، واستدعاء ما عاينت عبر نطق الاسم، والتمرغ فى مدلولاته، هذا حالى عينها عندما وقع بصرى عليها.

كنت فى الواحات الداخلة، بعيدًا عن الوادى، مأخوذًا بالمكان الذى لم أعرف ما يماثله من قبل، لا فى طبيعة الأرض، ولا درجات اللون، لم أدرك حضور شجر الزيتون إلا فى هذه الناحية رغم أننى عاينته فى جزيرة قبرص واليونان والمغرب والأندلس، أما قرية القصر فمن أغرب ما عاينت رغم كثرة ما عرفت من معمار، هل أقول مدينة؟

لا أجدها مطابقة، هل أعتبرها قرية كما ذكرت؟، لا لست مقتنعاً، إنها أمل، إذن فهى القصر، كلها مبنية من الطين، كل دورها متصلة، مغطاة، أعنى شوارعها، حاراتها، دروبها، أزقّتها، نواصيها، مداخلها المؤدية، هكذا تبدو كأنها بيت كبير، حاو، شامل، متصلة، منفصلة كأنها المصائر، بُهرت وأخذت، كما جرّى لى فى أبيدوس والقرنة ورشيد وشرق النيل، وهزة رؤيتى للنخيل وما يعنى، من أين لى الإلمام بأنّ كافة هذه العناصر ليست إلا مقدمات لظهورها المقدّر فى حيز بصرى الفانى.

بالقرب من القصر، بين النخيل عينا ماء، كلتاهما على خط واحد، مسافة بينهما لا تتجاوز الخمسين متراً، الأولى تدفق ماءً بارداً طوال شهور السنة، عذب، ليس مثل مذاقه مذاق، ليس الماء مثل الماء رغم الشبه البادى، هذه العين تركت عندى أثراً وصارت، أما العين الأخرى فماؤها دافئ، ليس حاراً، بين بين، أقرب إلى السخونة، البخار يعلو أحياناً عند ساعات معلومة، لهذه العين قنواتها، ولتلك مساربها، متجاورتان، قريبتان، لكن شأن هذه مغاير لتلك فما أغرب وما أعجب، لكن فلأنتظر، فلم أتوقع ما ينتظرنى، رغم انشغالى بما سمعته عن عامل صعيدى جاء بمفرده، لم يأت ضمن جماعة من عمال التراحيل الذين يقيمون بعض الوقت حتى ينجزوا بناية أو يحفروا قناة ثم يغيبون، أقام عند الأطراف فمن النادر قبول الغريب هنا، رقّ له بعض كبار القصر لما سمعوه، هربه مطارداً بالثأر، لهذا عبر الصحراء إلى حيث لا يمكن لأحد من مطارديه أن يناله، اشترط عليه كبير الناحية ألا يمكث إلى آخر العمر، إنما هى مدة حتى يدبّر أمره، كان يجيد تسلق النخل، صار يقوم بذلك مقابل لقمة من هذا أو صدقة من ذاك، ينام فى العراء، حذروه من النزول للاستحمام فى أى من

القناتين، يمكنه أن ينزح ما يشاء، لكن لا يغمر جسده فهذا مُحرّم هنا، الماء نادر، طاهر، يسقى الأرض والضرع، غير أنه تبع هواه ذات فجر بارد، الماء الدافئ يغريه، خاصة أنه لم يكن فى متناوله، نزل قبل شروق الشمس فى القناة التى تأخذ المياه من العين وتسرى به بعيداً، شيئاً فشيئاً غمره الدفء، تسرّب إليه، إلى خلايا وخبايا لم يظن أنها عنده، أنه يحتويها، على مهل يتفكك ما طال وصله، يغمض عينيه، يحلّ عليه تعب لم يعرفه من قبل، يجثم قبل أن يفارقه مفسحاً لهذا الدفء غير المعهود، ينعس كطفل، يغمره الماء، لا يعى حتى إنه كف عن الشهيق والزفير، عندما وجدوه فى نهاية التفريعة، كان مغمض العينين، متمدّداً على ظهره، مخلصاً لما تسرّب إليه وحل عنه!

كلما استعدت الوقت الممهد لظهورها لاح لى هذا الصعيدى الهارب من الوادى إلى عمق الصحراء، القادم من موت إلى موت، لا أراه إلا فى مجمله، لحظة انطوائه على نفسه وغوصه فى المياه الدافئة التى لم يعرفها إلا مرة أولى وأخيرة فى حياته، لا أتمكّن من تفاصيله لأننى لم أعرف اسمه، حضوره فى ذاكرتى مجمل، تكوين لا تفصيل، هكذا شأن من لا أسماء لهم عندى، أما هى فدرب آخر مواز لحديقة غنّاء تُطلّ ورودها عبر الأسوار، ما بقى من الواحة خارج القصر أسوار من الطين تحيط بحدائق ينبثق منها النخيل والتين والزيتون وتلك الأيام.

كان اللقاء فى حديقة صغيرة قريبة من الطريق العام المؤدى إلى نجع حمادى وإلى درب الأربعين، كنت مشغولاً، فيّاضاً بدرب الأربعين، بالمضى إليه، بالخطو مسافة قصيرة فوقه، طموحى الأعظم أن أعبره بكافة مراحله، فى سوق الجمال قرب قرية بيرقاش التقيت بقادة القوافل من الجعافرة وكردفان والبجة، أجيال وراء أجيال تتوارث

الطريق، معرفة خباياه وأعراضه، عواصفه وأوقات صفائه وأفضل الأوقات لعبوره، والمجرّب من وسائل تفادى سفى الرمال وتحركها من موضع إلى آخر، غير أن ما علق بى تأكيد بعض من تخصصوا فيه وحفظوه شبرًا شبرًا، أنه عند نقطة معينة يرتفع فى الهواء ويمضى بالمسافر فوقه إلى حين حتى يميل عائدًا إلى الأرض مرة أخرى، وأحيانًا يكون الارتفاع نهائيًا لا رجعة فيه، ولأن أحدًا لم يرجع من هذه المسافة الخفية فلا يعرف أحد إلام المصير؟ هذه المسافة لا يعرفها إلا عدد محدود ممن سافروا عبره وتخصّصوا فى قطعه بصحبة القطعان وما حوت بضائعهم من خيوط غزل أو منسوجات وسكر وشاى وأرز أو دقيق، لقطع هذا الجزء شروط.

أتساءل: ما هى؟

غير أننى لم أواجه إلا بالصمت والتحديق الميئوس منه، أعرفه فى العديد من الوجوه التى مثلت أمامها بدون جرأة على المواصلة، لم يزدن هذا إلا توقًا وقد أمضيت قدرًا من عمرى أثق فيه أننى موشك على المضىَ إلى درب الأربعين، الآن عندى ثقة أننى عرفته، أننى قطعته من أقصاه إلى أدناه، أننى خبير به، أعرف متى أبدأ خطوى عبره ومتى أمتنع؟ لا أعرف مصدر يقينى هذا، ولا أعرف إذا كنت ارتقيت هذا الجزء الخفى الذى يجتاز ما هوأبعد من غلاف كوكبنا المحدود، ليس هذا غريبًا، فبعض ممن تحقق لهم ذلك لم يرجعوا، ومنهم الذى ظل جاهلاً بما مرّ به، ارتقى وسرح فى الفضاءات العُلا وانثنى راجعًا بدون أن يدرى أو يعلم، فما أغرب!

لماذا أذكرها فأجد نفسى فى درب الأربعين؟ أراه من أولى مراحله إلى آخره، بمنعرجاته واستقاماته، بضموره وانفراجه وقبضه وبسطه.

أعرف أنه ما من صلة تشبه انصباب الطريق بالطريق، فكل يفضى إلى الآخر، المرأة فى إحدى حقائقها طريق، كل أنثى مصير، منها الغاية وإليها المنتهى، فيها الولد، فيها البلد، ومهما شرقت أو غربت فعينى على أم الوجود، عذراء الكون، على حنوّها وحدبها، استمراريتها آلاف السنين، حتى تلك الليلة فى هذه الجزيرة النائية، آخر موضع تليق فيه الصلوات من أجلها، ورفعت الأدعية بعد صدور الأمر الإمبراطورى بتحريم ذكرها، لكن هل تبطل الأوامر حضور الأمومة؟ أخشى الاستطراد هنا، لكل موضعه، لا أودّ النأى عنها، إذ تلوح لى من أفقى المرأى أود التعلق بها، فكما برقت فجأة خبت بسرعة.

عرفت أن عددًا من الباحثين متواجدون منذ أيام، لكننى لم أطّلع على هيئتهم، لم أعرف أسماءهم أو جنسياتهم، يمر الأغراب بالواحات لكنهم لا يقيمون، الواحات مثل الجزر، للعبور وليست للمكث.

صفوف ثلاثة فى مواجهة منضدة بسيطة، فوقها جهاز تسجيل متوسط الحجم، أسود اللون، وصلت السيارات، سوداء، مهيئة للسفر الصعب، رباعية الجرّ، بين الحضور السفير الأمريكى وزوجته وحارسان زنجيان، متساويان فى الطول، يحتفظان بمسافة عند تحركه أو ثباته، نساء ثلاث يرتدين ملابس سوداء، اثنتان تلتحفان بعباءتين لونهما أسود، الأولى إلى يمينها، الثانية إلى شمالها، الأولى أكبر، الثانية أصغر، غير أن حضورها طغى وأفاض فلم يعد إلا هى.

أهابها، لذلك أطوف بها وهى غير ماثلة أمامى، لذلك أبدأ بثيابها، كانت ترتدى قميصًا طويلاً من حرير يصل إلى تحت ركبتيها، قماش

هفيف تحته منقوش بزهور صغيرة منمنمة ياقوتية، أو سماوية، أو خضراء، سروال يغطى حتى مقدمة حذائها قاربىّ المقدمة، إذا كان القميص ورديًا فالسروال أحمر قان، من قماش أسمك وأثقل، إذا كان القميص بلون السماء الصاخبة، فالسروال بلون البحر فى الأماكن الغميقة، يحيط شعرها غطاء شفيف، فكأنه همس، كأنه شفيف، ينبع لباسها منها، لا يأتيها من خارجها، لسبب لا أدريه ولم ألمّ به، كنت على يقين من نسجه فى أخميم، فهى عينها حريرية الحضور، أخميمية العينين، نخلية القوام، أما ما نادانى فولّيت صوبه بدون عدّة، بدون تأهّب، فتلك الملامح وهذه الطلّة، ما بين العينين جسر من أنفاس، وما بين العينين والأنف معبر من هوى، وما بين الأنف والشفتين معنى ماض لكنه لا يبين، لا يكشف عن جوهره، لذلك ليس بوسع الكائن الذى أوتى نعمة البصر والفهم الحسير إلا التطلّع والمد لعله يلمس قبسًا منها، وجنتاها ودثار، بارزتان، فلم يكن فى الإمكان إلا ذلك حتى تعلو الشفتان على ما عداهما، الشفاه مدخل، والفروج مداخل، وما بينهما درب ورحلة، تشابه مكين، للشفاه ملامح الفرج عينها، وليس هذا كله إلا زهورًا، لا تشبه زهرة الأخرى، أما تلك فباقة، مجمع.

أفضل الجلوس فى الصف الأخير، منه أرى وأرقب بدون أن يرصدنى أحد، لاحظت مركزية مدارها، من معها يتحدثن وهى المصغية، من بقربها يميل إليها ولا تميل إلى أحد، أرى وجهها رغم أنى أنظر إليها من وراء، كنت أحمل آلة تصوير صغيرة، ما شغلنى، كيف أتحايل لألتقط صورة لها بين الجمع؟ عندما بدأ مفتش آثار المنطقة إلقاء كلمة ترحيب بالضيوف الذين تكبّدوا مشقة الحضور لإرساء حجر الأساس لبداية المشروع العلمى لدراسة آثار المنطقة التى ماتزال بكرًا.

هنا قمت من مكمنى، بدأت به أولاً، بعد أن التقطت استدرت إلى

الحاضرين، لاحظت تحرّك الحارسين الشخصيين للسفير، أنّى لهما أن يعلما أو يلما بما أمرّ به، لا يعنينى إلا هى، فلا سفيرهما، ولا أى شخص آخر، حضورها ألغى ما عداها، كنت مستغرقًا تمامًا لأعيش، لأستوعب، لأتحسس لحيظات ظهورها، فللأنثى ظهورها الأول وما عداها تفصيل، تبدو فى مجملها اللحظة الأولى، ما يلى ذلك رقائق ترديد للأصل.

أصوب، فى اللحظة التى كان يوجّه التحية إلى متحف بروكلين، ضغطت الزر، فأمسكت باللحظة وصار ذلك عندى فيما بعد أثمن ما لدىّ رغم كل ما جرى وما تبع ذلك.

عدت إلى مكانى مضمّخًا بها، رغم معرفتى اسمها فيما بعد، إلا أنى لا أنطق إلا ما سميتها به لحظة ولادتها عندى، فلكل منهن لحظة وفادة إلى الدنيا، عند خروجهن من الرحم، وعند رؤيتى لهن، هكذا حالى مع كل من أحببت وإليهن مال حالى.

أنيس الجليس

جمالها مجمع، وقوامها وطن، حوت من الصنوف ما لا يوصف، شبت مسقية بالمعرفة والإلمام بأصول القدوم والانصراف، عازفة للعود، متقنة رسم سائر أنواع الخطوط من نسخ ورقعة ونستعليق وفارسى، لها فى هذا المجال شأن، غير أن مجال عملها واهتمامها العيون فى الحضارة القديمة، تعد رسالة علمية فى إحدى جامعات الشمال الأوروبى تحت إشراف أستاذ طاجيكى، مولودة لأب تونسى، ربما مغربى، أمها من أصفهان، لست مستوثقًا، ربما شيرازية أو كرمانية، المؤكد أنها فارسية، إذن هى مجمع وملتقى، ومصدر زاد وفير.

تمليت منها وتزودت بالنظر مرتين، لقاء المرة الأولى وصباح اليوم الثانى عندما قصدوا المقابر المصرية من العصر الرومانى والبطلمى، اقتفيت مسارها، تابعت مفارق جسدها وملتقياته، كون من دوائر متصلة، لم أعرف إلا ما سميتها به، أنيس الجليس، يكفى نطقه لتمثل، أسمعها وأبصرها وأتحسسها، أفضل نطقه، أسألها وتجيب، أستفسر وتوضح لى، أطلب فتلبى، عرفت من حروفه ما لا يمكن الإحاطة به عبر التوالج.

تسرى من مدينة على مرتفع صخرى، مشرف على خليج، تتقن العوم والغطس، بدأت فى الرابعة عشر، تعرف الأماكن الأجمل تحت الماء، رأس محمد قرب شرم الشيخ، جزيرة الأخوين عند تماس الحدود المصرية السعودية، الكاريبى، الحيد الأعظم فى المحيط الهادى، الغطس هوايتها، غير أن العزف على العود ذروة ترقرقها، إذ تقعد وتحتضنه، تحوم أناملها فوق الأوتار.

بدأ الأمر عندما قدمنى كبير المفتشين الأثريين إليها، تطلعت إلىّ من أسفل إلى أعلى، لم أقدر على التركيز، لأننى لا أضمن ردود فعلى إذا تمكنت وأمعنت، استفسرت عن معرفتى بمصر القديمة، عن اهتمامى بالألوان فى العمارة والديانة، ورموزها الخفية.

طوال تبادلنا الحوار القصير كنت أقف على مسافة أبعد من تلك التى تفصلها عنّى، فى نقطة لا يمكننى تعيينها، أردد بينى وبين، هل من المعقول أن تلتفت إلىّ، لم تكن لدىّ أية قدرة على الشروع تجاهها، فقط النظر أقصى ما يمكننى التطلّع إليه، أمعقول أن ينظر من كان مثلها إلىّ؟ إنه الجمال الأسمى الذى يشعر الناظر إليه بالضعة، بأنه الأقل،

كيف يتطلّع الأدنى إلى المحلّق بعيداً، المستقر هناك عند أقصى الأفق، لهذا كله فوجئت بيدها تمتد صوبى حاملة بطاقتها، بل فاتنى لحظتها أنها ثبتت بقلم حبر مذهب الغطاء رقم هاتفها النقال، ارتبكت، اعتذرت لأننى لا أحمل بطاقة، ابتسمت، نعم انفرجت شفتاها المرتويتان، درجة احمرارهما طبيعية، لحظة من اللون الأحمر القانى يلتقى فيها بالأصفر المضيئ فينتج ما يسميه أهل الصنعة فى الصباغة، أحمر دم الغزال.

أودعتنى الرسالة وأولتنى ظهرها الحاوى حركة الموج لتقبب أردافها المتقنة، المحكمة، الغريب أننى رغم تهيبها واقتناعى بالاستحالة القائمة بينى وبينها إلا أننى استدعيتها فى أوضاع عدة، جردتها على مهل عندما بادرت بفك أزرار قميصها، أبيت ذلك فتقشير الثمرة أهم من تذوقها، مررت بلسانى على أدناها وأقصاها، رويتها بلعابى وأنفاسى وحملقت فى مدخلها الوردى لأتأكد من الشبه والتوافق بالشفتين، لفمها الأفقى ولفرجها الرأسى، كلاهما واحد، أما شهقاتها فارتواء وتجدد خلق.

من رأيتهما بصحبتها شقيقتيها، من بيسراها الصغرى، من لزمت يمناها أختها الكبرى، رفضت كافة من تقدموا إليها حتى بلغت الثامنة والعشرين، لم تبد أسبابًا، ترد على قلق أمها وفضول أبيها بأنّ الأوان سيحل فى وقته، كانت أمها تردد أنها لا تعرف أبدًا ما بداخلها، وعندما تجهل الأم ما تفكر فيه ابنتها يكون وضعًا مقلقًا، مؤلمًا.

عندما جاء إلى بيتهم فى زيارة بمناسبة نزوله الناحية للاستشفاء بعد إجرائه عملية قلب مفتوح اتصلت بينهما الأسباب، يكبرها بثلاثين عامًا، تزوج قبلها مرتين، أب لستة موزّعين على عواصم العالم، كلهم ذكور، أصغرهم يماثلها عمرًا، ألمّت بكافة ما يتعلق به، بل إنها

اطّلعت على أدق معـاملاته فى البنوك السويسرية، والبهامية، والليبيرية، إنها أموال صفقات النفط التى باعها عندما كان مسئولاً عن تصديره فى بلده الذى طُرد منه بعد استيلاء الثوار على الحكم، أقسم لها بناءً على طلبها أنه لم يتاجر فى السلاح قط، وأن فلسًا واحدًا لم يدخل جيبه من تجارة الموت، أكد أن هذا مجال غريب عليه، له أهله، وهو لا ينتمى إليهم من قريب أوبعيد.

أنيس الجليس هيمنت عليه، تولّه بها، صار يقول لها إنها نصيبه من الدنيا، لا الأموال الطائلة التى اقتناها، ولا الطائرة الخاصة التى تقف فى المطار منتظرة، ولا اليخت الفاخر الراسى فى ميناء مونبيلييه، لا شىء من هذا كله يعنى أمرًا عنده، يكفيه مثولها وحضورها، لم تقبل إلا بعد أن سلّمها مفاتيحه كافة، المرئية والمسموعة وتلك التى يمكن تفصيلها، أضافت إلى ما حصلت عليه سائر ما نطقت به أو جال بخاطرها كأمنية، قصر قديم فى طريق فوش بالعاصمة الفرنسية، شقة صغيرة مطلّة على البحر فى كان، بيت تحيطه حديقة فى روما، شقة فى مانهاتن قرب طريق ماديسون عند لقائه بالشارع الخامس والأربعين، أخرى فى المدينة القديمة بشنغهاى، ثلاثة مقار فى مصر، الأول مطل على النيل، والثانى فى شرم الشيخ والثالث فى البر الغربى بالأقصر، لا يدرى أحد ماذا فعلت أنيس الجليس بالمسئول السابق الذى صار أكبر وأقصى ما يتمناه، فقط رضاها، هكذا كان يقول، أنجبت منه طفلة، تقول للمقربات منها - وفيما بعد أسرت إلىّ - لا تعرف كيف جاءت هذه البنية، لم تشعر بنفسها معه قط!

دعتنى إلى بيتها القاهرى المطلّ على النيل، منذ لقائنا فى الواحات قرب الطريق المؤدية إلى درب الأربعين تهاتفنى يوميًا، فى كل مرة

تتحدث من مدينة أو قارة مختلفة، أحيانًا من يخت مبحر صوب مرسى ما، ومرة من طائرة محلّقة، تبدو أقرب إلى الأطفال فى توثّبها، عند طلبها منى تكرار بعض الألفاظ، تحب طريقة نطقى، تهمس أحيانًا أن صوتى يثيرها عبر الهاتف.

حتى الآن لا أعرف لماذا أقبلت؟ ماذا لقيته عندى؟ كان أقصى ما أطمح إليه نظرة، وإذا بها تتدفق علىّ حتى إننى لم أقدر على الاستيعاب، عندما جاءت صيفًا دعتنى، عند عتبة الشقة ذات الطابقين فوجئت به يقف فى انتظارى، طويل القامة، عنده مهابة، عريض الصدر، تتطلع من خلفه عابثة، يتقدّمنى إلى الصالة الفسيحة، تتبعنى، تلمس يدى، أضبط انفعالاتى، لا أقدر على الاستجابة ولم أرتح لذلك، يتوقف أمام جدار عريض علّقت إليه صور استقبالاته ولقاءاته وزياراته والحفلات التى حضرها، هذا أوناسيس وتلك جاكلين، هذه مارجريت وتلك كاترين، وهذا كلينتون فى مكتبه البيضاوى، توقّف طويلاً أمام فتيات جميلات يقدّمن إليه الزهور فى مطار هانوى، يفيض فى شرحه لى، تواصل إبداء العلامات، أخشى أن يلحظ أمرًا، ألمح آلة عود من خشب مصقول يلمع، يقول إنه تعلّم العزف خصيصًا لأنها تحب ذلك، يسألنى عما إذا كنت أحب العود؟ أومىء، أقول إنه لدىّ تسجيلات نادرة لأشهر العازفين، خاصة محمد القصبجى وجورج ميشيل، يسألنى عن إمكانية استنساخها، تقول هى إنها تعرف من يمكنه القيام بذلك، تدعونا إلى مكتبها، نجلس أمامها متواجهين، تفتح جهاز الحاسب الآلى، تبدأ الشرح، تديره ناحيتى لأرى، تتطلع إلىّ بنظراتها المتّجهة من تحت إلى أعلى، تمامًا كما رأيتها أول مرة،

عندما قام ليقضى أمرًا، فوجئت بمفارقتها مكانها إلىّ، تنحنى مبدية فالق نهديها، تقبّلنى بسرعة ضاغطة كتفى بصدرها، تطرأ عندى شفقة على هذا الكهل الذى استقبلنى على عتبة بيته، أتداخل فى بعضى، أتوارى عنها بينما ملامحها تنأى عنى، لم يعد اسم أنيس الجليس يعنى شيئًا بالنسبة لها، لم أعد قادرًا على استدعائها إذا نطقت به.

بخارى

نزلت بخارى قبل الشروق، فارقت الفندق حديث البناء قاصدًا الجامع القديم، حيث السوق الذى كان ملتقى القوافل القادمة من الصين أو المتجهة إليها، كنت مجهدًا غير أن توقى أشد وأمضى، بمجرد ظهور مئذنته الشاهقة تطلّعت برضىً، أن أبلغ موضعًا أو عمارة لم أعرفها إلا فى نصوص الرحالة أو لوحات الرسامين أو الصور الفوتوغرافية، بخارى محطة رئيسية على طريق الحرير، ربما يُفسّر لى هذا حضور درب الأربعين عندى منذ خطوى على أرضها رغم بعد المسافة، وصعوبة المقارنة، الدرب يتخلل الصحراء خلو تمامًا من المدن والعمار، يتحدث بعض الخبراء به عن مدن قامت يومًا وأخفتها الرمال، بخارى ظاهرة، تجذبنى المدن التى تقع على الطرق الكبرى، إنها الفواصل الأساسية، المحطات غير البادية، إذ يتم الولوج إليها بيسر، كذا الخروج منها، لا تكشف عن مكنونها بيسر، ما يظهر منها بعد مفارقتها أكثر مما يراه الزائر حتى لو أقام مدة، إنها تكشف عن مكنونها بالتذكّر، تبدو النواصى عند استعادتها، كذلك المبانى والمداخل والظلال أشدّ وضوحًا من لحظة المثول أمامها أو فيها، تسفر عن بعض معالمها لمن يقصدها قبل الشروع فى قطع المسافة إليها، عرفتها منذ دراستى لفن السجاد وطرزه المختلفة، توقفت أمام بخارى، ذلك

التـوازن المدهش بين الوحـدات التى تتكون من خطوط ولون واحـد بدرجـاته المتقاربة، ذلك الياقـوتى الذى رقـقنى وشـردنى بين جهـات شتى، تقصّيت أثره فى الشفاه، فى تجاويف الجسد والدم الذى يقطر أحيانًا، فى المفروشات القديمة، فى قنانى النبيذ، فى نقوش الجدران والثياب، لم أمسك به رغم أننى أحيانًا كنت على شفا.

هاأنذا فى مصدر اللون ومنبعث درجاته، خلال طوافى بمدن الدنيا لم أر متجرًا يعرض السجاد إلا وتوقفت أمامه، أتمهل لو كنت ماشيًا وأترجل لو تصادف ركوبى، أحيانًا أجد المتخصص فى سجاد بخارى، بالضبط كما عرفته فى البداية، تعرفت فى مستهل رحلتى عبر الحياة إلى رجل نحيل، لا ينطق إلا الفصحى باختصار واقتصاد، يجيئ إلى مقهى الباب الأخضر فى أوقات معلومة، يمكن ضبط الساعة على دخوله وجلوسه وبدء نفثه الدخان، دعانى إلى مصنعه فى الباطنية، إذا شئنا الدقة إلى بيته، عتيق يتكوّن من طابقين، يسكن فى العلوى، أما الأسفل فشد فى فراغه ثلاثة أنوال للسجاد، لم ينسج إلا البخارى منه، كان يقول إن أعمق الخبراء لا يمكنه التفرقة بين ما ينجزه هنا وما تم نسجه فى مضارب القبائل الأوزبكية التى تسكن حول بخارى أو فى الخلاء المحيط بها، أستعيد هيامه الصامت إذ يتطلّع إلى «الطُبل»، هكذا كان يسمى المستطيلات التى ينقسم كل منها إلى أربعة بالتساوى، ثمة خطوط فاصلة، واصلة، اللون ياقوتى غميق فى الأرضية العامة، داخل الطُبل ينفرج قليلاً، لكن الخطوط تكاد تكون حالكة، يشير إلى العلامات، يقول مؤكدًا: هنا رسائل لكن لا يفضّها أى إنسان، لابد من شروط، أسأله عنها فيتطلّع إلىّ باسمًا، جاءه ثرى عربى، عرض عليه إقامة مصنع كبير حيث يقيم، منه الخبرة البخارية وله نصف الأرباح، غير أنه اعتذر، تلقى عروضًا شتى، منها توسعة نشاطه،

إضافة أنوال جديدة مع طرق أسواق فى شتى الاتجاهات، غير أنّه أبى، قال لى: لو تجاوزت ما وُفقت، لم يسلّم ما ينسجه إلا لتاجر فى خان الخليلى أصوله أفغانية، جاء بحمولة توابل غير أنه لم يكمل طريقه إلى البندقية، لا يغيّر مصير الإنسان إلا امرأة، هام بأنثى قاهرية فاستوطن وأقام، كان ما يخشاه، ما أفضى به إلىّ فى مرة نادرة يبوح فيها بما يشغله أن يموت أفغانى الأصل، لمن يسلم سجاده؟ أصغيت دهشًا إلى جزعه الحقيقى، ولم أستفسر رغم شدة فضولى، أصبحت عليما خبيرًا بالمواقيت التى أجد فيها الإجابة وتلك التى يستحيل فيها ذلك، هاأنذا فى بخارى، من القلعة إلى مدرسة مير عرب إلى السوق القديم، أسأل، أتقصّى، أقصد صاحبًا قديمًا جئت بعنوانه مكتوبًا على قصاصة، أصله من حلب، لم يتم رحلته إلى الصين، لم يفصح لى وإن ذكر فى حديث اتصل بنا أنه رأى أجمل أنثى يمكن أن توجد فى العالم هنا. هكذا يوقن، لم أسأله عنها لتأكدى من استحالة الجواب، ربما لأننى كنت مشغولاً بما هو أهم، الوصول إلى وريث سر اللون، الشيخ الياقوتى نفسه، هو من يعرف، وهو من يدلّ على تدرجات اللون اللانهائية، لا يفتح بابه إلا لمن يعرف، صاحبى الحلبى منهم، فى ذلك الصباح مثلنا أمامه، إلى يمينه رأيت لوحًا عليه أرغفة خبز بخارى، أشبه بالعيش الشمسى لكنه مفلطح وقطره أكبر، رائحته سارية، بعد أن أخبرته بمصدرى، شرحت له مقصدى، فلو عدت بدون ما يميّز درجة لون عن أخرى فلن أقدر على الإقامة هناك مرة أخرى، سأهيم إلى الأبد على وجهى، يقول بعد لحيظات صمت: لماذا تبحث عنه؟ لماذا جئت؟ إنك تتنفسه.

نيسابور أخرى

لكل نصيب منها، كل الجهات تؤدّى إليها، لو قصدها من يبحر فى اللج سيبلغها بدون تحديد وجهة، ولو فكّر فيها من يضرب فى عمق الصحارى ستلوح له، ولو خطرت لمن يطير جوًا فستلوح معلّقة فوق الغمام والذرى الشاهقة.

غير أن الكافة لا يمكنهم العبور إليها، دخولها، إنما الحد الأقصى بلوغ مشارفها، ثمة شيء يحول دون الوصول إليها، بدأ حضورها هذا فى تلك الليلة المولية، التى لا يمكن تعيينها أو تحديدها عندما جرى اللقاء فى معبد أبيدوس، للحفاظ على منطوق اللغة وإشاراتها وبث مفرداتها فى عناصر الوجود، كذلك تشييع عناصر الحكمة المدركة، لم يجر إخفاء المعانى والأفكار فى المادة، بل فى الأفكار ذاتها، فى الرؤى، فى تلك الليلة أرسى الكهنة الأساس لعمارة المعانى، منها نيسابور، نيسابور بعينها، فثمة أكثر من نيسابور. لكل ما لا يرى يصير مرئيًا أكثر، من ورثنا علمهم لا نعرفهم، لكن ندركهم.

من قالوا الأمثال لا نعرفهم، غير أننا نقتدى بهم.

كذلك المدن والجهات التى لم نبلغها، نعرفها أحيانًا أكثر من تلك التى عشنا فيها، ما لا يوجد يصير أقوى حضورًا ومثولاً.

تنسب هذه الجمل إلى ليلة أبيدوس تلك فيما صار يعرف بالمتون الأبيدوسية، والتى لم يتحقق أحد من نسبتها وتأصيلها، منها جاءت نيسابور، والمعبد الفكرة، المعبد الذى لا يوجد فى موضع، لكنه يظهر بمجرد التفكير فيه أو لواحه على الذاكرة، نيسابور اعتبرها الكثيرون مأوى لما يغيب عن الذاكرة، عن كل ذاكرة، فردية كانت أو جماعية، متعلّقة بالبشر أو جنس الحيوان والطيور والحشرات والمخلوقات التى تستعصى رؤيتها على الحواس، ذاكرة المياه، واليابسة والنبات والريح، للنسمات ذاكرة وإلا كيف تهبّ فى وقت معلوم، غير أنها تنسى مصدرها، من أين انطلقت، من أين بدأت؟ من يمكنه التحديد؟ ربما فى انطلاقها تسعى إلى معرفة أصولها، كل منا يتمنى الدخول إلى نيسابور ليتعرف على ما فُقد منه، غير أنه لا يطال إلا المشارف، لذلك يظل دائمًا هناك حد، باستمرار ثمة حافة مؤدية، إلى أين؟ لا أحد يعرف، لم يتجاوز إنسان المشارف المؤدية ليخبرنا باطّلاعه على المنسى منه، على ما تحول دون بلوغه المسافات غير المحددة، غير المرئية.

تلك الليلة

إنها الليلة الأولى من الشهر الأول لبدء الفيضان، إنها السنة التى لا يمكن تحديدها، التالية لسنوات شبيهة، لا يميّز أى منها إلا استمرار خراب البنية وتحلل الكلّيات، وانقلاب الناس على أنفسهم، على كافة ما آمن به الآباء والأجداد ملايين السنين، لو وفد أحدهم، أيًا كان وضعه فيما ولّى، ابنا مخلصًا للآلهة، أو فلاحًا أو بحّارًا أو عامل بناء، لما صدّق وما احتمل، سيخرّ صعقًا ويُدبر هربًا، يتحقق الآن بعض من نبوءة الأقدمين، القائلة بأنه لا شىء يبقى على حاله، أحيانًا من النقيض إلى النقيض، كان القوم يرددون النبوءة غير مصدقين، اعتبرها بعضهم تهريفًا، ورفض كثيرون سماع ما يقال إنه سيأتى زمن يبدو فيه أن المصريين قد راعوا عبثًا عبادة الآلهة، وأن ورعهم وتقاهم كان إلى الوجهة الخطأ، وكل إيحاءاتهم المقدسة كانت عقيمة، هزيلة، كل ما أسسوا له سيسخر الأحفاد منه، ويهزأون من تماثيل الآلهة المقدسة، سيدمرون بعضها، وستعرض المقدسات للفرجة، ويباع أقدسها بثمن بخس، سيملأ الأجانب الأرض، وستختلط الدماء، وتُحرَّم العبادات إلى أن تنسى، لن يتبقى من الأسرار المدركة كلها إلا قصص غامضة، منبتّة عن أصولها، لذلك لن تثير إلا السخرية والتعجب.

ها هو زمن تحقق النبوءة يبدأ، طال العبث أقدس المقدسات، وصل اللصوص القادمون من الصحراء إلى أقصى المنازل الأبدية، لم تنفع تمائم الحماية، أو التعاويذ المنقوشة، لم يعد حفظة الأسرار المقدسة والقائمون على الحفظ فى أماكنهم التى اعتاد القوم أن يقصدوا إليها آلاف السنين، لكى يلمحوا قبسًا منهم، قدس الأقداس فى معظم دور الحكمة الأبدية أُستبيح، صار الآباء الأوائل يجتمعون خفية، أدركوا لواح النهاية، نعم لن ينتهى الأمر بين يوم وليلة، لكنه حتمًا يصير إلى ذلك، ولأنهم يؤمنون بالمقدسات الأولى، البديهيات الممكنة، لا شىء يموت، لا يوجد موت، لا شىء يصير إلى فناء، ما يحدث تحوُّل إلى حين، لاشىء يمضى إلى فناء، لا يوجد فناء طالما نُطقت الأسماء أو كُتبت، حتى لو استغلقت الحروف واندثرت معانيها، ستوجد بشكل ما، بصيغ ما، ربما يسرى الاسم داخل الاسم، يتوارى المعنى مستظلاً بالمعنى.

لأن وعيهم بالحقائق ناصع، لذلك لم يجزعوا، إنما عملوا، بدأوا بإخفاء المتون الحاوية للعلوم المدركة، كافة وتلك التى ماتزال قيد النظر، قصدوا أماكن لا يمكن أن تخطر على بال لإخفاء المخفى، بعضها ظاهر للعيان، يمرّ عليها القوم فى كل لحظة وهم لا يعلمون!

الليلة، إنها الأولى من الشهر الأول لبدء الفيضان، المنقضى على ظهور نجم الشمال مقصد المداخل كافة، آخر ما تقرر، عمل استغرق وقتًا لا يمكن تحديده، يمكن القول عدة فيضانات متوالية، تم سحب الملوك الراقدين فى الوضع الأوزيرى، المدثّرين بالكتان بعد أن نُهبت التوابيت الذهبية المتداخلة، وكافة المشتملات، غير أن بعض التمائم عملت عملها فحالت بين اللصوص والمارقين وتدمير أجساد أبناء

حور، المنحدرين من صلبه، ملوك مصر وسادتها والمدافعين عنها، عن أقداسها، تم نقل المومياءات، كل إلى جهة خفية، الليلة فى توقيت واحد، سيتم وضع كل منها فى تابوت خشبى بسيط، حاو لكل الرموز والتمائم، تم اختيار منزل الأبدية المؤقت بعناية ودقة.

ليلة فاصلة، يتحرك فيها آخر من فى أفئدتهم ورع الأقدمين وإيمانهم القديم، لن يعرف أحد أبدًا ماذا جرى بالترتيب أو التفصيل، ولم ولن يطلع أحد قط على أسماء أولئك الذين أتموا المهمة المقدسة تلك الليلة، لم يعنهم استمرارهم فى أسمائهم، ما حرصوا عليه وضع الأسماء على كافة التوابيت البديلة، على كل مومياء، يومًا سيأتى من يتعرف إليهم، وعندئذ يعمل كل اسم عمله، يسرى، يسعى، ليس ذلك ببعيد عن تلك الليلة طالما أن الزمن يمضى صوب غاية ماتزال خفية، ليست تلك الليلة إلا نقطة، علامة صوبها.

أوليا جلبى

من مرقدى فى البر الغربى الذى أُمرت بملازمته أتفهّم ما جرى للرحالة العثمانى أوليا جلبى، خاصة بعد خرجتى تلك من كل ما تعلّقت به، وانتهائى إلى صخرة مشرفة على مراقد الأقدمين الذين حاولت فهم ما وصلنا منهم، ولمس الجوهر الذى تبدّل وتغيّر.

لم يرد علىّ اسمه إلا ورأيته راحلاً من مكان إلى آخر، وعندما عرفت سبب ترحاله وجدت ما يجمعني به، خاصة حذرى من نيسابور المدنية، من لحظة إلى أخرى، لم أره متوقفًا قط، كان السؤال، أى دافع للرحيل؟ أى سبب يخلع الإنسان من كل ما اعتاد عليه حتى إنه ليقضى السنوات الطوال مثل ابن بطوطة وابن جبير، غير أننى تعلّقت بأوليا جلبى، حتى صرت أنطق اسمه مسموعًا عندما أكون بمفردى، أستحضر خروجه من أسطانبول، ومنذ تلك اللحظة لم يتوقف، عندما ألمت بسبب رحيله أيقنت أنه ما من شىء يأتى من فراغ، يبدو أنه شُغل بحال لم أقدر الاطلاع عليه، غير أن عارضًا ترتّب على ذلك، بوغت به أول مرة كما فوجئت عندما اطّلعت عليه، ما جرى عندى عينه، غير أننى عرفت ذلك قرب المختتم، وداهمه هو فى المقتبل.

بعد الدخول فى النوم، الاستغراق بعيدًا عن اليقظة، استيقاظ مفاجئ بدون أى مؤثر خارجى، وعى ناصع يبدد العتمة بدون قبس من ضوء، نهاية!

إنها الخاتمة.

اللحظة التى لن تليها أخرى، إنه فراق لى، وعى حاد واستسلام أتمّ لما لا يبدو ولا يلوح ولا يمكن إدراكه.

تبدأ الأنفاس فى التوالى، ينمو الوعى بالاستمرار،

ما أزال.

عندما تجاوزت تلك البارقة كنت بمفردى، ظهورها أول مرة قلقلنى، لم أستطع العودة، فعمزت جالسًا حتى طلع علىّ الصبح، خشيت النوم، صرت أرهبه، ولو قدرت على الاستمرار فى اليقظة ما توانيت، لم أقص على أقرب الخلق إلىّ ما مررت به، وعندما تكرر الأمر مرة أخرى رسخ عندى أنها بوادر النهاية، فى إحدى المرات لن يكون توال، الإنسان يبدأ احتضاره قبل تمامه، وقد بدأ عندى بعد تمام وعيى بالإقامة والسفر، منذ صباى الأول، لم يعرف الأقربون أننى حى متضمن لفان، بعيد جدًا، رغم وعيى ومرورى بأعراض شتى، إلا أن هذه البارقة لم تواتنى إلا فى الشهور السابقة على خرجتى، وللمرة الثالثة فى مرقدى هذا، إنها لوامع المختتم، غير أن أوليا عرفها وهو لم يتم العشرين بعد، حار الأطباء فى أمره، قلبه سليم، كذا أنفاسه وسائر ما يشكّل بنيانه، نصحه البعض بالمثول بين يدى شيخ وخطيب، أبى أيوب الأنصارى، كان الهواء باردًا جدًا وندف من الثلج تتساقط على الطريق المؤدية، المحفوفة بمقابر الدراويش والغرباء، الأعمدة الرمادية التى صيغ أعلى كل منها على هيئة عامة؛ كتب على مقدمتها تاريخ الرحيل.

ولج أوليا فراغ المسجد، اتّجه مباشرة إلى الشيخ الذى كان ملتحفًا بعباءة من وبر الجمل، قاعدًا فى هيئة تستدعى جلسة مولانا جلال الدين الرومى، بدا كأنه ملم بسبب القدوم إليه، وبعد أن فرغ أوليا من قص مواجعه وسبب خشيته تطلّع صامتًا حتى نطق الشيخ.

أنت لم تخلق للإقامة، ارحل، وتذكّر أنه الختام لو ركنت.

على الفور اتجه أوليا جلبى إلى بيته، لملم ما يمكن حمله من أوراقه وأغراضه، وخرج من اسطانبول، وحتى الآن لم يعد.

نيربورن

تقع على الطريق إلى الغرب أين بالضبط؟ لا يهم، الأشمل والأدل أنها فى الغرب، لا أذكر منها ولا أرى من بقاياها عندى ولا أستعيد ولا أحنّ ولا أشتاق إلا لتلك الأرداف، رأيتها فى ساحة يتوسطها سور يحيط بجزء من الطريق العتيق الذى كان مرصوفًا بحجارة من البازلت الأسود، قال لى مرافقى الذى لا أحتفظ منه بأية ملامح إن هذا كل ما تبقى من الطريق الإمبراطورى الواصل بين روما وأقصى نقطة مشرفة على المحيط الأعظم، كثيرون يجيئون لرؤيته ويلتقطون الصور إلى جواره، غير أن هذا كله لم أهتم به ولم أنتبه، ذلك أننى لمحتها، أذهلنى تناسقها، قامتها التى لا يمكن وصفها بالطول أو القصر، كذلك الصلة بين صدرها المشرع وردفيها المحيّرين باكتنازهما، بتقببهما، بكمال استدارتهما، بهندسة طلتهما من غصنها، فلا هما بارزان إلى حد الإفراط ولا شاحبان، أراها من الخلف فكأن كل حضورها يستند إليهما، ملامحها رقراقة، حاضة على الحسو منها والتدلى إليها والتمنى، عيناها خضراوان، أنفها نتوء اللذة، عندها سكينة تسرى إلى من يخاطبها، أما فمها فيبث رعدة تستثير النزوات، أبوها جزائرى وأمها فرنسية، يصعب بل يشق علىّ استعادة اسمها، لكن تكوينها

ارتبط بالمدينة، لا تخطر لى نيربورن، لا تهفو علىّ إلا ويطل علىّ هذا التكوين، أى مدينة لا ترتبط بأنثى تكون ناقصة، تحضرنى فأصفو إلى وصل الحديث معها، تغمرنى سكينة وينشأ عندى حنين، إذا أدركنى وهن الرغبة؛ فيكفى الطواف بالمدينة التى سرعان ما تتحول إلى هذين الردفين اللذين يكتمل فيهما المثال ويتدفق الحض!

عشق آباد

تلك الانحناءة

ليلة تحتوى المدينة التى نزلتها بعد سفر طويل، لم يرسخ عندى شىء من كل ما اطلعت عليه منها، أو ما وصل إلينا عبر مرويّات أفراد القوافل الذين تراتلوا عبر آلاف السنين عبر هذا الطريق الداخل إلى صحراء جوبى، قيل لى إن كل من يدخلها لابد أن يتذكر عشقه القديم، يرد عليها بكافة أطيافه ودرجاته مهما لفه النسيان، ستحضر كافة الملامح المطلة علينا أحيانًا من عالم الاندثار، سنحدق دهشين إلى من ظننا يومًا أن مصيرنا ومآلنا معلق بهن، ومع طول الترحال يتوارين فيصعب أحيانًا استدعاؤهن لأن أسماءهن غابت، بعضهن هكذا، وعندهن من يختفون، المحو متبادل بين مراكز التذكر، لكن من الحقائق المفروغ منها، المقطوع بها أنه لا شىء يبقى إلا إذا مثُل الاسم، لا نقرر ما يجب محوه ولا نقرر ما يبقى، هذا سؤال كبير محير، كان موضوعًا لاهتمام وفحص حكماء أبيدوس وطيبة، قالوا فيه الكثير، لكن لم يصلنا شىء، هل ما عرفته عن عشق آباد حقيقى أم أنهم أرادوا تبرير إطلاق الاسم عليها؟ غير أن ما جرى لى فيها عكس ذلك، إذ خرجت منها متعلقًا، متوثبًا نحو نهدين لم أعرف مثيلاً لهما رغم تعدد ما عاينت، وغزارة ما رأيت، ثبتت عندى فى وقفتها تلك، لا أرى

اللحظات السابقة التى عبرت فيها المسافة ما بين مخرج البيت ومنتصف ذلك الفناء، بيت والدها مخرج السينما، غاب عنى تمامًا لتلاشى اسمه، كذا اسمها لكن ما بقى منها النهدان، عندما انحنت، فلاح الفالق واندلقا مندلعين، كأن حضورهما لذاته، حتى يمكن استدعاؤهما منفردين، الحديث إليهما ومعهما، مصادقتهما، مراسلتهما، الحنين إليهما بمفردهما، بعد سنوات رأيت فى مثوى سنجم رع ذلك الرسم الذى حيّرنى عند منحنى الجدار الواصل بالسقف، شجرة تخرج من جذعها أنثى، جسمها هو الجذع، نصفها الأعلى آدمى، لم أعن بمعرفة أيهما هى؟ إيزيس أم حتحور؟ لأن القوام المنبثق استحضر عندى عشق آباد، وليس المكان كله إلا نهديها، المتكوكبين، مدارهما جسدها وموضعها، فكما قال سيدنا كل مكان لا يُؤنّث لا يُعوّل عليه.

جميل بك الطنبورى

عرفت الاسم فتعلقت به، اقتفيت أثره ورحلت معه، غمرنى حتى كدت أتحوّل عن جوهرى، ومسنى فكدت أشف عن أدق مكنونى، ما لم يتكشف لى، أول مرة احتويته بالنظر فى قبة الغورى أول فتوتى، فى ذروة بدء سعيى، حفل موسيقى ذات صباح، أجلس متدثّرًا بفراغ منمنم، مزخرف، يحيط بنا خط عربى رصين، إلى جوارى أديب يتقدّمنى عمرًا، التقينا فى الفيشاوى، صحبنى أو صحبته إلى هنا، محمود البدوى، أقرأ برنامج الحفل المطبوع على ورقة عادية بالآلة الكاتبة.

جميل بك الطنبورى   سماعى من مقام صبا

منه عرفت لحنى ومقامى، لكل إنسان موسيقاه، نغمه، لكل مقامه، أحيانًا يعرفه بنفسه، وأحيانًا يكتشفه من خلال الآخرين، كنت أدرك موسيقاى فى مجملها، غير أن جميل بك ساعدنى ودلنى على مهمسى، وحرّك مكمنى، وهفهافى، من يبللنى بالشفيف، الرهيف، أساى وكله ماض إلى ما يعد فى متناولى، حنينى وعر، لحيظة تعرفى على الصبا أصبح وجودى كله مسامع، أرهف علّى أدرك، وأطيل الإصغاء ربما أتوصل به، أخلع العذار عن كل مختفاى، رحت مع السماعى من مقام صبا، ولم أعد منذ ذلك الحين، ما أمضيته بعد ذلك اقتفاء إلى ما اكتشفه جميل بك فى عناصر الوجود من

موسيقى، أوقن أن كافة الأنغام سارية فينا، حولنا، فقط تحتاج إلى من يكتشفها، من يتعرف عليها، من يقدمها إلى الناس، إلى المسامع، إلى الوجود.

جميل بك عرفنى إلى نفسى، وصلتنى أنفاسه عبر أنغامه، فى اسطانبول تردد الصبا عبر لون المبانى الرمادى، وذلك الغسق فى الأصباح المطلّة على القرن الذهبى، الماضى مع تموج الماء إلى حيث لا أدرى، ولم يعذبنى ولم يضنينى إلا ما يستعصى إدراكه علىّ، رغم كل ما فعله الصبا بى إلا أننى لم أدرك كنهه، استعصى علىّ يا مرارى.

فى دير بناه لويس التاسع الذى وقع فى أسر المصريين بالمنصورة، أقمت مستمعًا ومناقشًا لموسيقى المقام بكافة أطيافه، لاقيت من عرفت أسماءهم قبل أن أرى تجسيدها، ومنهم داريوش الفارسى، وقدسى التركى، فرحت بهما كالأطفال، قدسى تفرغ لتقديم موسيقى جميل بك وأقرانه، تاتيوس وداده أفندى، لكل اسم تفعيل ومأوى، ربما يكون لتاتيوس أفندى وداده أفندى تأثير أقوى أحيانًا لكننى أستعين عليهما بجميل بك؛ ذلك أنه من فتح لى الطريق لأصل إليهما وإلى غيرهما، لأنهل من الرقائق، عندما تعرف قدسى على ولهى وهيامى دعانى إلى بيته، قدم إلىّ الشاى والبقلاوة، وأكرمنى بإجلاسى على مقعده، وعرفنى على سبع طرق لعزف سماعى صبا حتى إننى خرجت عن محدوديتى فصرت أخاطب من أثق أنه لن يسمعنى، وألمس من يستحيل إدراكى له، وأرى من يستعصى على البصر الإنسانى، وعندما خرجت إلى الطريق القريب من مرقد نابليون تحت القبة الشهيرة، اندفعت إلى كل ناصية وعبرت كافة التقاطعات، لم يكن ممكنًا استيعابى فى مكان بعينه ولا وقت بذاته، فهمت على ما تخلفه روحى من أثر أتنفس الصبا ويتنفسنى مقتفيًا أثر جميل بك الطنبورى لعل وعسى.

ليلى مراد

إذ تظهر على الشاشة، كبيرة فى سينما الفتح الصيفى بالجمالية، أو صغيرة فى تليفزيون بيتى، أو عند أفق ذاكرتى، أشدو على الفور.

أبرق بدا من جانب الغور لامـع

أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقع

لا يخلعنى منى، ولا يقصينى عنّى، لا يأسرنى عندى إلا توالى مويجات صوتها الذى يستنطق كواكب المجموعة فى مدارات وحدتها، أصغى إلى صوتها، فيندلع أمامى اسمها، لا أدرى عندئذ إلى من أتجه، أو كيف أنطق، أفقد قدرتى على التعبير، فلا أقدر على النطق، ولا الإشارة، لا أنظر، ولا أتطلّع، ولا ألتفت، ولا أقعد ولا أقف ولا أستقيم ولا أنثنى ولا أنحنى، ولا أكون ولا أتكوّن ولا أصير ولا أتحوّل عنها، فى كل مسافة من عمرى أحرص على اقترانها بليلى وبعض مما شدت، حتى إذا سافر ابنى واغترب بعيدًا فيما وراء المحيط وسعيت إليه زائرًا، مطلاً إلى حين مقيما عنده إلى وقت معلوم بعد أن أقام بين صلبى وترابى، بسط لى حاله، وأعد لى كل ما يمكن أن يتصوره مصدرًا لإسعادى ووثارتى، صباح أول يوم استيقظت على صوتها:

والشمس عند الأصيل راخية شعور الذهب

غمرنى هدر، تطلعت إلى محمد ممتنًا، ناطقًا بالجميل، ولعلها اللحظة التى أدركت فيها صميم أبوتى، فهذا ابنى الذى يتشابه صوته

مع صوتى عبر الهاتف، حتى ليخطئ الخلص، لا يمكنهم التمييز، تأثرت حتى انحدر دمعى، وعندما مال علىّ محاولاً الفهم والتخفيف، قلت له مستفسرًا:

كيف عرفت؟

ضحك خجلاً، قال إنه يعرف هيامى بليلى وتكرار سماعى لصوتها وحنينى إليها، رويت له اتصالها بى بعد أن كتبت سطورًا عن تعلقى بابتسامتها، بمشرقها، بابتسامتها، بعذاباتى فى المواقف المحرجة التى تمرّ بها فى السينما، عندما رنّ الهاتف وأصغيت، جاءنى صوتها من سائر جهاتى، فصار يصدر عنى، منى وإلىّ، وعندما قالت:

أفندم!

تلك اللازمة المتكررة فى حواراتها أيًا كانت، نطقت بها فى مواجهة يوسف وهبى، محمد عبدالوهاب، بشارة واكيم، وبالطبع أنور وجدى وغيره، وها هو الزمن يمضى حتى يبلغ نقطة أكون أنا المقصود، وأنا المخاطب، وأنا المصغى إليها مباشرة، أنا المعنى والمعْنى، قلت لابنى: لو أننى شئت رؤيتها أو مقابلتها لتم ذلك، غير أننى لم أشأ رغم تحقق الإمكانية، عندئذ تطلع إلىّ مستفسرًا، متسائلاً، ملت عليه وقلت له، أفضيت إليه بما تقرر وكان.

«أنا الذى لم أطلب تحديد موعد اللقاء...».

طال استفساره فحاولت الشرح لعل وعسى.

تلك لحظة مستقرة من زمن مندثر، فلو أننى اطّلعت على نقيضها لولّى كل ما حرصت على التعلق به، ذاك أمرى...

فوجئت بمحمد يقبل علىّ، يقبلنى، فأيقنت باكتمال الرسالة وأداء الأمانة!

شرفة

ثمة لحظات ومواضع أخشاها عند استعادتها بالذاكرة، أحيانًا تفاجئنى غصبًا، لم أتعرض فيها لخطر ولم أعرف مضايقة، مع ذلك أتحاشاها، ربما لاستثنائيتها، من ذلك أماكن العزل، خاصة الليالى الأولى التى يكون إدراك التغيُّر فيها حادًا، إنها المعسكرات، السجون، المشافى، مواضع الانتظار القسرية عند اجتياز المطارات، الموانىء.

تلك المشرفة الفسيحة الممتدة حذاء غرف المستشفى العسكرى، وقت ما قبل الزوال، أحيانًا، يكون استدعاء بعض الأماكن له وقع أشد من مواقيت التواجد فيها.

أقف مع شقيقى الأصغر منى بأعوام ثلاثة، نزيل الغرفة التى خرجنا منها ليستند كلانا إلى الحاجز المطل على الحديقة المنسقة، المنضبطة شأن الموضع كله، لن أذكر ما تطرقنا إليه، لأن الأمر لا يخصنى وحدى، غير أننا تفاوضنا حول ترتيب الأوضاع، دائما نتحاشى ما يتصل بالنهايات المحتملة، نحذرها تشاؤمًا، أما وقد أصبحنا قاب قوسين أو أدنى فلابد من وضوح، منذ بداية وهنه وغمامة تدثرنى، لم أتوقع أن تمضى الأمور بسرعة هكذا، خاصة أنه لم يشك علة، ولم يمر بمصاعب صحية كتلك التى عرفتها، دائمًا يبدو أصغر من عمره، متفائلاً، مبتسمًا، متحملاً لكل عارض، مُخفيًا أمره حتى لا يزعج الأقربين.

لم أعرف بدخوله المستشفى إلا اليوم التالى من شقيقتى التى هاتفتنى جزعة، حائرة، عندما عاتبته قال: إنه ظن الأمر بسيطًا، تطلع إلىّ مستسلمًا، تلك النظرة التى ستصاحبه طوال المحنة، صافية، هادئة، لكنه هدوء ممض، ثاقب للروح بما يحويه من استكانة تامة نتاج قبول وتفهم، مجرد استعادتها يغص بها حلقى ويبدأ هلعى.

أكرر عتابى فيهمس: يكفى ما أنت فيه.

لا يريد إزعاجى، إنه الخجل عينه الذى دفع أبانا إلى كتم حشرجات الرحيل حتى لا يزعج أخى الذى كان يرقد فى الغرفة المجاورة، يستيقظ يوميًا فى الصباح ليمضى قبل السادسة إلى وحدته العسكرية فى صحراء السويس. خجل جُبلنا عليه، مرجعه النشأة، والعزلة عن الآخرين وصعوبة الأحوال الدافعة للبعد عن الآخرين، وقد استمرّ بى عبر المراحل وكلفنى ما كاد يودى بى أحيانًا.

فى الشرفة الممتدة بطول الغرف المتجاورة وقفنا ذلك العصر، أمامنا مبنى من زمن الاحتلال الإنجليزى، من طابقين، سلالمه خشبية خارجية، سقفه محدب مكسو بالقرميد الأحمر، ثمة عناصر غامضة فى المكان تستثير عندى كوامن الحدود، السور الخارجى يستدعى معسكر التجنيد الذى يتم فيه الاستقبال، أصعب أيام الخدمة، انتظار الترحيل إلى الأساس، ذلك حد، اجتزته منذ حوالى نصف قرن، مكوثى فى قسم الفحص قبل إقرار العملية الجراحية الدقيقة فى قلبى، هذا حد، حدود عديدة توالت علىّ، بعضها مرئى المفردات، الآخر أقرب إلى الإدراك، يستعصى على التفسير، يلوح عند المرور من علامة فارقة إلى أخرى، من سنة إلى سنة، من حقبة إلى أخرى، من حالة إلى حالة، إنها الحدود.

لم نطلّ من الشرفة على اللحظة التى نجتازها، إنما مثلنا عند الفواصل، ما كان منا، وما سيكون، ما مضى وما سيأتى، تحدثنا عما يتعلق بنا، عدة كل منا لمواجهة المجهول، أعرف أن إدراكى لمرور الوقت حاد، مرهف فى السنوات المنقضية، كأن عمرى مرَجُّله بجوارى، كأنه يخصّ غيرى، لم أنتبه إلا بعد فواته، مروقه، كذا شقيقى الذى لم تتغير نظرتى إليه، إنه الأصغر، الأولى برعايتى، حتى مع تقدمه فى المراتب، وصوله إلى رتبة جنرال وهو المهندس المتفوق دائمًا، الثاقب فى العلم، ها نحن نطلّ على حد، يخبرنى بما لديه من رصيد، ضرورة ذهابه إلى البنك ليكتب تفويضًا لى، أخبرته بضرورة أن يكون لشقيقتنا، ما أنا إلا عليل، منتظر، أوغلنا فى تفاصيل شتى، لو ذكرنا الرحيل الأبدى قبل عقدين لاغير، لطالب كل منا الآخر بالكف تشاؤمًا وتطيّرًا، الآن يتحدث كل منا إلى الآخر متطلعًا إلى نقطة ما، لا نتواجه، كأننا نعد حقائبنا لسفر، لكننا لا نعرف الجهة، فى بدايات سعينا، فى مستهل الإجازات الصيفية نبدأ التأهب للرحيل إلى جهينة، نعد الحقائب، نتأكد أننا لم ننس شيئًا، ما يجب أن نصحبه وما يجب التخفف منه، نخف بالمباهج المتوقعة، اللعب مع الأقران، عناية الجدة وصحبة الوالد فى طوافه بالأصحاب والأحباب، غير أن مرحنا يخف شيئًا فشيئًا كلما دنا موعد خروجنا، ثمة خشية داخلية ألا نرجع إلى ما اعتدناه، حذر قديم وخشية من اهتزاز مسارنا الذى عرفناه، بلوغنا حداً نجهله، ها نحن على وشك غير أن هدوءًا أعجب منه يدثرنا، فى مرات ترحالى الغوارب كنت أعرف الحدود بين ما أنتهى إليه وما أبدأ عنده.
هذه المرة أتأهب وأدرك لكننى لا أعرف إلى أين؟ هكذا تصير الحال عند تداخل الملامح وتماهى الخطوط، أما الوعى بالحد الفاصل فمثير للشجنة، جالب للكوامن.

سنموت

لو أعرف ما يعنيه هذا الموضع عندما قصدته أول مرة زمن فتوتى لتبدّلت أمور، لأبطأتُ بعضها ودفعتُ أخرى، فلم تكن نهاياتى إلا كامنة فى بداياتى، عندما بلغته لم أر إلا جزيرة وسط النيل فوقها معبد، لم أعرف أن نهاية النهايات وبداية البدايات جرت هنا إلا فيما بعد.

أدقق إذ أستعيد، أدهش وأعجب، أما الدهشة فلسرعة انقضاء الوقت، أما العجب فلأن ما مررت به عبر خمسين أو ستين عامًا يبدو كأنه لحيظات، كافة ما نقيس به الزمن يتساوى بعد أن يولى، لا فرق بين سنة أو حول، ما يبيد ويفنى لا يبقى إلا عبر الأسماء، مكان ضمّنى يومًا واستكنت، ربما أننى انصهرت داخلها، أودعت خلاصتى عندها، صاحب حميم إلى حين، لا فرق عندما تنمحى الحدود.

الآن، نفاد الرصيد أسرع، ما يمرّ بى لا يخلف أثرًا، صعب استعادته عبر التذكر، ذلك أنى دائم التقليب والتنقيب فيما كان، أحاول استعادة ما جرى فى القريب فلا ألحق بشىء.

كل ما يرد علىّ يمتّ إلى البعيد، أبذل الجهد لمحاورة القريب فلا يبرز لى ولا يلوح إلا القصى النائى.

أنطق الاسم فى مرقدى فأستحضر المكان بكافة ما يحوى، كذلك الزمان، جزيرة من جرانيت الوقت، المعبد فوقها، رأيت مقصورته قبل أن أشهدها، مرسومة فى إحدى صفحات الكتاب المقرر على الثانية الإعدادية، أهم ما علق عندى سطور تؤكد غرق الجزيرة بما تحوى ستة أشهر كل عام، ستة أشهر للظهور ومثلها للخفاء، يحمل به النهر ويلده مرة أخرى، ثمة ملمح ما من سيرة أم الأمومة التى خصص المعبد لذكرها، لتبجيلها، لترديد اسمها بكرة وأصيلاً قبل حلول تلك الليلة، قبل رحلتى تلك لم أسافر إلا بصحبة الأهل، لأول مرة أسعى منفرداً، إنه خروجى الأول الذى أسس للأمر كله، بل إن بداية صلتى بالوضع ـ الذى انتهيت إليه بعد أن رأى الشيخ ما رأى ـ أرسيت عند وصولى ضمن فريق الكشافة سيراً على الأقدام إلى هذا المرتفع الذى يمكن من خلاله رؤية الدير البحرى، فيما بعد بتدقيق البصر يمكن تحديد مأوى سنموت الأبدى، المهندس العبقرى، عشيق الملكة الأشهر حتشبسوت، صاحب النهاية الغامضة التى لم تذكر تفاصيلها المصادر المتاحة، هنا لابد من وقفة قبل المضى إلى تلك الليلة الأليلة، ذلك أنى شغلت بالاسم حتى إننى استحضرت صاحبه كثيراً، ولكم حيرنى أمره وألزمتنى حاله مراقب الفحص.

سنموت، عندما يرد علينا الاسم فإن ظهور صاحبه يتحقق على الفور، جرى ذلك قبل مشاهدتى تلك الشقفة الخزفية التى خطط عليها أحد الفنانين فى دير المدينة التى يمكننى مطالعة تفاصيلها من مرقدى هذا، رسم ملامحه فى خطوط صريحة واضحة، تلقائية، أنف حاد وعين تتطلع إلى ما لا يمكن تحديده غير أنها ثاقبة، لا أعرف من أين أتقرب إليه، من أى جهة أبدأ تفحصه، أمن الدير البحرى الذى عبر الأزمنة سليماً إلى حد ما فأتاح لنا ذلك النظر والتملى؟!

يبدأ زهو المعبد قبل أى طقس يحدد بداياته ونهايته ومداخله المتّجهة صوب نجوم ومجرات الكون، لابد أن سنموت طاف كثيراً البر الغربى لطيبة، لابد أنه تفحّص وعاين طويلاً وتأمل عبر كافة الأوقات، صعد إلى أعلى حيث أقيم وتأمل الصلات كلها، بين المشرق والمغرب، بين النهر والضفتين، لابد أنه استغرق طويلاً حتى اهتدى إلى شيَم الموقع وعرف خصاله، لو أنه لم يحدد إلا الموقع لكفاه، لقام المعبد بدون بناء، لتجسّد بغير عبارة، ذلك أن المكان يأوى إلى المكان، يستند الموقع إلى الجبل، يتصل المستحدث بالقديم، هذا تشريف وإثراء معًا، لذلك أقول إنه بدأ قبل أن يشرع، لابد أن موسيقى خفية طافت به، حركته الأنغام إلى إيجاد هذا النسق الحجرى الذى أولى سماته تسديد الرسائل، فمن ذلك الدعوة والحض على القبول والقدوم، لا يبلغ المرء النقطة التى يلوح منها المعبد إلا ويصغى إلى دعوة نائية غير أنها تقرب، ثمة نداء فى التكوين كله، هذا ما اقتفى أثره المشيد المجهول لى اسمه الآن لمعبد أبيدوس، حيث عبرت متمنيًا الإقامة والسعى غير أن ذلك لم يتحقق، لم تتح لى الفرصة لإجراء أية مفاوضة مع أى طرف له شأن، فحق لى النفى والطرد والإقصاء الاختيارى والوعى الأتم بما تصير إليه شتى الحدود، أى حد ينتهى عند حد، ما صرت إليه التحقق عند النهايات، كل الحدود تبدأ منى وتنتهى عندى، كذلك شأنى وفيضى، أنا المتيّم بالمجهول للكافة، المستعصى على المثاقبة الكاشفة.

الحض والدعوة، هذه أول رسالة منبعثة من التكوين الفريد، أما التدرج فمفروغ منه، الصعود البطىء على أرض مستوية، مؤدية ومع كل خطوة يعمق القرب.

الرسالة الأخرى انفراجة الأنثى، ثمة شىء خفى، لا يبين فى عمارة معبد توحى بأنوثته، ربما لاستلقائه على الجبل، افتراشه السفح مع تأهب دائم لولوج القادمين، ليس السبب أن من أمرت بتشييده أنثى تخفّت فى هيئة الرجال فاستعارت اللحية والأردية الواجبة، كلا، وإنما يكمن الأمر فى تأنيث الوجود كافة، فالوجود الباقى مؤنث، كذا مصادره، أما اللقاح فمصادره عابرة، سواء كانت رذاذاً من غيوم حبلى، أو مياه النهر التى تتخلل شقوق الأراضى العطشى، ليس ضرورياً أن يعى المرء مفردات الرؤية، يكفى أن يعيش فى الأرض التى تكوّنت فيها العناصر واكتملت الرؤى، فإليها يرجع الكافة ومنها تلوح الأصول ولأجلها جرت وقائع تلك الليلة لكننى أمسك حتى أفضى بما عندى عن اسم سنموت.

أنوثة المعبد الذى شيده فى حضن الجبل لها أصل فى موضع قريب، مرة أخرى، إنه اختيار الموقع، ما من مرة قصدت الوادى الذى يرقد فيه الملوك إلا ورأيت المكان المنفرج كفخذى امرأة متأهبة للجماع، للتلقى، أما ذروة الجبل الهرمية فتحيل إلى الشكل الهرمى وإلى بطولة النهد المشرع بحلمته الحاضة، المغذية، متعددة الأغراض والمسارب، مستنفرة الحليب والمواجع، على الجانبين حضرت مراقد الأبدية، منازل ملايين السنين، كل حفر فى الأرض إيلاج، كل ثقب للقشرة الصلبة نكاح، لذلك جاءت غرف المأوى على هيئة الرحم، من الأنثى نبدأ وإليها نسعى ثم نعود، لو أحصى ما أمضيت من وقت فى تلك المراقد، لو تجاورت الساعات لصارت أياماً وشهوراً، لعله فضولى الكامن يدفعنى إلى تفقد المأوى الأبدى، أطلّ عليه من حين إلى آخر، أنزل غرفة الدفن حيث من المفترض أن أتمدد يوماً قبل أن أتفرق وتعود ذراتى من حيث جاءت، أتعجل بالبصيرة رقدتى عندما أتوسد الرمال، قال لى

المقاول الذى بنى المستقر ويحرسه أيضاً إن الرمال المفروشة من الواحات البحرية، حنيّنة على الجسم خاصة إذا خُلطت بالحنّاء، توقفت بالفحص والتملى عند «حنيّنة» ماذا يعنى ذلك، ما الفرق بين رمال وأخرى، بين تراب وحصى أو صخر، ماذا سيعنى هذا كله عند ميت؟ فى طفولتى أصغيت حذراً مترقباً إلى أم سهير جارتنا تتحدث إلى أمى عن ترحيب الموتى السابقين بالوافدين الجدد، بل إنهم يتباهون ويتعايرون بعدد الزوار الذين يجيئون إلى هذا أو ذاك، لذلك يجب الانتظام فى الزيارة حتى لا يخجل العزيز المتوفى من جيرانه المحاطين بالأقارب، خاصة الذين يسعون فى الأعياد والمواسم بأيد تفيض بالحسنة، أرغفة خبز، أقراص معجونة بالسمن، بلح، ما تيسر، روح الراحل تتجدد، تقوى، تسعد أكثر بالصدقات، يقلقنى أننى سأصبح بمفردى تماماً، منبتا عن كل ما عهدت، فى مجلس سابق للشيخ الطيب كدت أسأله عن حكم الشرع فيمن يصحب معه إلى القبر ما ارتبط به يوماً، لا أعنى المال، المكتنز من ثمين الأشياء، إنما أقصد كتاباً أحببته، رسالة تعنى لى الكثير، أثر ممن أحببت وهمت! غير أنى لم أنطق، أعرف جواب الشيخ، هذا مُحرّم، الأصل أن يعود المرء إلى الأبدية كما جاء أول مرة، كما خرج من الأنثى.

سنموت.

أنطق الاسم كما قرأته فى المصادر، كما سمعت صاحباً متعمقاً فى علم المصريات متقناً للسان الأقدمين، أجد تطابقاً بين ملامحه الواضحة الحادة والاسم، انشغلت به، أراه ساعياً فى البر، مشرفاً على العمارة، على نقش الرحلة إلى بلاد بونت.

أتوقف عند لقائه، خلوته بالملك الأنثى، كيف يسعى، كيف يدبران خلوتهما وعيون أهل القصر والحكماء والخدم المقربين راصدة، ناظرة، لابد أنهم كثيرون، بل تخطى الأمر دائرة القصر كله والدليل ما عثر عليه العلماء الفرنسيون من قطع خزفية رسم عليها الفنانون فى قريتهم المعزولة ما لا يمكنهم تخطيطه فى مراقد الأبدية، بعضها تخطيطات تشبه ما يجريه قلمى على الورق فى فترات تيهى عن وقتى أو انشغالى بأمور متزامنة، الحق أننى دهشت وحرت، أما الدهشة لفحش الأوضاع بين الملكة وعشيقها، أما الحيرة فمصدرها ذلك الفرق الشاسع بين النهار والليل، بين عملهم فى نقش المعابد ومراقد الأبدية، وما رأيته على شقف الخزف، نهاراً يخطّون ملامح الملكة بصحبة الأرباب، إيزيس أم الأمومة، شقيقتها نفتيس، حتحور ربة الجمال والخفق المبين، يبدعون ويتفننون من مرحلة إلى أخرى، بدءاً من تخطيط الأشكال بالأسود، ثم تصحيح الكاهن الموثوق به، وارث الأسرار، المنطوى على كثير، تلوين الأشكال، الجلال يدثر الظلال، غير أن من يؤدون ذلك هم الذين يخطون تلك الأشكال الفضائحية، فمن أصدّق فيهم، الذين رسموا الجلال نهاراً، أم الذين خطوا الفحش ليلاً وربما نهاراً أيضًا؟

من مرقدى أرى شوارع القرية، البيوت، أقسامها، مقابرهم متناثرة على سفح المرتفع، يعلو بعضها هريمات صغيرة، إشارات، يطل الراقدون إلى الأبد على الأحياء العابرين، هؤلاء الفنانون عاشوا أعمارهم هنا معزولين عن العالم، لا يتصل بهم إلا كهنة المعبد، المسئول عن تدبير أمورهم، العالم بملامح الأرباب والربات، بالألوان التى يجب أن يكونوا عليها، عند الاتجاه إلى المراقد التى يحفرونها فى الصخر يعصبون عيونهم، المؤكد أن بعضهم أتقن الطريق، وفى عصور

الشك والضعضعة ربما بدأت سرقة المقابر منهم، وربما بعض الكهنة الذين نال منهم الشك، لم يستعص مرقد على المنقبين، فما أتقن صنعه إنسان لن يستعصى فضه على آخر، أهو عدم اليقين؟ إن الأمر كله غير حقيقى، مجرد تخيل وتجسيد بالخطوط للقوى التى تتحكم فى هذه المسارات؟ أم إنه غياب الوعى بعد شرب البوظة، هكذا عرفتها، فى الكتب توصف بالجعة، مصدرها الشعير والقمح المتخمر، رأيت البائعين يسعون بها فى دروب جهينة، يحمل كل منهم عصًا غليظة يتدلى منها إناءان مشدودان بحبال، واحد فيه المشروب معتق سادة وهذا للكبار، له تأثير معلوم، الآخر فيه البوظة المحلاة بالسكر، كانت موصوفة لضعاف البنية من الأطفال ومن لحقهم وهن، لكم شربتها محلاة فى السوق، لكنها توارت الآن بعد ظهور المتشددين دينيًا منذ السبعينيات، حتى المسيحيون صاروا يستقطرون العرق خفية ويحتسونه سرًا، مع أن الخمر لم يحرم عليهم.

هل رسموا هذه الأشكال تحت تأثير الخمر؟ أم إنها نظرتهم الأعمق المستترة.

إذن أين إيمان وقتهم؟

المفترض أن الملك، أى ملك منحدر من صلب حورس، يمت بنصفه غير المرئى إلى الأعالى، وسعيه المحسوس إلى الأراضى، فمن أصدق؟ فى الأمر حيرة، عمارة سنموت فرضته علىّ، أدت إلى انشغالى به وتقمصى له أحيانًا، غير أن العنصر المقرب صلته باسمه.

رغم بلوغه الحظوة، هيام الملكة القوية بين يديه، بلوغه الذروة عبرها، اتحادهما فى كيان واحد، لابد أنه العشق، ذلك المحفز، الدافع لاختياره موقع المعبد ولإبداعه ذلك التصميم، إلا أنه كان يعرف بثاقب

ذكائه أن حساده كثيرون، كذلك المتربصون، فالقرب فيه مخاطر، لذلك عندما شرع فى حفر مرقده الأبدى كان يرى ذلك اليوم الذى سيحل وينبش فيه، سيدخل إليه من يمقته، وربما من لم يعرفه ولم يره، سيدمر اسمه، سيمحوه، وهذا يعنى إفناءه فى الأبدية، محو وجوده فى اللاوجود، هذا أقصى ما يخشاه أى إنسان عاش على ضفتى النهر، ملكًا كان أو فلاحًا فقيرًا أو خادمًا يجمع الفضلات عقب الاحتفالات فى ساحات المعابد، بقاء الاسم أهم من استمرارية صاحبه فى الحياة المنظورة، بقاء الاسم يعنى فاعلية الكينونة، ولكى يبقى يجب أن ينطق أو يكتب، ما يخشاه سنموت المحو الأبدى، ماذا فعل؟

كتب المتون والأدعية وأشرف بنفسه على الرسوم، كل هذه العناصر تتضمن اسمه، إلى هنا والأمر مألوف، معروف، لكن بعد تمام الأمر قام بتغطية الجدار كله بطبقة دقيقة من الجص، مرة أخرى رسم الأشكال والحروف بالطبع الاسم، للمرة الثانية غطى الكافة بجص آخر، وللمرة الثالثة دوّن ما يجب أن يصحب رقاده الأبدى، فى حدود ما عرفت، فى حدود ما علمت لم يقدم أحد على فعل مماثل، وما توقعه سنموت جرى، اختفى فجأة، لا تفصح لنا المصادر المتبقية عما جرى له، لكنه توارى تمامًا خلال السنوات الأخيرة من حكم الملكة التى اغتصبت حق شقيقها فى العرش، نُقبت المقبرة، دمر أعداؤه الرسوم، شوّهوا النصوص، محوا اسمه تمامًا، يبدو أن بعضهم اكتشف وجود طبقة أخرى مخفاة، وربما ظنوا فى العتمة وربما لرغبتهم إنهاء العمل بسرعة أدركوا أنها جزء من الطبقة الأولى، على أية حال نفدت الثالثة وتلك وصلت مكتملة، منها عرف المنقبون العلماء اسمه وأنه بانى ومصمم الدير البحرى.

بقى الاسم «سنموت»، وهذا يعنى استمراره فى اللامكان، من العقائد المرتبطة بالاسم، أن كل نطق، كل كتابة تزيد فى مدته وتعمق مفعوله، تدعم ما يتميز به من خصائص إذا كان اسمًا مقدسًا له صلة بالأرباب، لا أعرف ما بذله حاملو الحكمة والأمناء على الأسرار من جهد لبقاء أسماء من اعتقد بهم الخلق آلاف السنين، لكنها وصلتنا، أى إنهم بيننا بشكل ما، كما أحاطنى تكوين الدير البحرى وجلال مكانه بهزة غامضة، رعشة على الحافة ليس مصدرها أو متلقيها الجسد، هذا ما تأجج عندى لحظة تطلعى إلى المقصورة الرئيسية أول مرة، الدير البحرى فوجئت به، باغتنى تمامًا، أما هذا فكان له مرجعية فى ذاكرتى، صورته المخططة فى الكتاب المدرسى، ورغم ذلك روّعنى، لم أعرف الكثير عنه فى زيارتى الأولى، غير أن الرسالة وصلتنى، ولم تكن أعوامى التالية إلا أزمنة لفضها ومحاولة فهم مضمونها وإيماءاتها وما تنبئ به، دائمًا أدرك الأمر فى مجمله، وأمضى ما أتيح لى من مدة محاولاً الفضّ والرأفة، أعرف الآن أننى سأمضى وكثير مما حيرنى مستغلق، مبهم علىّ، لكننى لا أكفّ عن المحاولة.

جئت فيما تلى ذلك مرات، حاولت استيعاب الصلة بين الصخور والمياه، بين الضفتين القائمتين، المتواجهتين واللتين لا تلتقيان أبدًا، مع كل إلمام بتاريخ المكان يتغير فى بصرى وبصيرتى.

قصدت الفندق القديم مرة، عند وصولى إليه قابلنى المدير المالى، قال إنه من أخميم، رآنى مرات خلال إقامتى وتجوالى، أبدى ترحيبًا أخجلنى، قال إنه رتّب الأمور مع المسئولين هنا، خصصوا لى الغرفة التى اعتاد الرئيس الفرنسى فرانسوا ميتران النزول فيها، يجيئ كل عام فى زيارة خاصة، يبحر عبر النيل من الأقصر إلى أسوان، يمضى

الكريسماس ويستقبل العام الجديد عند الحد الجنوبى لجزيرة فيلة، يعبر إليه فى قارب صغير يقوده نوبى اعتاد صحبته منذ بدء تردده على أسوان قبل توليه الرئاسة عام واحد وثمانين، حتى بعد تسلّمه السّدة وتحرّكه فى إطار المراسم، لم يتغير من الأمر شىء، خاصة تلك الرحلة النيلية بعد الغروب وقبل الشروق ومكوثه سويعات بمفرده فى المعبد، فقط حارسان من بعيد، يتوقفان عن متابعته عند مدخل المعبد، هكذا أبدى الرغبة، واحترم كل من تعاقب على الإدارة فى المنطقة ما عبّر عنه، هذا معروف، شائع بين الناس، غير أن الأمر أجرى عندى مفاجأة بعد دخولى الحجرة وخروجى إلى الشرفة.

كأن خلق الكون بدأ من هنا، من هذا الموضع تحديداً، إلى أى حد أدركت رهافة الرجل وثاقب نفاذه، تلك الصخور بتكويناتها المنحوتة عبر ملايين السنين، تدفق النهر، تناثر الرذاذ، بكر، بكارة، كأن المشهد لم تخدشه عين، لم يحتوه بصر، بقدر ما احترمت خيار هذا الرجل الذى عاين الرئاسة ومكث فيها، بقدر ما أجللت ثقابته، أيقنت أن مجيئه المرة الأخيرة كان إقراراً وتوقاً إلى الرحيل، كان يعلم خطورة حالته، وربما قدّر ما تبقّى له من مدة، المؤكد عندى رغبته أن يرحل من هنا، غير أن الإنسان مهما أوتى من قدرة وإمكانية داخلية أو شفافية لا يمكنه الموت فى الوقت المرغوب أو المكان المقصود، إلا إذا أقدم بنفسه، غير أن هذا حال وذاك حال.

حكى لى البحار النوبى، من اعتاد صحبته عن تفضيله ما قبل الشروق لملامسة الجزيرة من طرفها الجنوبى، حيث الصخور والمياه، عن بقائه وحيداً فى مواجهة المعبد، عن توقفه أمام الأسماء المحفورة فى الصخور، يتأمّل كلاً منها، هذه حروف يونانية، تلك لاتينية، أخرى

حروف مجهولة من لغات غير معروفة، تلك أسماء العابرين، الذين جاءوا وتوقفوا وحاولوا التعلق بالمكان على أمل الترحال أيضاً إلى أزمنة لن يكونوا فيها، كل اسم يتضمن رسالة إلى مجهول، من صاحب الاسم إلى من يجهل ولا يعرف، كل من تأمّل اسماً محفوراً يدخل الحال نفسه الذى سبقه إليه الآخرون، يتساءل عن صاحبه، من أين جاء وإلى أين مضى وأين بلغ المرسى؟ رغم مثول الحروف أمامنا إلا أنها تثير التساؤلات، المجهول محفّز دائماً للسؤال، وأحياناً يكون السؤال أهم من الإجابة.

حدثنى البحار النوبى عن خلوة ميتران وحرصه على البقاء وحيداً، وإبقاء فرد الحراسة المرافق بعيداً عند دخوله المعبد ودنوه من المقصورة، هل كان يجول عنده ما حيرنى، خاصة فى تلك الأيام الأخيرة؟

لا أعرف، ولكننى أقدر على التخمين وضرب الاحتمالات، تمنيت لو استمر سعيى حتى بلوغى الجزيرة، أن أطلّ عليها من شرفة الفندق فأرى بدء الخليقة، نواة المكون وعتبة الوجود، غير أن الشيخ الطيب أمرنى بالمكث وبدء الإقامة فلزمت، غير أن ترحالى لم يتوقف، بل ازداد شسوعاً وتعدداً، فما لا نبلغه بالحركة نصل إليه عبر الأسماء كلها، ما رسوْت عنده بالمخيلة والسفر من حرف إلى آخر أفق آخر، لا حدّ له ولا علامات توقف وتمنع، لم أعرف عند وصولى الجزيرة أول مرة أن أحد معانى الاسم «الفنتين» يعنى النهاية.

الحد، الحدود، بلوغها أرّقنى وحيّرنى، زلزلتى الداخلية، الأعمق تبدأ عند بلوغى الحد، أى حد، لعل ذلك أحد دوافع خرجتى ومفارقة كل ما اعتدته ولزمته سعياً وراء إدراك ما لم ألمّ به، وما لم يساعدنى الوقت على بلوغه أو فهم جوهره.

عندما تمددت فوق فراش الفندق، تنديّت بالضوء المنكسر عبر الزجاج والستائر الرهيفة، قوى علىَّ حضور فرانسوا ميتران، خاصة ما كان يبحث عنه خلال زيارته الأخيرة التى أوفى بعدها مدته، لكن ليس فى الموضع الذى تمناه إنما فى موطنه.

يوم ما، منذ سنوات جرى حوار بينى وبين صاحب لى، فارق مصر إلى بيروت بعد أن تزوج من سيدة ثرية جداً، زرتهما فى بيتهما الصيفى ناحية كيفون، لم ينجبا، صاحبى هذا كان منغمسًا فى السياسة، فى الحركة اليسارية، قريبًا من بعض رجال الثورة، كان مهيب الحضور، كث الشارب، رائق النظرة، حريصًا دائمًا على إبداء رأيه فى أمور تجرى وكأنه مازال فاعلاً، مقيمًا، معظم رفاقه رحلوا، يكبرنى بخمسة وعشرين عامًا لكنه يبدو أصْبى، خلواً من الهموم اليومية، والقلق على المصير، غير أنه مرة شكا لى بعضًا من مواجعه، فلا أحد يتذكّره أو يعرفه، خاصة من الأجيال التالية، أحيانًا يمنعنى الخجل عن إبداء بعض مما أراه دقيقًا، صحيحًا، لم أقل له إنه غير موجود بالفعل، من يغترب يخسر ما لم يعشه، لا يمكن أن يكون هناك وأن يوجد هنا، مهما تحدّث عبر الهاتف، مهما كتب هنا أو هناك عن الشأن، لم أنطق ذلك، غير أنى ألمحت إلى هدوئه الراسخ مع تقدّمه فى العمر، هل تتجدد النضارة مع انتفاء الهموم، أين الخشية من بلوغ الحد؟ قال إنه هادئ مستقر، متفهّم للحظة الآتية لأنه لا يؤمن بعالم آخر، بامتداد فيه ثواب وعقاب، هذا تصوُّر قدّمته مصر إلى الإنسانية فى محاولة لرفض العدم.

قلت دهشًا إننى ظننت المؤمن أهدأ، والملحد أكثر قلقًا إذ يعى أنه يمضى إلى تفرُّق لا جمع بعده، إلى عدم.

أجابنى هادئًا، مستقرًا إن القلق مصاحب للتوقع، لكن عندما ينتفى الانتظار، عندما يغيب الحساب والعقاب لا يكون قلق، فقط الانتظار الهادئ.

وصل صاحبى إلى الحد أثناء جلوسه فى مقهى الفلور الباريسى، اعتاد أن يقصده، يتأمل المارة من خلف حاجز شفاف رهيف، عندما رآه الجرسون مغمضًا عينيه، على غير عادته، نادى السيد الذى يعرفه رغم تباعد مرات تردده، لمسه بيده، سقط ذلك السقوط الثقيل عندما تنتفى الإرادة من الجسد، فى أوراقه وجدوا ترتيب كل شىء بخط يده، بمن يجب الاتصال، وكيفية نقل الجثمان، وكافة تفاصيل الخطة، إنه الحد، أحيانًا يكون على مستوى الفرد، ومرات يكون أشمل، تمامًا كما جرى فى تلك الليلة، فوق جزيرة النهاية.

ليلة السريان

إنها ليلة الليالى، الحاوية، المتضمّنة لكل ما كان وكافة ما سيكون، اليوم الأول، الأسبوع الثانى من الشهر الثالث المنقضى على بدء الفيضان، تبدو بوادره غزيرة.

اكتمال المغيب، لكن لا تراتيل وداع، لا ابتهالات إلى الإله أملاً فى عودة القرص المضيء، توقّع ظهوره بعد عبور البوابات الاثنتى عشرة غير المرئية، ما من موسيقى خافتة، شجية، مصاحبة، لاشىء فى اللاشىء المتمكن الآن، إنه صمت الصمت، بل إن المكان فقد خاصية عُرف بها منذ ملايين السنين، إنها بثّ الصدى، إذ يبدأ الترتيل من المعبد الكبير فوق الجزيرة، يتردد الصدى عند كل من الشاطئين المتواجهين، من الصدى تبدأ أصداء متوالية، كل منها كأنه مصدر، يبلغ الجزر البعيدة والمهاوى، بل يجتاز الفراغات العُلا إلى السدم والمجرات الحافلة، هذا بطل مع توقف الشعائر وانقطاع الصلوات تلك الليلة.

بل يؤكد من عاش تلك الليلة أن المكان كله بدا مغايرًا، مختلفًا عندما انبلج الضوء عن صبح مغاير لا تجد فيه أم الكون، والدة الحضور، المفردة، بوابة البوابات، المجمع لكل ما يلوح أو يأفل، المحيطة، المسبغة، المانحة، الجامعة للجهات.

يقوى علىّ حضورها فى معزلى هذا المطلّ على المشرق والمغرب، أطياف أنوثتها، كمالاتها، استداراتها على هيئة الوجود، قدرتها على الاحتواء والإرضاء، والحنو، إذ تبدى الزجر فليس ذلك إلا ظاهرًا لعين التبسبس والهفهفة، المشهد الأتم، الأكمل، حنوّها على رضيعها، هى المنبع، هى التدفق، هى الأصل، ليست الذكورة إلا أداة مكملة، أراها من مرقدى ها هى فوق جدران معبد أبيدوس المكرّس لزوجها الشهيد. قوامها فاره، حاو، أخمص بطنها، إطلالة ردفيها الهادئة، الوثيرة، الملهمة، لمسة أصابعها لكتفها، أوزير أمامها مدثّرًا فى كفنه الأبيض، يداه معقودتان أمام صدره، إنه الوضع الذى يجب أن يبدأ به الرحيل الأبدى، الاستسلام لكل ما كان وما سيكون، للمعلوم وللمجهول إذ يتساويان عند الخروج من التكوين وتلاشى البنية.

أرى ما أرى الآن، أشهد وقفتها خلفه، هى الحامية، الحانية، لمستها شفقة، وتجلّيها استحضار، وسعيها ترياق، لعل هذا ما أججنى مع كل اللواتى عرفتهن، إذ أوارى ملامحى أعلى صدورهن، ما بين أساس الرقاب وبدء الأكتاف، ذاك مثواى.

لم أعرف رمزية اللمسة، الحنو الكامن إلا عند استعادة ما رأيت، وتفحّص ما عاينت، أدرك أمر الشيخ لى بملازمة تلك الخلوة، هذا الموضع بعينه، منه أرى البعيد والقريب، لكثرة ما يتوالى علىّ لا أعرف ما يجب أن أذكره أولاً أو أستدعيه تاليًا.

لكم رأيت وعاينت وأقمت، لم أنتبه إلى المعانى الكامنة والرسائل المبثوثة إلا بعد انقضاء الأوقات وانتقال الأحوال، بل إن الرؤى الثاقبة لا تبزغ إلا بعد فوات المراحل.

أشهدها تجوب الوادى، تبلغ الأقاصى، تجوس أحراش الشمال، تلملم أجزاء أوزيرها المقتول ظلمًا، لا تضمها إلى بعضها، إنما تغطى كلاً منها، تسقيها، ترويها بدموعها، دموعها التى يبدأ بها فيضان النهر العتيق، المنساب منها، عندما يكتمل الغياب يبدأ التفرّق، الوحدة فى الحياة والحياة فى الوحدة، كل شىء يمضى إلى جهة لا يعود منها عدا الاسم، يبقى مخفيًا حتى يُنطق فيحضر المكان والزمان وما اشتملا عليه، هى أول من عرفت قوة الاسم وهى بلا اسم، هى من همس لها الإله رع باسمه الأعظم المخفى، لم يعرفه إلا هى، فما يتضمنه من طاقات ورؤى يتجاوز أى مخلوق بكل ما حواه من رؤى، وقدرات. إنه الاسم عينه الذى دنا منه سيدنا ذى النون فأوشك وعقل، بدون معرفتها الاسم ما كان ممكنًا أن تحمل من زوجها الميّت بعد عثورها على قضيبه وتلقيها النطفة منه.

لكم توقفت عند تلك اللحظة من حياتها، من مسراها الذى كانت تتمهل عنده الترانيم التى أمر الإمبراطور الرومانى بإبطالها بدءًا من تلك الليلة فى آخر معبد خُصص لذكرها، غير أن الإمبراطور أو أى شخص آخر مكانه لم يكن ممكنًا له إخفاؤها ما بقيت أنفاس تتردد، اسمها يتردد فهى دائمة ظهرت بصورتها الأولى أو التالية أو التى لم توجد بعد، جوهرها واحد، الأم، هى أم الأمومة، ليس عند الناطق فحسب أو الحيوان المهمهم، أو الحشرات ذات الأزيز، أو المخلوقات التى لا تُرى إلا بمساعدة مجهر، إنما تسرى إلى الحجر الخارج من الحجر، والجذع المستخلص من البذرة، ما من عنصر يخرج من آخر إلا وفيه قبس منها ورجاء، أنطق بها فأحنّ إلى كل موضع بلغته، وكل مكان قصدته.

فى المغرب، أقصى اليابسة الأفريقية المشرفة على المحيط الأعظم صحبنى من أئتنس به إلى صخور وكهوف مشتبكة فى عراك مع الماء طوال الليل والنهار، قال إن النساء اللواتى يواجهن عسرًا فى الحمل يقصدن تلك المواضع، تقف كل منهن منفردة تمامًا، تكشف فرجها، تتلقى رذاذ المحيط على شفريها، بظرها، فخذيها، لا تعود إلا إذا تبللت تمامًا ونفذ القطر إلى بداية مهبلها، بعضهن يبلغن الذروة، بعد رجوعهن يمكثن بمفردهن ثلاث ليال، بعد أسابيع تظهر أعراض الحمل.

عند بلوغى الصيف أصغيت إلى صاحب قديم سافر منذ زمن واستقر بعد اقترانه بطالبة جاءت إلى القاهرة تدرس اللغة العربية، لا يغيّر مصير الإنسان إلا أنثى، حدثنى عن جزيرة يبحرن إليها من شنغهاى، يقطعن نهر اليانجستى، ثم مسافة إلى عمق المحيط، فى أيام معينة تمطر السماء منيًا، يستلقين على ظهورهن منفرجات، ينتظرن مس القطر!

يتصل بذلك ما تردد عن البذرة المركونة بعد بدء سفر أهل البلاد بحثًا عن الرزق، يعود الذكور ليفاجأ بعض المتزوجين منهم أنهم أصبحوا آباء فى الغياب، عندئذ تكون الصدمة وردود الفعل غير المحمودة، غير أن بعض الفقهاء استندوا إلى نصوص عتيقة، أظهروا تفسيرًا مرضيًا يقول بتحرّك البذرة المركونة، كثيرون تقبّلوا ذلك، هدأت خواطرهم ورضوا.

من قضيب أوزير المتوفى، أمير الأبدية، حملت العذراء الكونية وبعد أن أنجبت حنت واحتوت، فهى الحماية، وهى الدراية، وهى المنة وهى المنون، هى البداية وهى الأبدية، الصابرة، المؤدّية، المهدهدة،

المتابعة، الجالبة للسكينة والمنقبة عن منابع الرضا، ألقت برضيعها إلى اليم، خبأته بين الأحراش، ما بين الماء والقاع، ما بين الجذع والجذع، ما بين الظل والأصل، ما بين الزاوية والاستقامة.

منها بدأت الحياة وإليها تعود، لآلاف السنين تردد اسمها، وإلى ما لا يمكن رصده سيذكر، أم كل أم، منها الخلق، والاستدارة والبشارة، منها التجدد والبقاء والمدد.

فى تلك الليلة جرى شىء، أمر لا يمكن ذكره بدقة أو وصفه، بعد أن أصدر الإمبراطور الرومانى من بعيد، من عاصمة إمبراطوريته التاسعة أمراً بإبطال الطقوس الخاصة بذكرها وتبجيلها فى آخر مكان تبقى، فى آخر معبد خصص لتمجيدها، لذكرها.

يؤكد بعد ما وقفت عليه من نصوص أن ما جرى يشبه ما وقع بعد غزوة قمبيز الفارسى لمصر، بعد أن جمع قادته وأركانه طلب منهم أن ينفّذوا أمره تمامًا: ألا يبقى من حكمة مصر أو آثارها شىء، هكذا بدأت أشنع عملية تخريب فى العصور كافةً، لذلك فإن ما أراه الآن من مرقدى القسرى، أو ما عاينته خلال رحلتى المدرسية الأولى إلى سقارة، ثم رحيلى المتكرر إلى أهناسيا وتل العمارنة وأخميم وأبيدوس والأقصر، وصولاً إلى أقصى حدود الجنوب، ما رأيته بعد وصوله إلينا معجزة مكتملة الأركان، ليس لما جرى من دمار على يدى قمبيز، إنما بواسطة المصريين أيضًا، وهنا مكمن آلام يطول الحديث فيها.

وصل إلى حكماء مصر ما قدّره قمبيز الفارسى، عندئذ جمعوا اللفائف والتماثيل، والأوعية، والألواح، كل ما يحتوى على التفاصيل أو الإشارات، وقع اتفاقهم على موضع ما فى مكان ما،

حفروا إلى أقصى ما يمكن أن تبلغه إمكانيات الوقت، وضعوا هذا كله فى صندوق ضخم، يقينهم أن يومًا سيأتى يطّلع فيه أبناء الأبناء على ما كان فيهتدون.

فى تلك الليلة الشبيهة، غير أنها الأخيرة، أتمّ الآباء ما بدأوا فيه، أمر يخصّ الأسماء كلها.

ماذا جرى بالضبط؟

ليس لدىّ علم، يتعلق بما تم بالأسماء، أكاد أوقن أن ما يجرى لى هنا قرين ما حدث فى آخر ليلة تختتم بها الطقوس التى بدأت قبل ظهور الأسماء، إنها كامنة، تمامًا مثل أنغام الموسيقى التى تتوالى علىّ، كافة الأنغام دفينة اللامكان واللازمان، فقط تحتاج من يستخرجها، فى تلك الليلة عزف السدنة اللحن الذى توصل إليه كبيرهم. نغم مكرس للحنين إلى عذراء الكون، الوفية لأوزير، المنجبة منه بعد تمامه. لحن من مقام لم يُعرف من قبل، مستلب منتزع من هفوف الرياح الواهنة، ليس إلا الصبا، فى تلك الليلة بدأ وراح يسرى، كذلك الأسماء، تمضى فى اللاجهة، نستحضرها فيكتمل الوجود، تغيب فيُمحى، يتساوى وجود البذرة والغصن والثمر والحجر وذرة الرمل، ومن يتلقّى أو تصدر عنه الأنفاس.

تلك الليلة أحضرها راقدًا رغم الفارق الزمنى، يداى على صدرى، علامة التسليم، منها تفرّقت الحروف والألوان وسائر المكونات، فى أى لغة أو منطوق، أى لغة أو لهجة، أو نظرة أو إيماءة، فى كل وتر يرف، فى تفرُّقها عدمى، وفى التئامها اكتمال الاسم، أى سعيى.

سبتمبر عام ٢٠٠٧

صدر للكاتب

١ ـ أوراق شاب عاش منذ ألف عام	مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٦٩
الطبعة الخامسة	١٩٨٧ (صدر فى بغداد ـ بيروت ـ القدس المحتلة عن دار صلاح الدين)
الطبعة السادسة	١٩٩١ القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢ ـ أرض.. أرض	مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٢ القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب
الطبعة الثانية	١٩٨٠ بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١ القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب
٣ ـ الزويل	قصة طويلة
الطبعة الأولى	١٩٧٤ بغداد ـ وزارة الإعلام
الطبعة الثانية	١٩٨٠ بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٨٧ القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الرابعة	٢٠٠٦ دار الشروق
الطبعة الخامسة	٢٠٠٧ دار الشروق
٤ ـ الزينى بركات	رواية طويلة
الطبعة الأولى	١٩٧٤ دمشق ـ وزارة الثقافة
الطبعة الثانية	١٩٧٥ القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثالثة	١٩٨٥ القاهرة ـ دار المستقبل العربى
الطبعة الرابعة	١٩٨٨ القاهرة ـ كتاب اليوم ـ مؤسسة أخبار اليوم
الطبعة الخامسة	١٩٨٩ القاهرة ـ دار الشروق
الطبعة السادسة	١٩٩١ تونس ـ دار الجنوب
الطبعة السابعة	١٩٩١ بغداد ـ دار الشئون الثقافية
الطبعة الثامنة	٢٠٠٥ دار الشروق
٥ ـ وقائع حارة الزعفرانى	رواية طويلة
الطبعة الأولى	١٩٧٦ القاهرة ـ دار الثقافية الجديدة

الطبعة الثانية	١٩٨٦ القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثالثة	١٩٨٧ بغداد ـ دائرة الشئون الثقافية
الطبعة الرابعة	١٩٩١ القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الخامسة	٢٠٠٦ دار الحوار اللاذقية
الطبعة السادسة	٢٠٠٨ دار الشروق
٦ ـ الحصار من ثلاث جهات	مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٥ دمشق ـ اتحاد الكتاب العرب
الطبعة الثانية	١٩٨٠ بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
٧ ـ حكايات الغريب	مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٦ القاهرة ـ كتاب مجلة الإذاعة
الطبعة الثانية	١٩٨٠ بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
٨ ـ ذكر ماجرى	مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٨ القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثانية	١٩٨٠ بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
٩ ـ الرفـــــاعى	روايـــة
الطبعة الأولى	١٩٧٨ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
الطبعة الثانية	١٩٨٠ بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
١٠ ـ خطط الغيطانى	روايـــة
الطبعة الأولى	١٩٨٠ بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثانية	١٩٩١ القاهرة ـ مكتبة مدبولى
١١ ـ كتاب التجليات (السفر الأول)	روايـــة
	١٩٨٣ القاهرة ـ دار المستقبل العربى
	بيروت ـ دار الوحدة العربية
	روايـــة

١٢ ـ كتاب التجليات (السفر الثانى)	١٩٨٥ القاهرة ـ دار المستقبل العربى
	روايـــة
١٣ ـ كتاب التجليات (السفر الثالث)	١٩٨٧ القاهرة ـ دار المستقبل العربى
كتاب التجليات: الأسفار الثلاثة (مجلد)	١٩٩٠ القاهرة ـ دار الشروق
	٢٠٠٦ دار الشروق
١٤ ـ إتحاف الزمان بحكاية جلبى السلطان	مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٨٥ القاهرة ـ دار المستقبل العربى
الطبعة الثانية	١٩٩٠ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
١٥ ـ رسالة فى الصبابة والوجد	روايــة
الطبعة الأولى	١٩٨٧ القاهرة ـ روايات الهلال
الطبعة الثانية	١٩٩٠ القاهرة ـ دار الشروق
١٦ ـ رسالة البصائر فى المصائر	روايــة
الطبعة الأولى	١٩٨٨ القاهرة ـ روايات الهلال
الطبعة الثانية	١٩٩٠ القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثالثة	٢٠٠٨ دار الشروق
١٧ ـ شطح المدينة	روايــة
الطبعة الأولى	١٩٩٠ القاهرة ـ روايات الهلال
الطبعة الثانية	١٩٩١ القاهرة ـ دار الشروق
١٨ ـ هاتف المغيب	روايــة
الطبعة الأولى	١٩٩٢ القاهرة ـ روايات الهلال
١٩ ـ ثمار الوقت	مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٨٩ القاهرة ـ كتاب اليوم
الطبعة الثانية	١٩٩٠ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
٢٠ ـ أسفار المشتاق	أدب رحلات
	١٩٩٢ القاهرة ـ دار سعاد الصباح
٢١ ـ منتصف ليل الغربة	مختارات قصصية
مختارات فصول	١٩٨٤ القاهرة ـ الهيئة المصرية للكتاب

٢٢ ـ أحراش المدينة	مختارات قصصية
كتاب اليوم	١٩٨٥ القاهرة ـ مؤسسة أخبار اليوم
٢٣ ـ المصريون والحرب من صدمة يونيو إلى يقظة أكتوبر	دراسات ومشاهدات
كتاب روز اليوسف	١٩٧٤ القاهرة ـ مؤسسة روز اليوسف
٢٤ ـ حراس البوابة الشرقية (الجيش العراقى فى حرب أكتوبر)	دراسات ومشاهدات
الطبعة الأولى	١٩٧٥ القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثانية	١٩٧٥ بيروت ـ دار الطليعة
٢٥ ـ نجيب محفوظ يتذكر	
الطبعة الأولى	١٩٨٠ بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثانية	١٩٨٧ القاهرة ـ مؤسسة أخبار اليوم
٢٦ ـ مصطفى أمين يتذكر	
	١٩٨٠ القاهرة ـ مكتبة مدبولى
٢٧ ـ ملامح القاهرة فى ألف عام	
الطبعة الأولى	١٩٨٣ القاهرة ـ كتاب الهلال
الطبعة الثانية	١٩٨٤ القاهرة ـ مكتبة مدبولى
٢٨ ـ أسبلة القاهرة	
٢٩ ـ مقامات بديع الزمان الهمذانى (تحقيق الإمام الشيخ محمد عبده)	دراسة ومراجعة
	١٩٨٨ القاهرة ـ مؤسسة أخبار اليوم
٣٠ ـ شطف النار	مجموعة قصصية
	١٩٩٦ القاهرة ـ هيئة قصور الثقافة
٣١ ـ مختارات أبى حيان التوحيدى	
	١٩٩٣ القاهرة ـ المجلس الأعلى للثقافة
٣٢ ـ توفيق الحكيم يتذكر	
	١٩٩٤ القاهرة ـ المجلس الأعلى للثقافة
	مجموعة قصصية
٣٣ ـ مطربة الغروب	
	١٩٩٦ القاهرة ـ دار الحضارة العربية
	روايــة
٣٤ ـ سفر البُنيان	
	١٩٩٧ القاهرة ـ روايات الهلال

٣٥ ـ حكايات المؤسسة	روايــة
	١٩٩٧ القاهرة ـ دار الشروق
٣٦ ـ الخطوط الفاصلة	ترجمة ذاتية
	١٩٩٧ القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية
٣٧ ـ خلسات الكرى (دفتر التدوين الأول)	
الطبعة الأولى	١٩٩٨ القاهرة ـ دار شرقيات
الطبعة الثانية	٢٠٠٠ القاهرة ـ دار الشروق
٣٨ ـ دنا فتدلى (دفتر التدوين الثانى)	
الطبعة الأولى	١٩٩٩ القاهرة ـ دار الحضارة العربية
الطبعة الثانية	٢٠٠٣ القاهرة ـ دار الشروق
٣٩ ـ متـــون الأهـــــرام	٢٠٠٢ القاهرة ـ دار الشروق
٤٠ ـ حــكاية الخبيئـــــة	٢٠٠٢ القاهرة ـ دار الشروق
٤١ ـ رشحات الحمراء (دفتر التدوين الثالث)	٢٠٠٣ القاهرة ـ دار الشروق
٤٢ ـ نوافذ النوافذ (دفتر التدوين الرابع)	٢٠٠٤ القاهرة ـ دار الهلال
٤٣ ـ نثار المحو (دفتر التدوين الخامس)	٢٠٠٥ القاهرة ـ دار الشروق

أعمال ترجمت إلى لغات أجنبية

١ ـ الزينى بركات

الطبعة الفرنسية	Edition Du Seuil
الطبعة السويدية	Norestad & Soners
الطبعة الإنجليزية	Penguin
الطبعة الهولندية	Unieboek
الطبعة النرويجية	Ascheoug
الطبعة الألمانية	Lenos
الطبعة الروسية	رادوجا
الطبعة البولندية	الدولة

كما ترجمت إلى العديد من اللغات الأخرى

٢ ـ وقائع حارة الزعفرانى

ـ صدرت ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية، فى سلسلة الأدب المعاصر عن الهيئة العامة للكتاب فى القاهرة.

ـ صدرت باللغة الألمانية عن دار فولك ـ إندلخت.

ـ قصص قصيرة ترجمت متفرقة إلى اللغات: الفرنسية، الإنجليزية، الإيطالية، الإسبانية، العبرية، الألمانية.

ـ ترجمت الروايات التالية إلى عدد من اللغات:

١ ـ شطح المدينة	٢ ـ هاتف المغيب	٣ ـ متون الأهرام
٤ ـ رسالة البصائر فى المصائر	٥ ـ كتاب التجليات	٦ ـ مقاربة الأبد

جـــوائز:

ـ جائزة الدولة التشجيعية للرواية عام ١٩٨٠

ـ وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى

ـ وسام الاستحقاق الفرنسى من طبقة فارس ١٩٨٧

ـ جائزة سلطان العويسى ١٩٩٧

ـ جائزة لورباتايون الفرنسية ٢٠٠٥

ـ جائزة جرزياتا كافور ٢٠٠٦

ـ جائزة الدولة التقديرية ٢٠٠٧

أعدت دراسات عن أعماله، فى جامعات:

القاهرة، السوربون (باريس) ـ بيركلى (أمريكا)

محمد الخامس (الرباط) ـ جامعة لندن ـ جامعة مارتن لوثر

هاله (ألمانيا الديمقراطية) ـ جامعة ليبزج ـ جامعة أرلنجن (ألمانيا الغربية).

جامعة القاهرة، جامعة المنيا، أكاديمية الفنون، جامعة كولومبيا.

... لأمر جري وتمكّن منّي تغيّر حالي وتبدل أمري، لن أفصّل ولن أخوض فلم أتأهب بعد لإيراد الأسباب، لكنني ألمح وأشير إلي زلزلة ما عندي وتبدّل ما التزمت به، لم يعد أمامي إلا الشروع في هجاج والخروج من سائر ما يتعلق بي أو أتصل به، أطلعت أهلي ومن خرجا عبر صلبي وترائبي، ودَعوني بالتمني، ألا تطول الغيبة، وأن تُكتب لي السلامة في كل خطوة أو موضوع أحل به...

جمال الغيطانى أحد أهم كُتّاب الرواية فى العالم العربى، وحائز على جائزة الدولة التقديرية عام ٢٠٠٧. له أكثر من ٥٠ كتابا ما بين الرواية والقصة وأدب الرحلات واليوميات، من أشهرها: «الزينى بركات» و«كتاب التجليات» و«دفاتر التدوين» و«متون الأهرام» و«وقائع حارة الزعفراني». وترجمت معظم رواياته إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية.

6 221102 021982

دار الشروق
www.shorouk.com